

تصوير ابو عبد الرحمن الكروبي

مذكرات

أرنستو تشي جيفارا



هشام خضر
مكتبة النافذة

مذکرات
أرنستو تشی جیفارا

مذكرات أرنستو تشي جيفارا

عرض وتحليل
هشام خضر

مكتبة النافذة

مذكرات أرنستو تشي جيفارا

هشام خضر

الطبعة الأولى / ٢٠٠٨

رقم الإيداع ١٣٧٧٠ / ٢٠٠٧

الطبعة

دار طبية للطباعة - الجيزة

كل الحقوق
محفوظة

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان



الجيزة ٢ شارع الشهيد أحمد حمدي

الثلاثيني (ميدان الساعة) - فيصل

Tel: 37241803 Fax: 37827787

Mob: 012 3595973

Email: alnafezah@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لو أن الدكتور أرنستو تشي جيفارا حيا يسعى على قيد الحياة، لكان قد عض بنان الندم على سنوات الكفاح والمرارة والذل والتشرد والتشتت والنضال والعصيان والتمرد على الحكام الطغاة المستبدين الذين أشاعوا الظلم والفوضى والديكتاتورية في طول البلاد التي حكموها في أمريكا الجنوبية وعرضها أيضا.

كان جيفارا طبيب الأسنان ذو الميول الماركسية قد نذر نفسه فداء للحرية والتحرر من قبضة الاستعمار الغاشم، والنظم المستبدة في شتى بقاع الأرض ظنا منه أن الماركسية بأفكارها ومبادئها ونظرياتها كفيلة بإنعاش الشعوب والمساواة بينهم والتحرر من أغلال الذل والعبودية لكنه كان واهما ولو طال به العمر لأدرك أن تلك الحقيقة ما هي إلا وهم من أوهام ماركس وأتباعه..

صحيح أن جيفارا كان نموذجاً خالياً يندر وجوده ومن ثم أصبح أسطورة يتداولها الشباب في شتى بقاع الأرض صوره ومذكراته بوصفه بطلاً أسطورياً متصوفاً زاهداً في محراب الحرية لكنه للأسف كان لا يدري أن كل من عاونهم للوصول إلى حكم بلدانهم بواسطة حروب التحرير أو العصابات كما يطلقون عليها لتأكد أن هؤلاء الثوار الذين في وصولهم للحكم قد استقروا على عروشهم عقوداً طويلة فاقت عقود سنوات احتلال بلدانهم، وعلى رأس هؤلاء الديكتاتور (فيدل كاسترو) صديق جيفارا الحميم الذي لا يزال منذ الخمسينيات على رأس السلطة في كوبا، وهي الدولة التي يروي فيها جيفارا مذكراته التي ننشرها في هذا الكتاب بدءاً من اليوم الأول وحتى نجاح ثورة كاسترو ورئاسته للبلاد.



مدخل ذكريات للتاريخ

منذ وقت بعيد ونحن ندرس إمكانية رسم وتصوير ووصف تاريخ لثورتنا بحيث
نتمكن من رصد كافة جوانبها وزواياها دون إهمال وإغفال أى وجه من وجوهها
المختلفة.

وكثيرا ما أكد قادة الثورة فى السر والعلن عن أمنيتهم فى تسجيل تلك المرحلة
التاريخية الدقيقة.. ولكن المهام كثيرة، والأعباء ثقيلة والأعوام تمضى على عجل،
والأيام أسرع من البرق، وذكريات النضال الثورى تضحل فى الماضى دون أن
تسجل فى صفحات الزمن الوقائع والأحداث التى أصبحت منذ تلك اللحظة جزءا
لا يتجزأ من تاريخ أمريكا..

من أجل كل هذا انصرفت إلى تدوين حلقات من ذكرياتى الخاصة عن المعارك
والمناوشات والهجمات التى شاركت فيها.

لم يكن الهدف من سرد هذه الذكريات الاكتفاء بهذا التاريخ الشخصى، وإنما أنا
أهدف من وراء ذلك أن يتحرك كل من عاش تفاصيل هذه الأحداث الهامة إلى
ضرورة تناول هذا الموضوع، ومحاولة توسعة هامشه بقدر المستطاع.

ولقد تعلق نضالى وكفاحى طوال المرحلة الثورية فى نقطة معينة ومحدودة من
الأرض الكوبية وبديهى أن هذا عرقل مسيرة اشتراكى فى الأحداث والمعارك التى
تهم مناطق أخرى.

ولكى يصبح المجال مفتوحا واسعا أمام جميع الذين انخرطوا فى صفوف الحركة
الثورية لكى يرسموا صورة من قريب عما صنعوه وما وقعت عليه أعينهم أثناء تلك

الأحداث.. ولكن وحتى تبدو الصورة جلية نقية لمن يراها رأيت أنه من المناسب أن أتناول في البداية سرد وقائع المعركة الأولى وهي المعركة الوحيدة التي كان فيها (فيدل كاسترو)^(١) يعارض ما أوردناه من آراء، أقصد مفاجأة «أليجريا دي يو».

ولا يزال على قيد الحياة عدد قليل من هؤلاء الذين شهدوا تلك اللحظة الحاسمة، وكل منهم مدعو لأن يسجل ذكرياته لكي تنضم إلى ما سبق أن رواه غيرهم حتى يتم وضع قصة ذلك اليوم بصورة كاملة وعلى نحو دقيق.

ولا أطلب ممن يكتب تلك الذكريات إلا قول الصدق والحق والصراحة، وينبغي على من يرغب بأن يدلي بدلوه أن يلتزم بتلك الخصال التزاما صارما فلا يميل أحد إلى تدوين أى أمر يشوبه أدنى ابتعاد عن الضبط الكلى، من أجل تسليط ضوء أو إضفاء لون براق على موقف شخصي.. وليعمد كل من أصحاب هذه الذكريات بعد أن يكتب عدة صفحات بشكل عفوى وتلقائى دون تصنع أو تجميل ووفقا لقدراته وإمكاناته ومهاراته ومؤهلاته العلمية أن يجنح إلى القيام بممارسة النقد الذاتى لتجربته حيث إن مثل هذا النقد قد يعمل على إسقاط كل ما هو غير صحيح من الرواية فضلا عن أنه قد يكون موضع شك أو تحفظ.

من هنا ومن خلال هذه الروح أبدأ بتسجيل ذكرياتى.

أرنستو تشي جيفارا

الفصل الأول

مع كاسترو في المكسيك

«كاسترو يقول لي في السجن: لن أتخلي عنك أبدا»

الفصل الأول مع كاسترو فى السجن

فى العاشر من مارس عام ١٩٥٢.. وبغير أن تراق نقطة دم واحدة، وقع الانقلاب العسكرى الذى قاده «فولخنسيو باتيستا».. ومن الطبيعى أن قصة هذا العدوان لا تبدأ فى نفس الساعة وذلك اليوم الذى وقع فيه انقلاب الثكنة، وإنما ينبغى البحث عن سوابقه بعيدا فى تاريخ كوبا.. قبل التدخل الذى قام به سفير الولايات المتحدة «همزولز» عام ١٩٣٣، بل قبل التعديل الذى قام به «بلات» على الدستور عام ١٩٠١، وقبل البطل «نوسيسو لوبيز» الموفد الذى أرسله أنصار ضم كوبا إلى الولايات المتحدة، حتى نصل إلى أصل الحكاية فى مرحلة «جون كوينس آدمز» الذى أوضح فى صورة براقة الطريقة التى تتعامل بها بلاده مع كوبا، خصوصا حين صرح بأن كوبا هى تفاحة سوف تسقط حين تنفصل عن أسبانيا بين يدى العم سام.

إن كل هذه الأحداث ما هى إلا حلقات من سلسلة العدوانات التى لم تكن كوبا هى فريستها الوحيدة.

إن المد والجزر فى أمواج الإمبرالية ينكشfan بوضوح عند سقوط وانفراط عقد الحكومات الديمقراطية من جانب، وعند قيام حكومات بضغط شعبى والذى لا يستطيع أحد مقاومته من جانب آخر.

هذا هو تاريخ أمريكا اللاتينية كلها.. حيث إن الأنظمة الديكتاتورية تشكل أقلية ضئيلة للغاية، ولكنها تأتى إلى الحكم بواسطة الانقلابات أما الحكومات التى تتسم بالممارسة الديمقراطية - تلك التى يؤيدها الشعب إلى حد بعيد - فلا تبلغ الحكم إلا بعد عناء وصعوبة ومشقة.

وغالبا ما تتصف قبل وصولها للسلطة بجميع التنازلات التي سبق لها أن قدمتها تحت ضغط رغبة البقاء في الحكم والجلوس على الكرسي البراق.. ورغم أن الثورة الكويتية هي حالة استثنائية في أمريكا كلها، ومن ثم لم يكن هناك مناص من أهمية الإشارة إلى ما قد سبقها من تطورات وأحداث هامة.

ولقد كان كاتب هذه السطور محمولا على أمواج الحركات الاجتماعية التي تهز قارتنا الأمريكية، حتى أنها قد جرفته بعيدا إلى خضم الأحداث، فأصبح بذلك قادرا على التعرف على أحد المنفيين الآخرين هو «فيدل كاسترو»، لقد تعرفت على كاسترو في إحدى ليالي الشتاء الباردة التي تشتهر بها المكسيك، ومازلت على عهدي أتذكر ما دار بيننا حول السياسة الدولية، وفي ساعات الصباح الأولى في ذلك اليوم كنت قد تحولت إلى واحد من أعضاء حملة الفتح القادمة...

أود أن أوضح هنا كيف ولماذا قابلت في المكسيك رئيس حكومة كوبا القادم؟!

كان ذلك وقت تراجع الأنظمة الديمقراطية في عام ١٩٥٤، حين سقطت آخر ديمقراطية أمريكية ثورية كانت لاتزال في ذلك الوقت تقف على قدميها في نصف الكرة الأرضية، أقصد هنا بالتحديد حكومة «آرينزجوزمان» وذلك أمام العدوان الذي خططت ودبرته له ونفذته بضمير بارد الولايات المتحدة الأمريكية من وراء جبل شاهق من الدخان الكثيف كانت قد شيدته دعايتها في شتى أنحاء القارة.. وكان الشخص الذي ظهر أمام العالم متحملا تبعات هذا العدوان هو وزير الخارجية الأمريكي «جون فوستر دلاس» الذي شاءت الصدفة الغريبة أن يكون هو أيضا محامي شركة «الثمار المتحدة» (يوناييتد فروت) وأحد كبار المشاركين بها، وهي الشركة الاستعمارية الكبرى الفاعلة في جواتيمالا.

ولقد تركت البلاد وقد ساد بداخلي شعور بالمرارة مع جميع أبناء جواتيمالا باحثا وساعيا في ذات الوقت عن المنهج الذي يمكن من خلاله بناء مستقبل جديد لهذه الأمة التي غرقت حتى أذنيها في عتمة الليل الطويل.

وكان «كاسترو» قد أقبل إلى المكسيك باحثا عن أرض تتسم بالحياد، ولإعداد وتجهيز رجال من أجل القيام بعمل حاسم.

وكانت قد جرت عمليات فرز لهؤلاء الرجال لاختيار من يصلح منهم طبعا بعد وقوع الهجوم على موقع «مونكادا» في «سانيتا جو» بكوبا.

وقد تم فصل كل من بدا مترددا، كما انخرط آخرون لسبب وربما أكثر إلى أحزاب سياسية أو إلى منظمات وحركات ثورية وتحررية يطلب منهم تقديم قدر أقل من العطاء والتضحيات.

وانضم الذين تطوعوا حديثا إلى صفوف الحركة الجديدة «حركة ٢٦ يوليو»، وكان على مسئولى الحركة مهام عسيرة خاصة فيما يتعلق بتدريبهم فى ظروف تدور فى إطار من السرية الكاملة، فكان عليهم مواصلة النضال ضد الحكومة المكسيكية وعملاء المكتب الاتحادى الأمريكى للتحريرات (F - B - I) وعملاء «باتيستا»، وضد جميع المنظمات التى تزعم السيطرة فيما يلعب المال فى شئونها وتحركاتها دورا لا غنى عنه. وكان ينبغى من جهة أخرى وضع حساب دقيق لجوايس «تروخيو» وهؤلاء المشبوهين الذين كانوا يبعثون بهم إلينا - وخصوصا من ميامى - ولم تكن السيطرة على كل هذه العقبات هى كل شئ، بل كان يجب النجاح فى الذهاب إلى كوبا. . ولا بد بعد ذلك من القدرة على الوصول، ثم لا بد أيضا من النجاح أخيرا فى قيادة ما تبقى، قيادة يكون التوفيق حليفها، وهو أمر بدا لنا ساعتئذ سهلا يسيرا، أما اليوم فنحن نعلم كم يتطلب من تضحيات وجهود، بل وأرواح أيضا.

وقد راح «فيدل كاسترو» يدعمه نفر من أخلص الناس يعملون فى إعداد وتنظيم الجيش الذى سيتوجه إلى كوبا. . وقد بذل هذا التنظيم كل نشاطه وطاقته القصوى على الأداء العلمى، ولم يكن يعطى دروسا فى التكتيك العسكرى، إذ لم يكن لديه الوقت الإضافى لإعطاء مثل هذه الدروس.

وكان هذا هو دور الجنرال «البرتوبايو» (هو ضابط أسباني مرموق كان يعيش في كوبا وله مؤلف بعنوان «دورى فى الثورة الكوبية»).

ومنذ الدروس الأولى تولد بداخلى اعتقاد جازم بأننا سوف نفوز، (وأنا أقر هنا بأن النصر كان قد ظهر أمامى مشكوكا فيه عندما وضعت نفسى تحت تصرف قيادة الثورة، هذه القيادة التى جذبنى لها للوهلة الأولى رابط رومانطيقى كان مكونا من المغامرة والاعتقاد والتعاطف وذلك بأن مثلا أعلى مثل الذى تعمل له الثورة هو جدير بأن يموت فى سبيله الفرد فى بلاد غير بلاده).

ومضت الأيام والأسابيع وراحت تتجلى فى أغلبنا مهارة الرماية، حتى بات لدينا كوكبة من أمهر الرماة. . ووجدنا إحدى مزارع مدينة المكسيك بدأنا فيها من خلال إدارة الجنرال «بايو» لكى نجهز أوضاعنا من أجل الانطلاق إلى كوبا، وكنا قد ضربنا موعد ذلك التحرك فى شهر مارس ١٩٦٥. . ولكن كانت هناك منظمتان من بين منظمات الشرطة مأجورتين من (باتيستا) كانتا فى سباق مع الزمن لمطاردة وملاحقة «فيدل كاسترو» وقد تمكنت واحدة منهما (من الناحية المالية) من توقيف كاسترو بيد أنها قد ارتكبت خطأ فادحا كان مرده الجشع فى الاستحواذ على المال ومن ثم لم تقتله بعد أن وقع فى شباك الأسر (كان العميل السرى الذى أبلغ عن فيدل كاسترو إلى السلطات المكسيكية يطمع فى الحصول على جائزة مالية إذا حالفه التوفيق) ووقع عدد من الأنصار فى براثن رجال الشرطة وقام هؤلاء بعد ذلك بالتفتيش فى مزارعنا الواقعة فى أطراف مدينة المكسيك ومن ثم وجدنا أنفسنا جميعا فى السجن.

لقد أدى هذا الحادث إلى ضرورة تأجيل المراجعة العامة الأخيرة وكان بيننا من قضى فى السجن رهاء ٥٧ يوما ولم يقض أحد مدة أقل من ذلك إطلاقا وبدأت إجراءات تسليمنا إلى أوطاننا تبدو لنا كالسيف المسلط على رقابنا جميعا (وكنتم أنا وكاليسكو جارسيا على علم ودراية بمعنى مثل هذا التسليم).

ورغم ذلك لم يهتز - على وجه الإطلاق - ما بداخلنا من ثقة فى (فيدل كاسترو) وينبغى القول إن فيدل كاسترو وفقا لما بيننا من صداقة قد صدرت عنه أشياء أو شكت أن تهدد موقفه الثورى.. فلقد عرضت أمامه إمكاناتى الشخصية.. لقد كنت أجنبيا تسللت إلى المكسيك وعلى كاهلى أحمل اتهامات لاحصر لها وقلت له ينبغى - على وجه الخصوص - ألا تتراجع المسيرة نحو الثورة من أجلى وأنه يمكنه أن يخلفنى وراءه وأننى أقدر الموقف تقديرا سليما وتداعياته السلبية ومن ثم سوف أحاول الانطلاق لميادين القتال أينما أرسلونى وكل ما أتطلع إليه هو أن يرسلونى إلى أى بلد قريب على ألا تكون الأرجنتين. وأنا لازلت أتذكر الجواب القاطع الذى أجبانى به فيدل كاسترو «لن أتخلى عنك أبدا» وكان ذلك بالفعل، فبعد مرور وقت قليل وحفنة بسيطة من المال.. وكلاهما عزيز.. أخرجونا من السجن المكسيكى إن سلوك فيدل نحو الذين يقدرهم يفسر فى ظنى ذاك التعلق غير المشروط الذى نراه فى أتباعه.. وهو تعلق يختلط فيه الالتزام بالقيم والمبادئ مع أهمية الولاء للشخص ولهذا السبب نرى هذا الجيش الثائر عبارة عن كتلة واحدة مترابطة متوحدة كأنها رجل واحد.

ولقد بذلنا جهودنا أياما عديدة فى الخفاء وكنا نخفى متى أردنا ذلك ونتحاشى الظهور فى الأماكن العامة.. وكان يندر سيرنا فى الشارع فى وسط المدينة، وبعد عدة أشهر قضيناها معاً على هذا النحو أدر كنا أن بين صفوفنا عميلا خائنا لا نعرف من هو على وجه الدقة.. خائنا كان قد باع كمية من الأسلحة وتوافرت لدينا بعض المعلومات التى تشير إلى أنه قد تفاوض مؤخرا على بيع يخت كنا نملكه ومحطة إذاعة كانت فى حوزتنا وإن لم يكن عقد البيع القانونى قد تم بعد.. وهذه الخيانة الأولى برهنت للسلطات الكويتية أن الذى قام بها هو بالفعل من بين صفوفنا وأنه يعرف أدق أسرارنا. ومنذ هذه اللحظة تطلب الأمر القيام بنشاط فاعل وحيوى

فجهز المركب «جرائنا» بسرعة جنونية وقمنا بتخزين كافة المواد الغذائية التي بحوزتنا - وقد كانت خفيفة - إلى جانب الملابس والبنادق والتجهيزات وبنادقتين مضادتين للدبابات وكنا فى تلك الأثناء نفتقد للذخيرة.. وأخيراً فى الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٩٥٦ وبالتحديد فى تمام الساعة الثانية صباحاً راحت تتمثل كلمات فيدل كاسترو التى كانت فى ذلك الوقت محل تهكم وسخرية واستخفاف الصحافة الرسمية حيث كان يردد «عام ١٩٥٦ سنكون أحراراً أو شهداء»، وكانت جميع المصابيح قد انطفأت حين تركنا مرفأ «توكسبان» بين ركاب ضخم من الرجال والحقائب.. وكان الطقس سيئاً للغاية حتى أن الملاحه كانت محظورة فيما كان مصب النهر هادئاً كعادته.. وفى أعقاب خروجنا من المرفأ حتى أضيئت المصابيح مرة أخرى وكان من غير الممكن العثور على حبوب الدارماين (وهى الحبوب الخاصة بالوقاية من الإصابة بدوار البحر والعلاج منه) رغم أن دوار البحر قد اجتاح أغلبنا وكنا نردد مع النشيد الوطنى الكوبى، ونشيد ٢٦ يوليو وربما استغرق معنا الإنشاد نحو دقائق قليلة فى كل مرة..

وكان منظر المركب يدعو للرتاء والضحك معاً حيث كان من بيننا من ارتسم الحزن والخوف على ملامحهم وقد أمسك بعضهم بطنه بيده فيما كان هناك آخرون جلسوا على أرض المركب دون أن يحرك أى منهم ساكننا فى صورة من أعجب الصور وقد تلطخت ملابسهم بما تقيثوه... وبصرف النظر عن اثنين أو ثلاثة من الملاحين وأربعة أو خمسة أشخاص آخرين، أصيب الركاب الثلاثة والثمانون جميعاً بأقسى وأفظع أنواع دوار البحر. وفى اليوم الرابع أو الخامس بدأت الأمور تتحسن تدريجياً واكتشفنا أن ما ظنناه مجرى ماء فى المركب لم يكن سوى نتيجة صنبور مفتوح فى الغرفة الخاصة بالأدوات الصحية ومن ثم اضطررنا إلى أن نلقى فى البحر كل ما لا نحتاج إليه حتى نخفف من أوزاننا.

وكان خط الإبحار الذى اخترناه يحتوى على منحنى هائل فى جنوبى كوبا سيرا بالقرب من شواطئ (جامايكا) وجزر (جران كايمان) لنرسو فى نهاية المطاف على شواطئ ساحل مقاطعة «أوريانتى» فى كوبا فى مكان ما بالقرب من بلدة «بنكيرو» وكان البطء هو السمة البارزة فى تنفيذ الخطة . . وفى ٣٠ نوفمبر أخبرنا الراديو أن اضطرابات اندلعت فى سانتياجو «بكوبا» وقد كان رفيقنا الكبير «فرانك بايس» الذى كان قد أطلق شرارتها الأولى تزامنا مع وصول حملتنا .

وفى أول ديسمبر بعد أن أسدل الليل أستاره اتجهنا على الفور إلى كوبا واليأس كاد أن يعصف بنا بعد أن تاهت منا معالم الاهتداء بمنارة «كابوكروز» (رأس الصليب) وذلك لحاجتنا الشديدة إلى الوقود والطعام والشراب وفى تمام الساعة الثانية من صباح هذا اليوم . وفى الليل الحالك ومن بين العواصف والأنواء كان الموقف غير مطمئن حيث إن خفراء الساحل يذهبون ويعودون أملا فى الوقوف على مصدر الشعاع الذى يظهر فى الأفق ساعة بعد أخرى وكان رفيقنا «روسك» وهو ضابط بحرى متمرس خوفا من مشاهدة (رأس الصليب) أخيرا صعد مرة ثانية جسرا صغيرا ومرتفعاً فى المركب وسرعان ما زلت به القدم فسقط فى الماء وقد أسرعنا لإنقاذه على جناح السرعة . . وبعد أن انتشلناه حيا إلى المركب عاودنا المسير حتى ظهر لنا شعاع الساحل أخيرا بيد أننا تقدمنا مشدوهين بهذا الضوء الذى جعلنا نشعر جميعا بأن رحلتنا تبدو وكأنها حديقة لها نهاية .

كانت الشمس قد سطعت مشرقة حين وصلنا ساحل كوبا واتجهنا إلى مكان يدعى «بيليك» على شاطئ «الكولورادس» .

وشاهدنا أحد الزوارق وعلى متنه خفر السواحل وفى الحال أبرق إلى (جيش باتيستا) يخبرهم برؤيته لنا ولكننا توجهنا إلى الشاطئ بسرعة بالغة وقد حملنا على ظهورنا ما يمكن لنا أن نحمله من الحاجات الضرورية .

ولم يكن لدينا الوقت من أجل التغلغل فى المستنقعات حتى راحت طائرات جيش باتيستا تحلق فوقنا ولكن كانت هذه المستنقعات مغطاة بشجيرات الغزار وكنا نحن نمشى بينها ومن ثم عجزت هذه الطائرات من الاهتداء إلينا أو مهاجمتنا ولكن هذا العدو الغاشم بدأ يعد العدة لملاقتنا ومطاردتنا بأوامر عليا .

وأمضينا عدة ساعات قبل أن نخرج من هذه الورطة وقد ورطنا فيها أحد الحمقى من رفاقنا الذى زعم كذبا معرفته لتلك المستنقعات فلقد كنا هناك بالفعل على البر نتعثر وتذل بنا القدم فى الأرض الموحلة ونضل الطريق . كنا جيشا تكون من الأشباح تتقدم للأمام وكأن هناك قوة خفية تدفع بنا للأمام .

وكنا قد أمضينا من الوقت نحو سبعة أيام تصورنا خلالها جوعا وتألنا فيها من مغبة دوار البحر وها هى ثلاثة أيام أخرى تضاف إليها لتصبح عشرة أيام لا نظير لها من حيث الرعب والهلع .

وبعد مرور عشرة أيام بالتمام والكمال من مغادرتنا للمكسيك وصلنا فى ٥ ديسمبر عند الفجر، وبعد رحلة ليلية رهيبة كانت الإغماءات وحالات القيء والغثيان وقلة الراحة من أهم معالمها ومظاهرها .

لقد اهتدينا أخيرا إلى نقطة تدعى «بهجة الناسك» «أليجريا دى بيو» وكان لعبة القدر تلاحقنا .



التعميد بالنار

تقع «اليجريا دى ييو» فى مقاطعة «أوريانتى» مديرية «ينكيرو» فى مكان لا يبعد كثيرا عن (كابوكروز) وفى تلك المنطقة باغتسنا القوات الديكاتورية فى الخامس من ديسمبر عام ١٩٥٦ .

ولقد وصلنا إلى اليجريا دى ييو» على آخر نقطة بعد مشوار طويل بالطبع ولكنه كان عسيرا ومرهقا . وكنا فى أثناء ذلك قد توجهنا إلى الشاطئ فى ٢ ديسمبر فى مكان يدعى «شاطئ أكولورادس» حيث إننا خسرنا كل معدتنا ومن هناك مشينا ساعات طوالا بين مستنقعات المياه المالحة بأحذيتنا الجديدة التى سببت لنا قروحا لا يمكن أن يتحملها بشر . . لكن لم تكن الأحذية الجديدة والأقدام التى تنزف دما أعداءنا الوحيدة: ففى سبيل بلوغ كوبا قطعنا سبعة أيام من أجل اجتياز خليج المكسيك وبحر الكرايبس على مركب فى حالة سيئة ودون أن يكون فى حوزتنا ما نتناوله من طعام . . وتعرض الجميع لدوار البحر .

صحيح أننا لم نكن على علم بأصول وقواعد الملاحة ولكن عندما غادرنا مرفأ (توكسبان) فى الخامس والعشرين من نوفمبر كانت الرياح الشمالية تجتاح البحر بعنف حتى أنها أرغمت السلطات على إصدار أوامرها بمنع الإبحار وقد ترك كل هذا آثاره فى قوتنا المكونة من رجال حديثى العهد بنا ولم يعرف أى منهم القتال قبل هذا اليوم . .

ولم يكن قد بقى لنا من عتادنا الحربى أكثر من البندقية وجناد الخرطوش وبعض الرصاصات المبتلة . . وخسرنا تجهيزاتنا الطيبة وتخلى أكثرنا عن كيس الجندى فى المستنقعات . . وكنا بالأمس قد تقدمنا طوال ساعات الليل فى المنطقة غير المزروعة بقصب السكر التى تسمى «ينكيرو» التى كان يملكها فى تلك الأيام «خوليو لوبو» ولم

نكن نملك الخبرة الكافية فكنا نهديّ ظمأنا وجوعنا بمص العديد من عيدان قصب السكر كنا نقوم بنزعها من أطراف الحقول ونتخلص من فضلاتها فى عرض الطريق ثم بالإضافة إلى ذلك لم يكن جنود باتيستا فى حاجة لإجراء تحريات غير مباشرة فقد كان يكفيهم مؤونة ذلك دليلنا نفسه وقد اتضح لنا هذا بعد مرور سنوات - إذ أخذ على كاهلة أن يخوننا وأن يقود قوات المستبد الطاغية إلى حيث نكون - وكنا قد تركنا لذلك الدليل مساحة واسعة من حرية الذهاب والعودة وفق هواه فى الليلة السابقة وكان هذا خطأ ارتكبهنا عدة مرات أثناء القتال إلى أن أدركنا وتنبهنا إلى أن عناصر الأهالى الذين لا نعرف ماضيهم ينبغي وضعهم تحت ميكروسكوب المراقبة الدقيقة ما دمنا متواجدين فى منطقة تتسم بالخطورة.

لقد كان لزاما علينا ألا نسمح إطلاقا لمرشدنا الخائن بأن يغيب عن أعيننا .

وفى فجر الخامس من ديسمبر كانوا آنذاك قلة هؤلاء الذين يشعرون بأنهم يملكون القدرة على أن يتقدموا خطوة أخرى إلى الأمام فالرجال الذين أرهقهم الإعياء كانوا يسيرون مسافات قصيرة فقط ويطلبون التوقف فترات طويلة ومن ثم تقرر أن نتوقف عند إحدى المزارع الخاصة بزراعة قصب السكر ضمن غابة صغيرة غير مكتظة ثم أشرقت الشمس وكنا فى سبات عميق وعند ظهر اليوم بدأنا نرى إشارات غير مألوفة لنا تنبئ بالخطر القادم حيث راحت الطائرات التى يملكها الجيش بغرض المراقبة والاستطلاع تحلق من حولنا حتى كانت هذه الطائرات تمر فوقنا وكنا ننظاها بأننا غير عابئين بما يحدث ونحن غارقون فى قطع قصب السكر خاصة وإننا كنا مكشوفين لطائرات العدو التى كانت منخفضة الارتفاع .

وكنت بوصفى طبييا يتولى شئون الفرقة والعناية بما أصاب أقدام أفرادها من جروح وقروح أذكر آخر معالجة طبية قمت بها فى هذا اليوم كان الرفيق الذى توليت علاجه هو (أوميرتولا مبوتى) وكانت هذه هى المرحلة النهائية حيث كان قد بدا لى

حيثُذ مجرد شبح بائس يائس حاملا بيده حذاءه الذى عجز عن انتعاله وكنت والرفيق موتتانيه نستند على جذع شجرة ونتجاذب معا أطراف الحديث عن أولادنا وقد انهزمك كلانا فى تناول الطعام الذى كان مكونا من نصف قطعة من المقائق ورغيفين من الحجم الصغير، وسرعان ما سمعنا طلقا ناريا يدويا فى رحاب الفضاء وفى خلال ثوان تبعته دفعة هائلة من الطلقات النارية (أو هكذا بدا لأنفسنا التى باغتها عمادة النار هذه) على رجالنا البالغ عددهم نحو ٨٢ رجلا. ولم تكن بندقيتى من أكفا وأحدث البندقيات. حيث كنت قد طلبت بإرادتى أن تكون من هذا المستوى لأن حالتى الصحية كانت تدعو للرثاء بعد أن داهمتنى نوبة ربو شديدة طوال أيام عبورنا البحر، ولم أكن أحرص على أن تضع بندقية كفاء بين يدي. . .

لست أدرى فى أية ساعة أو حتى كيف حدثت الأمور وتفاعلت. . . أوه لقد بدأت الذكريات فى الأفول. . . إنما أذكر أن رفيقى «الميدا» الذى كان حيثُذ بدرجة كابتن جاءنى أثناء تساقط المطر الغزير يطلب الأوامر بيد أنه لم يكن هناك أحد يعطى الأوامر وأخبرونى فيما بعد أن فيدل كاسترو حاول لكن دون جدوى إعادة تحشيد الرجال فى إحدى المزارع المجاورة لقصب السكر وحتى يصل الرد إليه كان يكفى أن يختار المنطقة غير المزروعة. . . بيد أن المفاجأة كانت كبيرة إلى أقصى درجة وأما إطلاق النار فقد كان كثيفا للغاية. . . وعاد ألميدا لكى يولى اهتماما بفرقة وفى ذات الوقت ألقى أحد الرفاق صندوقا مكتظا بالرصاص أمام قدمى وحينما سألته عن المعنى وراء هذا الأمر أجابنى وقد بدا لى مهموما وكسيرا قائلا: «ليس هذا الوقت الملائم للاهتمام بصناديق الرصاص» وما كاد يفرغ من هذه العبارة اليايسة حتى أطلق ساقه للريح قاصدا مزرعة القصب (وأثناء ذلك سقط قتيل على يد أحد جنود جيش باتيستا ووقفت أنساء. . . هل سأنذر نفسى للطب أم لواجبى كجندى ثورى؟ ربما كانت تلك هى المرة الأولى التى واجهت فيها هذا المأزق بشكل واقعى: فيها

هى حقيقة قد امتلأت بالأدوية وصندوق زاخر بالرصاص وثقل كليهما يحول بينى وبين حملهما وإذا بى أحمل صندوق الرصاص وأترك حقيقة الأدوية لكى أعبر المسافة المكشوفة التى تفصل بينى وبين مزرعة قصب السكر وأذكر بكل وضوح أننى شاهدت «فوستينوويريز» وقد جثا على ركبتيه فى المنطقة غير المزروعة وهو يطلق النار من بندقيته الرشاشة وإلى جوارى أحد الرفقاء ويدعى «البيتوسا» فى طريقه إلى مزرعة القصب وإذا بدفعة كثيفة من الطلقات تصيبنا نحن الاثنين وأحسست بضربة عنيفة قوية فى صدرى مع جرح نازف فى عنقى واعتبرت نفسى حيثثد فى عداد الموتى وأما (البيتوسا) الذى كان الدم يتزف من فمه وأنفه ومن ذاك الجرح الغائر الكبير الذى يتزف من عنقه الذى سببته رصاصة عيار ٤٥ فقد راح يصرخ قائلاً: «لقد أصابونى» وراح يطلق الرصاص كالمجنون حيث لم يكن أمامه أحد فى تلك اللحظة فالتفت وأنا مضرج فى دمائى على الأرض إلى «فوستينو» وقلت له: إنهم يثيرون سخطى «بل إننى قد استخدمت كلمة أكثر حماقة».

أما فوستينو فقد رمقنى بنظرة وأخبرنى ببساطة الأمر وإن كنت قد قرأت فى عينيه ما يعنيه الجرح الذى أصبت به من حكم على حياتى.

* * * *

وظللت متمددا وبعثت طلقاً نارياً فى اتجاه رجال المقاومة فى رضوخ للحافز الكامن فى نفسى الذى دفع رفيقى الجريح لإطلاق النار بصورة جنونية وعشوائية. بعد ذلك فكرت فى أفضل طريقة للموت فى تلك اللحظة التى فيها وكأن كل شىء قد انتهى . . . وعادت إلى ذاكرتى قصة «جاك لندن» القديمة التى يستند فيها البطل على جذع شجرة وهو يتأهب للتخلص من حياته فى ثورة كرامة طارئة بعد أن علم أن حكماً بالموت بواسطة التبيد يتظره فى مناطق الأسكا الجليدية.

وهذا هو المشهد الوحيد الذى مازلت أتذكره فى تلك اللحظة الخطيرة وكان هناك أحدا جاثيا على ركبتيه يصرخ صرخات مدوية داعيا إلى الاستسلام ومن ورائنا تنهى لأسماعنا صوت يزمر «وقد علمت بعد ذلك أنه صوت» كاميلو سينفويجوس» «ممن أحد يستسلم هنا» وأعقب تلك العبارة بكلمة وقحة وبذيئة واقترب بونس وهو كالموج المتلاطم منقطع الأنفاس يشير إلى الجرح الذى كان يبدو مخترقاً صدره وقال لى إنه جرح فأفهمته بلا مبالاة كلية أننى أيضا قد جرحت وتابع بونس تقدمه صوب مزرعة القصب كما كان يفعل بقية الرفاق الذين لم يتعرضوا لأذى الرصاص الجارح والقاتل.

وبقيت فترة من الزمن بمفردى هناك فى انتظار الموت وأقبل ألميدا نحوى وشجعنى على الاستمرار فى عملية الزحف ورغم ما بى من آلام تمكنت من الوصول زحفا إلى مزرعة القصب. ورأيت قرب جذع الشجرة رفيقنا العزيز راوول سوارز وقد دمرت رصاصة إبهامه «وفوستينو بيريز» يضمدها له ثم اختلط كل شىء حيث مرت الطائرات على ارتفاع منخفض للغاية وراحت تطلق النار من رشاشاتها مما زاد الأمر سوءا على سوء حتى كنت كمن يعيش فى جحيم دانتي، وتارة تبعث على الضحك فلقد كنت تارة مقاتلا يتسم بضخامة الجسد يحاول أن يختبئ وراء حزمة كبيرة من قصب السكر أو تجد آخر يطلب الالتزام بالصمت دون أن يعرف أحد لماذا. . . بين ثايا هذه الصراعات العنيفة التى كانت تسببها الطلقات النارية.

وتشكلت مجموعة من الرجال كان فى طليعتهم (الميدا) وكانت تتألف من راميدو فالديس الذى يشغل الآن درجة قومندان (وكان برتبة ليوتنان فى ذلك الوقت) كما كانت تضم الرفيقين تشاو وبنيتز وأنا، واجتزنا بقيادة ألميدا آخر منطقة غير مزروعة فى مزرعة القصب قبل أن نصل الجبل الذى سنعتصم به.

وفى الوقت ذاته تناهى لأذاننا صوت الصرخات الأولى التى تعالت بإشعال النار فى المزرعة وشاهدنا أعمدة الدخان واللهب يتصاعد منها ولا يمكننى أن أؤكد هذا المشهد فقد كنت فى تلك اللحظة أفكر فى مرارة الهزيمة، وفى قرب موتى أكثر مما أفكر فى أحداث القتال وتطوراتها البالغة. . ومشينا حتى أقبل الليل الذى حال بيننا وبين المسير ومن ثم قررنا جميعا أن ننام جنبا إلى جنب يهاجمنا البعوض ويلتهمنا الجوع ويفترسنا العطش.

هذه كانت خلاصة عمادتنا بالنار فى الخامس من ديسمبر عام ١٩٥٦ فى جوار «نيكيرو» وهكذا أخذ الجيش فى التفاعل حتى بدأ يتبلور ليصبح بعد ذلك جيش الثورة».

* * * *

الفصل الثانى

الجريمة التى لا تغتفر

«إن تخليكم عن أسلحتكم جريمة حمقاء لا تغتفر»

فيدل كاسترو

الفصل الثانى

الجريمة التى لا تغتفر

فى اليوم التالى المفاجأة «الجريا دى بيو» مضينا فى طريقنا حيث الأراضى المغطاة بالأشجار فيما كانت الطلقات النارية تصدر على فترات زمنية متقطعة من هنا وهناك ولم تتمكن من الوصول إلى الطريق الصحيح ولاحظ (تشاو) الخبير والمتمرس فى الحرب الأسبانية أننا إذا اتجهنا فى طريقنا الطويل المظلم فمن المؤكد أننا سوف نقع فى براثن العدو ومن ثم أرى أنه يجب علينا أن نبحث عن مكان نتنظر فيه أن يرخى الليل ستائره حتى نعاود المسير مرة أخرى.

كنا فى واقع الحال بغير ماء وحتى علبة الحليب الوحيدة التى كانت معنا قد وضعها (بنيتز) فى جيب سترته معكوسة ليتساقط الحليب من ثقبها دون أن ندرى وحين حل موعد تناول الطعام وهو عبارة عن أنبوب فيتامين فارغ كنا نملأ هذا الفراغ بالحليب الكثيف مع إضافة قليل من الماء، ولأن الحليب قد بلل سترة (بنيتز) بفعل وضع العلبة المعكوسة فقد عجزنا عن تدبير احتياجاتنا الغذائية.

واستطعنا أن نختبي فى شىء ما يشبه المغارة ومن خلال هذا المكان كان أمامنا مدى كبير وواسع تهيم فيه العين من جانب ولكن كان شاقا على النفس أن ترى العدو أمام عينيك يقتحم هذه المغارة. . . ومع ذلك فحيث إننا كنا نحرص على ألا يرانا أحد أكثر من حرصنا على أن ندافع عن أنفسنا قررنا البقاء هناك طول النهار دون أن يتردد أى أحد منا على وجه الإطلاق نحن الخمسة فى التعهد القاطع بالنضال حتى الموت وهذه هى أسماء الذين أقسموا هذا اليمين «راميرو فالديس» (وخوان الميدا) و(تشاو) و(بنيتز) وكاتب تلك المذكرات وقد كتب لنا جميعا أن نظل أحياء على ظهر الحياة بعد مرارة الهزيمة القاسية وما ترتب عليها من معارك.

وحين أقبل الليل عاودنا السير وشرعت فى تنشيط ذاكرتى حتى أتذكر معلوماتى التى استوعبتها فى الماضى فيما يخص العلوم الفلكية فاستطعت أن أهتدى بنجمة القطب للتقدم خلال اليومين التاليين باتجاه ناحية الشرق والوصول إلى جبال «سيرا مايشرا» وبعد مرور عدة أشهر علمت أن النجمة التى استرشدنا بها نحو الشرق لم تكن نجمة القطب لقد أخذنا إذن بطريق الصدفة المحضة^(١) الاتجاه السليم حتى نجد أنفسنا عند الفجر أمام الصخور العالية القريبة من الشاطئ.

وكانت هناك صخور تفصل بيننا وبين البحر ترتفع عالية نحو خمسين مترا وإلى الجانب الآخر كانت هناك صورة براقعة جذابة ساحرة هى صورة رقعة المياه التى كنا نحسبها مياهها عذبة.

لقد كان العطش هو مصدر عذابنا الرهيب وفى أثناء هذه الليلة تكاثرت من حولنا سراطين الأرض فأغرنا عليها إغارة ضخمة بدافع الجوع والعطش ولأننا لا نستطيع أن نوقد ناراً فقد التهمنا الأجزاء الجيلاتينية من أجسامها نيئة الأمر الذى أصابنا بعطش لا يمكن تحمله.

وفد قضينا وقتاً معقولا قبل أن نعثر على ممر كان علينا أن نعبره طلبا للماء ولكن فى ذهابنا وإيابنا غابت عن أعيننا رقعة المياه التى وقعت عليها أعيننا من شأق.

وكان علينا أن نقف أمام برك مياه صغيرة هى ما تبقى من مياه الأمطار سقطت من قبل فى بعض الحفر.

وساعدتنا مضخة صغيرة يتم استخدامها ضد الربو على نزح الماء ولم يكن نصيب الواحد منا أكثر من بضع نقط لا تشفى الغليل.

* * * *

(١) بل. . . تصاريق القدر ياجيفارا.

واستأنفنا السير على غير هدى حتى انهارت معنوياتنا. . ومن وقت لآخر كانت تخلق إحدى الطائرات فوق البحر.

وكان السير بين الصخور مرهقا للغاية فاقترح أحدنا أن نمشي ملتزمين جوانب الصخور الراسية على الشاطئ. . ولكن كان لهذه الطريقة آثار سيئة واضحة هي أن العدو يستطيع حيثئذ رؤيتنا. . وأخيرا تمددنا تحت ظلال بعض الشجيرات فى انتظار ساعة المغيب وحينما تقدم الليل وأعلن مجيئه عثرنا على شاطئ رملى صغير فتوجهنا إلى البحر من أجل الاستحمام والتخلص من القاذورات التى حاقت بنا. .

وحاولت من جانبى أن أطبق فكرة كنت قد قرأتها فى تقرير شبه علمى أو فى نشرة طبية أو ربما فى إحدى الروايات. . المهم أن خلاصة هذه الفكرة هي أن المياه الحلوة إذا اختلطت بمياه البحر بنسبة الثلث إلى الثلثين تعطى المرء ماء صالحاً للشرب بالإضافة إلى أن كمية المياه تصبح أكبر، وقمت بإجراء التجربة فى قطعة يابسة ولكن كانت النتيجة تبرهن على الفشل فالماء تحول إلى ملح أجاج مما جعلنى بعد هذه التجربة موضع انتقاد شديد من رفقاتى وعاودنا السير وقد استردت أجسامنا عافيتها بفعل الاستحمام وكان الليل على وشك التسلل على الكون، وأذكر ليلتها أن ضوء القمر كان قويا جذابا فشاهدت أنا (وأليدا) وكنا فى مقدمة المجموعة وشاهدنا كوخاً صغيراً أقامه أحد الصيادين على الشاطئ وكان بداخله ثلاثة رجال يتأهبون للنوم وكنا على يقين أنهم جنود. . ولكننا كنا قد اقتربنا كثيرا من الكوخ بحيث لم يعد ينفع أن نعود من حيث جئنا مرة أخرى وتحمل أليدا مسؤولية التوجه إلى هؤلاء الرجال ولهول المفاجأة التى لم نكن نتوقعها بحال من الأحوال فقد اكتشفنا أن الرجال الثلاثة كانوا من رفقاتنا فى المركب «جرانما» الذى عبرنا فيه بحر المكسيك وهم «كاميلو سينفو يجوس» و«بانشو جونزالز» و«بابلو أوزنادو» وفى الحال أخذنا نتجاذب الآراء المختلفة معا والأخبار والأنباء والأفكار حول بعض ما توافر لدينا من

معلومات وقدموا إلينا حزمة من قصب السكر كانوا قد اقتطعوها قبل هروبهم من المزرعة فكانت هذه المادة السكرية السائلة ما نسد به جوعنا.

وبينما كنا نمنع قصب السكر كانوا هم يتناولون ما قدمناه لهم من سراطين البر بلهفة شديدة ووجدوا طريقا لإرواء ظمأهم باستخراج الماء مباشرة من الحفر الصغيرة فى الصخر من خلال أنبوب أو خشبة صغيرة فارغة واستأنفنا السير معا وأصبح عدد المقاتلين الذين كتبت لهم النجاة ممن كانوا على متن المركب (جرانما) ثمانية إذ لم تكن لدينا أية معلومات عن وجود أحياء آخرين..

لقد قدرنا من حيث المنطق أنه ينبغي أن تكون هناك مجموعات أخرى تشبه مجموعتنا ولكن لم تكن لدينا أى فكرة عن المكان الذى يمكننا أن نلتقى معهم بداخله.. وكل ما كنا نعرفه هو أننا فى طريق سيرنا، والبحر إلى يميننا إنما كنا نتجه ناحية الشرق يعنى صوب الجبل «سيرا» حيث يجب أن نلجأ.. ولم نكن لنخدع أنفسنا فبين هذه الصخور المرتفعة وبين البحر حيث نسير لم يكن لنا أى مجال للهرب فى حال مباغته قوات العدو لنا ولا أذكر الآن هل مشينا يوما أو يومين أو مشينا ثلاثة أيام على طول الشاطئ.. ولكن أذكر فقط أننا كنا نأكل من الصبير الصغير الذى كان ينبت بين الصخور ولم يكن نصيب أى فرد منا يزيد عن واحدة أو اثنتين على أكثر تقدير من هذه الثمار البرية ولكنها على أية حال هدأت من عذاب جوعنا.

وأما بخصوص الظمأ الرهيب الذى اكتوينا منه فكان يقطع أمعاءنا حيث كنا مضطرين أن نوفر قطرات الماء القليلة التى كانت فى حوزتنا حتى لا تنفد منا جميعا وذلك بقدر ما نستطيع.

وذاث صباح وعند ساعة الفجر داهمتنا حالة من الإجهاد الشديد ونحن بعد أن وصلنا شاطئ البحر وتمددنا هناك فى مقاومة عنيدة للنوم ونحن على شوق لوضوح الرؤية حتى نعثر على أحد الممرات قبل أن نمشى على صخور عالية ومرهقة.

وعند شروق الشمس عثرنا على ممر وتوقفنا أمام منزل ضخم شيد بواسطة
سعف النخيل وبدا أمام أعيننا أن صاحبه فلاح ميسور الحال وكان لدى إحساس أن
مجرد الاقتراب من هذه البيوت أمر ينطوى على مخاطر جسيمة ينبغي تجنب الوقوع
فيها ربما كان يقطن بها أحد أعدائنا بل قد يكون ثكنة من ثكنات العدو شيدوها
لخداع أمثالنا ولم يشاركني «لينيتز» هذا الرأي وانتهى بنا الأمر إلى الذهاب معا إلى
البيت.

وقفت أنا في الخارج أترقب الأمر فيما كان «لينيتز» يتسلق ويقفز فوق سور من
الأسلاك الشائكة (وكان برفقتنا شخص آخر لا أذكر الآن من هو؟ وفجأة رأيت في
الظل شبّح أحد الرجال يرتدى ثياباً عسكرية حاملاً في يده بندقية من طراز (م. ا. ١).
وتصورت في التو أننا نعيش لحظات العمر الأخيرة على الأقل بالنسبة (لـ لينيتز) الذي
أصبح على بعد خطوات من الرجل العسكرى ومن ثم لم يعد ممكناً تحذيره. . لكنه
عاد إلينا مسرعاً وهو يقول في سذاجة مفردة أنه رأى رجلاً يحمل بندقية ولم يشأ
أن يسأله وأحسنا أننا قد ولدنا مرة أخرى من جديد ولكن جولتنا الرهيبة والعجيبة
لم تنته فبعد تحريات في الأماكن المجاورة وجدنا أنفسنا في اضطراب لتسلق الصخور
الشاطئية التي كانت على ارتفاع عاى. . واقتربنا في الواقع من منطقة (أوخو دى
بوى): عين الثور التي سميت بهذا الاسم لأن ساقيه صغيرة تصب في البحر تخرق
الصخر هناك من جانب إلى الجانب الآخر.

وباغتنا النهار قبل أن تنتهى من التسلق ولم يكن بوسعنا سوى ما يكفى للوصول
إلى مغارة تشرف على المشهد بأكمله إشرافاً رائعاً وكان الصمت قد ران على
المكان وقد رأينا زورقاً من زوارق البحر ينزل منه على الشاطئ رجال بلغ عددهم
أمام أعيننا ثلاثين رجلاً بينما يصعد غيرهم إلى الزورق في شبه عملية إحلال
وتبديل كما تراءى لنا. .

وعلمنا فيما بعد أنهم كانوا جنود (لورانت) سفاح البحرية الرهيب الذى جاء من أجل استبدال رجاله بعد أن فرغ من مهمته الدموية فى إعدام عدد من رفقاءنا .

وظهرت أمام عيني «بينيتز» المهورتين أشباح هؤلاء الرجال الذين يحملون البنادق . ولم يكن موقفنا على ما يرام إذ لم تكن هناك أية إمكانيات لتوافر شروط السلامة إذا عثر علينا جنود العدو ومن ثم وجب علينا القتال حتى النهاية .

وطوال ساعات النهار لم نستطع أن نتناول أى شىء والماء بالطبع قد تم تقنينه إلى أقصى درجة كما سبق لى أن أشرت لذلك . . لقد كانوا يوزعون الماء فى عدسة منظار تليسكوبى فلا توجد طريقة تضمن عدالة التوزيع من مثل هذه الطريقة .

وفى الليل واصلنا السير حتى يمكننا الابتعاد عن تلك المنطقة الخطرة التى قضينا فيها عدة أيام هى من أكثر أيام الحرب إثارة للقلق والرعب حيث يفترسنا الجوع ويتملكنا الظمأ وسيطر علينا إحساس بالهزيمة وباقتراب الخطر الذى يتولد من رحمته اعتقاد بأننا لسنا غير فتران وقعت فى المصيدة .

وبعد تحريات لا حصر لها . . تمكنا من اكتشاف مكان الساقية الشهيرة التى تصب فى البحر أو على أحد روافدها على أقل تقدير . : وتمددنا على الأرض على بطوننا من أجل أن نشرب الماء كما تشرب البغال والخيل وكنا على استعداد لمواصلة الشرب لولا أن معدة كل منا قد أبدت امتعاضها من فرط ما شربناه . . وملأنا القرع اليابس بالماء وتابعنا الرحلة . . وعند الفجر وصلنا ذروة إحدى الأكمات التى تزيناها كوكبة من الأشجار وتوزعنا فى نقاط حرصا منا على أن نختبئ أحسن الاختباء ونقاوم أفضل مقاومة وقضينا أغلب ساعات النهار ننأمل طائرات صغيرة تحلق فوق رؤوسنا فى ارتفاع منخفض للغاية وقد كانت مزودة بمكبرات صوتية تصدر عنها أصوات غير واضحة استطاع (أليدا) وبينيتز أن يفهما وهما محاربان من قدامى محاربى (مونكادا) أنها أوامر تدعو للاستسلام . . وكانت تصدر من حين لآخر من داخل الغابة ضوضاء من العسير معرفة مصدرها أو حتى إدراكها .

وفى الليلة التالية قادتنا جولتنا إلى قرب منزل تصدر عنه أصدااء توفيعات أوركسترا تعزف الموسيقى ومرة أخرى تصاعدت حدة القلق والتوتر «فراميرو» والميدا» وأنا كنا على يقين بأن من واجبنا أن نتجنب الظهور فى حفل راقص أو حتى اجتماعات بهجية مثل هذا النوع، ذلك أن الفلاحين سوف يتحدثون عن وجودنا لجميع الجيران وإن كان ذلك بدافع النسيمة التى اعتاد هؤلاء عليها، أما بينيتر وكاميلو فقد أعربا عن رأيهما بوجوب الذهاب إلى المنزل مهما كلف الأمر من أجل تناول الطعام وأخيرا وقع اختيار الرفقاء علينا أنا وراميرو للتوجه إلى المنزل وتسقط الأنباء مع العودة ببعض الطعام، وكدنا نصل إلى البيت حتى توقفت الموسيقى فجأة وسمعنا بصوت واضح رجل يقول ما معناه «والآن لنعزف على شرف جميع رفقاتنا فى السلاح الذين كانت بطولاتهم وأعمالهم لامعة وبراقة.

وقد كفانا ذلك حتى يمكننا العودة على جناح السرعة بخطى الذئب لكى نبلغ بقية الرفاق إلى أية جهة يدين هؤلاء الذين يشاركون فى الحفل بالولاء والانتماء.

وعاودنا السير ولكن فى كل مناسبة كان الرجال يرفضون التقدم وفى هذه الليلة وربما فى الليلة التالية أبدى جميع الرفاق باستثناء قلة قليلة عن عدم رغبتهم فى الاستمرار فاضطررنا أمام تلك الرغبة المفاجئة إلى أن نطرق باب أحد الفلاحين إلى جانب الطريق فى مكان يدعى «بوركاس جورداس الخنازير السمينة» بعد مرور تسعة أيام من مفاجأة «اليجريا دى بيو» استقبلنا الفلاح هاشاً باشاً وأصبح كوخه ملاذاً لنا لتناول الطعام والشراب وكانت الساعات تمضى بنا ونحن نأكل ونأكل حتى فاجأنا النهار ونحن غارقون فى الطعام وأصبح من العسير علينا أن نخرج من الكوخ.

وشاهدنا فى صباح ذلك اليوم أفواجا كثيرة من الفلاحين توافدوا على الكوخ للتعرف علينا والاحتفاء بنا بالطعام والهدايا والمودة ولكن هذا البيت الصغير الذى حدث إليه سرعان ما تحول من حنة صغيرة إلى قطعة من جهنم فكان «الميدا» أول من

تعرض للإصابة بالإسهال الشديد ثم تبعه باقى الرفقاء حيث كان منهم من راح يتقيأ بيد أن يابلو أورنادو تمكن من النهوض وهو الذى أجهدته الأيام السابقة بكل ما كان بها من مصاعب ومتاعب ودوار بحر وجوع وعطش شديدين وطرق شاقة وصخور جبلية عالية الارتفاع وطلقات نار تنهمر علينا كأمطار السماء.

وقررنا على إثر ذلك مغادرة الكوخ ليلاً. . وقال لنا الفلاحون إن الأخبار التى جمعت لديهم تفيد أن فيدل كاسترو ما يزال على قيد الحياة واقترح أحدهم أن يذهبوا بنا إلى أحد الأماكن التى قد يكون كاسترو متواجداً بها هو (وكريستو بيرس) ولكنهم اشترطوا علينا أن نتخلص نهائياً من ثيابنا العسكرية ونترك أسلحتنا ولكن احتفظت أنا وألميدا بمسدسين رشاشين من طراز ستار. أما البنادق الثمانية والرصاص فقد ظلت باعتبارها وثيقة ضمان فى منزل الفلاح فى حين تشاطرنا إلى مجموعتين الأولى مكونة من ثلاثة رجال والثانية مكونة من أربعة كى نحل ضيوفاً على منازل الفلاحين وبعدها نتوجه إلى جبل سيرا مايسترا على فترات زمنية.

وكان فريقنا مكوناً من يانتشو جونزاليس وراميدو وفالديس وألميدا وأنا. . أما الفريق الآخر فكان يضم كاميلو وبينيتز وتشاو ولم يتمكن «يابلو أورنادو» المريض من مغادرة المنزل.

وما كدنا نذهب حتى أخبر صاحب البيت صديقه بالطريقة المثلى لإخفاء السلاح ولكن نلج هذا الصديق من إقناعه بضرورة بيعها وكان هناك لص ثالث مستعداً للشراء وكان هذا هو الذى أفشى حقيقة موقفنا إلى الجيش ومن ثم كان المنزل الذى استضافنا قد وصل إليه العدو بعد أن غادرناه بساعات قليلة ليلقى القبض على يابلو أورنادو ويستولى على جميع الأسلحة.

وكنّا عند رجل من الإدفتست اسمه «أرخيليو روسابال» يشتهر بلقب الراعى وعندما علم بالنبا الخطير أرسل إلى فلاح آخر فى الحال على دراية بأحراش المنطقة لكى يبلغونا النبا لاتخاذ الاحتياطات اللازمة.

أما الفلاح الذى التقينا به فى تلك الساعة كان يدعى (جيرموجاريتا) وهو الآن قائد جيش منطقة أوريانتى وعضو الإدارة الوطنية لحزبنا.

* * * *

كان الفلاحون قد استقبلونا بعد ذلك فى منازلهم وكان فى مقدمتهم الفلاح كارلوس ماس الذى انضم إلينا بعدها وبيروتشو وغيرهما من الرفقاء الذين سقطت أسماؤهم من ذاكرتى.

وذاث صباح باكر وبعد أن اخترقنا طريق «يلون» سائرين دون أن نعتمد على أى دليل بلغنا مزرعة (مونجو بيرس) شقيق «كرستيتسو» وهناك فى هذا المكان التقينا مع باقى الرفقاء الأحرار الذين كتبت لهم السلامة والنجاة حتى الآن. . ونزلت قوتهم على شاطئ كوبا وهم (فيدل كاسترو) واوفر سوسانتش» (وفوستينو بيرس) (وراوول كاسترو) و(سيرو روندو) (وافخيتوا ميخيراس) (ورينه روديجس) (أرمه درودريجس) وبعد مرور عدة أيام التحق بنا كل من موران وكرسيو وخوليتو دياس وكاليسكو جاريتا وكاليسكو مورالس وبرمودس.

وتقدمت فرقتنا بدون أزياء عسكرية أو حتى أسلحة وكان فى حوزتنا مسدسان فقط وقد وجه فيدل كاسترو إلينا لوما شديدا وطوال الثورة كانت كلماته ترن فى مسامعنا ولعلى لا أبالغ إذا قلت إنها ترن حتى الآن.

وعلى سبيل المثال كان يقول بصوت عال جمهورى يشق الجدران:

[أنتم لم تدفعوا ثمن هذا الخطأ الفادح الذى ارتكبتموه حيث إن الذى يتخلى عن سلاحه فى مثل هذه الظروف إنما هو يدفع بذلك حياته ثمنا لمثل هذا التصرف الطائش. لقد كانت أسلحتكم هى نقطة الضوء الذى تستطيعون من خلالها أن تهتدوا لنهاية الطريق وتبقوا على قيد الحياة حتى لو واجهتم الجيش نفسه وجها لوجه. . إن تخليكم عن أسلحتكم جريمة حمقاء لا تغتفر].

الفصل الثالث

الطريق إلى النصر الأول

«أنا لا أزال أذكر الكلمات التي كان ينطق بها هذا
الفلاح المسكين حيث كان يقول على مسمع مني: أنا
إنسان مثلكم: فيجيب عليه الكابورال باسول اخرس
وامشِ إذا أردت ألا نجبرك على السير بالسياط».

الفصل الثالث

الطريق إلى النصر

كان هجومنا على موقع صغير يقع على مصب «الريودي لاباتا» نهر الفضة في منطقة «سيرا مايسترا» أول نصر حققناه وقد أدى لإحداث ردود أفعال واسعة النطاق ولفت الانتباه في كل مكان وبرهن على أن الجيش الثائر حقيقة واقعة وليس خرافة كما يظن هؤلاء.. أما فيما يخصنا نحن فقد كانت المعركة فرصة ذهبية أكدنا من خلالها مدى إيماننا بالنصر النهائي.

وفي ١٤ يناير عام ١٩٥٧ بعد شهر تقريبا من مفاجأة «الجريا دي بيو» توقفنا قرب «ما جدا لينا» التي يفصلها عن نهر لابلاتا امتداد صخري لجبل (مايسترا) المنحدر إلى البحرين بين الوادين الصغيرين وتنفيذاً لأمر «فيدل» قمنا هنا ببعض التدريبات على الرماية بهدف تدريب الرجال حيث كان البعض منهم يقوم بالرماية للمرة الأولى في حياته وأخذ كل منا حماما رائعا بعد شقاء الأيام الماضية وعذاباتها بل واستبدل بعضنا ثيابه التي رواها العرق وتلونت بلون الرمال والأتربة وفي هذا الوقت كان لدينا نحو ٢٢ قطعة سلاح فعالة منها: تسع بنادق ذات نظارات تلسكوبية وخمس بنادق نصف أوتوماتيكية وأربع ذات مدلاج لضمان السلامة ورشاشان من طراز تومبسون ومسدسان رشاشان وبنوقية من عيار ١٦ وفي ذلك اليوم عبرنا بعد الظهر آخر جبل يفصل بيننا وبين ضفاف «لابلاتا» وسلكنا في الغابة الصغيرة ممرا ضيقا نادرا ما يعبر الناس منه وقد اهتمدنا إليه بواسطة زجل يعمل مزارعا من المنطقة يدعى [ملكيادس ايلياس] وقد أراد أن يحرق أرضه بخنجره الطويل من أجلنا وقد أبلغنا أن اسمه (أوتيميو) وفي ذلك الوقت كان أوتيميو نموذج الفلاح الثوري وكان شديد الأهمية بالنسبة لنا.. ولكن بعد مرور وقت قصير ألقى كاسياس القبض عليه

وبدلاً من الإجهاز عليه هام بشرائه بعد أن وعده بمبلغ عشرة آلاف دولار إذا هو قام بقتل فيدل كاسترو وكاد أوتيميو يفعل ذلك ولكنه لم يجد أخيراً الشجاعة على إتمام جريمته ومع ذلك فقد حاول ونجح فى الإساءة إلينا وذلك بإفشائه للعدو أسرار وأماكن المخابئ التى كنا نخفى فيها.

فى تلك الأثناء كان أوتيميو يقدم خدماته لنا بإخلاص حيث كان يتمنى إلى ذلك الجيش الذى يتألف فى الفلاحين الذين يناضلون ويقاتلون ويدافعون عن قطع الأرض التى يزرعونها ضد ملاك الأراضى فى المنطقة والنضال أيضاً ضد أصحاب الأملاك العقارية دفع بهم فى الوقت نفسه إلى الانقلاب على الحرس الريفى الذى كان يمثل آنذاك الحليف الوفى المخلص لتلك الطبقة الاحتكارية.

وفى ذلك اليوم وبينما نحن فى طريقنا أوقفنا بعض الفلاحين لتأكد من أقرباء الدليل وقد أطلق سراح أحدهما فيما ظل الآخر أسيراً من قبل الاحتياط.

وفى اليوم التالى الخامس عشر من يناير اكتشفنا موقع ثكنة «لابلاتا» التى كانت مجهزة للبناء بصفائح الزنك ورأينا مجمرة من الرجال وقد ارتدت نصف ثيابها بيد أننا اكتشفنا ملابس العدو العسكرية عليهم ودان، لدينا مزيد من الوقت لكى نشاهد فى الساعة السادسة بعد الظهر قبل غروب الشمس وصول أحد الزوارق المكتظة بالحرس الذين هبطوا منه لكى يصعد إليه آخرون. . وإذا لم نفهم تماماً مدلول هذه الحركات فقد قررنا أن نؤجل الهجوم إلى اليوم التالى.

ومنذ فجر السادس عشر من يناير وضعنا الثكنة تحت الرصد والمراقبة وكان خفر السواحل قد قام بالانسحاب خلال ساعات الليل فأرسلنا رجال استطلاع لكنهم لم يروا جنوداً فى أى مكان.

وفى الساعة الثالثة من بعد الظهر قررنا أن نقترّب من الطريق الذى ينطلق من الثكنة ويسير مجرى النهر من أجل المحاولة لرؤية أى شىء. . . وعند حلول الظلام

اجتزنا «لابلاتا» دون جهد وعناء وقد تركزنا على الطريق بعد مرور خمس دقائق أوقفنا فلاحين وأفهمناهما من نحن وأنذرناهما بأنهما إن لم يتعاونوا معنا فإن نوايانا نحوهم لا تتصف بالليونة وسرعان ما تلقينا معلومات ذات مكانة، لقد كان في داخل الثكنة حوالى خمسة عشر جنديا وفضلا عن ذلك كانوا ينتظرون بين الحين والآخر وصول أحد مدراء المنطقة الثلاثة المشهورين «نشتيشو أورشوريو» وهؤلاء المديرون يمثلون جزءا من مملكة عائلة «لافتي» التى أنشأت إقطاعية كبيرة حافظوا عليها بالإرهاب بواسطة أشخاص من طراز «نشتيشو أورشوريو» وبعد فترة رأينا المدعو «نشتيشو» يظهر ثملا راكبا على ظهر بغل وراءه على ظهر البغل عبد صغير وخرج «أولينفرسو» طالبا إليه التوقف باسم الحرس الريفى فأجاب! بغير تردد: بعوض وكانت هذه كلمة السر وجواز المرور وعلى رغم ما بدا على وجوهنا من شحوب واصفرار ربما بفضل درجة الثمالة التى بدا بها الرجل أمامنا استطعنا خداعه وقال له فيدل بنبرة الحائق إنه كولونيل فى الجيش وإنه جاء من أجل أن يشرح لماذا أخفق الجيش حتى الآن فى التخلص من الثوار وأنه لم يتراجع عن المضى قدما فى التغلغل داخل منطقتهم ومن أجل هذا كله فقد أطلق لحيته وأضاف أن الجيش فى هذه القضية لا يقوم إلا بأعمال تتسم بالتردد.

وفى النهاية أسمعته فيدل كلمات نابية وعنيفة وحادة حول السمات العملية التى تشتهر بها قوات العدو واستسلم «نشتيشو أورشوريو» لما سمع وراح يروى لنا حكاية الحرس الذين كانوا يهتمون اهتماما بالغا بالتهام الطعام فقط ولا يفعلون أى شىء آخر داخل الثكنة.. باستثناء القيام ببعض الجولات الروتينية فقط ثم راح يعلن فى ثبات إصراره على تصفية جميع الثوار والقضاء عليهم.

وألقينا على مسامعه تساؤلات عديدة ومن ثم أدركنا من خلال أجوبته معرفة من الذين يقفون معنا ومن الذين يناصبوننا العداء وكان من المؤلف أن نعتمد آراء

أخرى عكس ما ورد على لسانه أمامنا . فكل من كان يطلق عليه إنسانا حقيرا أو قدرا كنا نعهده ضمن قائمة أصدقائنا وبلغت القائمة نحو عشرين اسما ومضى هذا الثرثار يتحدث بإسهاب دون توقف وقد روى أمامنا ملابسات موت رجلين فى أنحاء البحر ولكن الجنرال باتيستا قد أطلق سراحى فى التو كما أكد لنا أنه قد صفع فلاحين منذ لحظات قليلة تجاوزوا حدود اللياقة قليلا واستطرد أنه يظن أن الحرس عاجز عن القيام بمثل ذلك فهم يدعون الفلاحين يتحدثون دون أن يركلوهم وراح فيدل كاسترو يسأله ماذا يفعل بفيدل كاسترو إذا نجح فى اعتقاله فأجاب أنه يصر على قطع . . . وعبر عما يتتويه بحركة قوية من يديه وأضاف أنه سوف يفعل مثل ذلك مع كرسنتشيو ثم سرعان ما اكتشف أن أحذيتنا المصنوعة فى المكسيك الأمر الذى اضطر أمامه أن يقف مشدوها وهو يقول «ما هذا . . . إن أحد أبناء . . . الذين قضينا عليه كان يتعل مثل هذه الأحذية وأسقط فى يده وأدرك على الفور أنه سقط بين من كان يتوعدهم منذ قليل ومن ثم فقد بات على بعد ثوان أو دقائق من الموت ولكن راح فيدل من جانبه يقنعه بأن يتقدمنا إلى الثكنة على أن نظهر فيها فجأة بين الجنود حتى يشعروا بالخجل من فرط إهمالهم وما حاق بهم من فوضى وتخبط .

إذن بات علينا أن نغضى ناحية الثكنة بقيادة «نشتيشو أورشوريو» ويجب أن أعترف بأننى لم أكن على يقين من أن الرجل لم يكشف خطتنا ومع ذلك فقد راح يقودنا بكل بلاهة حيث كان ثملا لدرجة أنه بات لا يعرف ما الذى يفعله وفى حين كن نعبّر النهر مرة أخرى لنصل إلى الثكنة قال له فيدل إن الأنظمة العسكرية تدعو إلى تقييد الأسرى وشد وثاقهم فإذا بالرجل يرضخ لتقييده دون أن يسدى أمامنا أية مقاومة ويواصل سيره دون أن يدرى كأسير حقيقى وأخبرنا بأن نقطة الحرس الثابتة الوحيدة تقع بين مدخل للثكنة مازال تحت الإنشاء ومنزله مدير آخر زميل له يدعى

«أونوريو» وتقدمنا إلى موضع قريب من الثكنة يمر فيه طريق «ماسيو» وأرسلنا الرفيق «لويس كرسيو» وهو الآن بدرجة قومندان فى مهمة استطلاعية وحين أكد لنا أن المعلومات التى قدمها لنا «نشتيشو» صحيحة فقد رأى البنائين بوضوح ولاحظ وجود النقاط الحمراء بينهما منبعثة رغم الظلام من السيجار الذى يدخنه أعضاء الحرس.

وقررنا المضى قدما حين اضطررنا للاختباء كى نترك ثلاثة من الحراس يمرون على جيادهم وهم يقودون أسيرا يمشى على قدميه مثل الحمار. . وقد مشى هذا الإنسان بالقرب منى وأنا لا أزال أذكر الكلمات التى كان ينطق بها هذا الفلاح المسكين حيث كان يقول على مسمع منى «أنا إنسان مثلكم» فيجيب عليه الكابورال باسول أخرس وامش إذا أردت ألا نجبرك على السير بالسياط» وأدركنا أن هذا الفلاح المعذب يتعرض لخطر أقل لأنه لن يكون موجودا فى الثكنة التى سنطلق نحوها رصاصتنا أثناء اندلاع الهجوم ولكنهم فى اليوم التالى بكل خسة وندالة فى «الماسيو» حين انتشر خبر المعركة والنتيجة التى ترتبت على ذلك.

وكان فى حوزتنا ٢٢ قطعة سلاح هجومى وكانت هذه لحظة فارقة حيث كان قد بقى فى حوزتنا القليل من الرصاص فكان ينبغى السيطرة على الثكنة ولم يكن الإخفاق يعنى لنا سوى فقدان كل ما لدينا من ذخيرة فكان على الرفيق «خوليو ديز» وكان حيثئذ برتبة ملازم واشتهر بعد ذلك فى موقعة «الأوثيرو» يساعده كاميلو سينفويغوس بينيتز (وكاليسو مورالس) مسلحين جميعا بأربع بنادق نصف أوتوماتيكية كان عليهم محاصرة المنزل من أقصى اليمين وكان على فيدل وأونفرسو سانتش «لويس كرسيو» وكاليسو جارسيا وفاخاردو وأنا بينهم أن يهاجموا من القلب وكان على راوول ومن معه والميدا وأنصاره أن يبدؤوا الهجوم على الثكنة من جهة اليسار.

وتوزعنا على هذا الاتفاق ومضيئنا حتى اقتربنا من الموقع بمسافة لا تزيد عن أربعين مترا وكان ضوء القمر ساطعا منيرا وكان فيدل أول من بدأ إطلاق النار من

رشاشه ومن خلفه بدأت جميع البنادق تنطلق ودون تردد دعونا جنود العدو للاستسلام ولم نتلق جوابا وحين جاء وقت التحول إلى الهجوم أعدمتنا الحائن السفاح « نشتيشو أورسوريو » وقد بدأ الهجوم فى الساعة الثانية والدقيقة الأربعين صباحا وواجهنا العدو بمقاومة عنيفة لم نكن نتوقع حدوثها على الإطلاق وكان هناك عريف يرد علينا بوابل من النيران كلما دعوانه للاستسلام وأصدرنا أوامرا بإلقاء القنابل اليدوية البرازيلية الصنع وراح لويس كرسيو يقذف بقنبلة ثم ألقيت أنا بقنبلة ولكن لم تنفجر أى من القنبلتين وألقى راوول كاسترو بقرص من الديناميت ولم ينفجر أيضا ولم يبق أمامنا سوى التقدم وإشعال النار فى مباني الثكنة حتى لو تعرضنا لخطر الموت . . وكان أونيفوسو سانتشس» أول من قام بالمحاولة ولكنه قد أخفق .

ثم تبعه كاميلو سيفو يجوس وفشل هو الآخر وأخيرا اقتربت أنا ولويس كرسيو من كوخ كان لويس قد أشعل فيه النيران وفى ضوء ألسنة اللهب اكتشفنا أن الكوخ كان عبارة عن عنبر يحفظ بداخله جوز الكوكو من المزرعة المجاورة ولكن النيران كانت تكفى لنشر الرعب فى قلوب الجنود الذين تراجعوا عن القتال حتى أن أحدهم سقط على الأرض أثناء هروبه بعد أن تعثر فى بندقية لويس كرسيو) الذى قام بطعنه فى صدره ونزع منه سلاحه فيما كنا نحن نواصل إطلاق النار على الثكنة وراح كاميلو سيفو يجوس يختبئ خلف جذع شجرة ليطلق النار على العريف الهارب حتى نفذت كمية الرصاص التى كانت فى حوزته .

وقد تمكنت رشاشتنا من إصابة العديد من الجنود الذين رفضوا الاستسلام بيد أن كاميلو سيفو يجوس دخل قبل الجميع من ناحيتنا إلى المنزل الذى كانت تتعالى منه صرخات الاستسلام وقمنا بحصد ما أمكننا الاستيلاء عليه بعد هذه المعركة وقد بلغت حصيلة الغنائم نحو ثمانى بنادق سيد نجفيلد ورشاشين من طراز تومبسون وحوالى ألف رصاصة . . أما نحن استخدمنا نحو ٥٠٠ رصاصة وقد

استطعنا الاستيلاء على جنادات وعلى وقود وعلى مؤن وملابس وأطعمة.. فيما كانت خسائر العدو فى الأرواح تتراوح بين قتيلين وخمسة من الجرحى وثلاثة من الأسرى فى حين نجح بعض الجنود فى الهروب.. أما صفوفنا فلم تتعرض لأى خسائر وقد أشعلنا النيران فى غرف الجنود ثم انصرفنا من المكان من أجل إسعاف ثلاثة من العدو كانت جراحهم خطيرة تستدعى سرعة التحرك لكى يتمثلوا للشفاء لكننا علمنا أنهم ماتوا بعد ذلك وقد انضم أحد الأسرى إلى رجال القومندان «راوول كاسترو» وبلغ رتبة ملازم وقد توفى فى حادث طيران بعد النصر.

لقد كان موقفنا جلياً من جرحى العدو حيث كان العدو لا يبالى بجرحانا بل لا أغالى إذا قلت إنه لم يكن يبالى إطلاقاً بجرحاه وقد كان هذا التصرف له أبلغ الأثر فى النفوس وكان ربما هو أحد عناصر ومقومات الانتصار فى الثورة.

لقد أصابتنى صدمة هائلة ولأننى طبيب كنت أحس بأهمية الاحتفاظ بكميات احتياطية من الأدوية لقواتنا بيد أن فيدل كاسترو قد أصدر أوامره بتسليم الجنود الأسرى كل ما فى حوزتنا من أدوية من أجل تأمين العناية بالجرحى ونفذت أمره فى الحال.. ومن جانب آخر أطلقنا سراح المدنيين.

وفى تمام الساعة الرابعة والنصف من صباح السابع عشر من يناير تركنا المكان واتجهنا نحو مرتفعات «سيرا» ووقع بعد ذلك أمامنا منظر يدعو للرثاء والعطف ففى الليل أقبل كابورال بإقناع جميع الأسر القاطنة فى المنطقة المجاورة بأن الطيران سيقصف تجمعاتهم السكنية بالقنابل ومن ثم بدأت هجرة الأسر إلى الشواطئ وبما أن أحداً لم يكن على علم بوجودنا فى تلك المناطق فما من شك أن الأمر كان مؤامرة بين السلطة والحرس الريفى من أجل الاستحواذ على أراضي الفلاحين وأملاكهم ولكن بسبب هجومنا فى الغد أخبرهم الكذاب بالأمر حتى يقذف الرعب فى قلوبهم وأصبح من غير الممكن أن نوقف حركة تدفقهم.

كانت هذه هي أول المعارك التي استطاعت قوات الثورة أن تحقق فيها نصرا ساحقا وكانت هذه المعركة والتي تليها مباشرة هي التي كنا نمتلك فيها أسلحة بأكثر من عدد الرجال طوال فترة الكفاح الثوري.

إن الفلاح لم يكن مستعدا بحال من الأحوال للانخراط في صفوف الثورة ولم يكن لنا حتى تلك اللحظة أية اتصالات بقواعد الإمداد والتموين في المدن.

* * * *

معركة نهر الجحيم ٢٢ يناير ١٩٥٧

«نهر الجحيم» هو عبارة عن ساقية صغيرة قصيرة المجرى تصب في نهر يالما موتشا» وقد أدركنا ظهورنا لليالما موتشا وشرعنا في تسلق المرتفعات الملاصقة لضافه حتى يمكننا أن نصل إلى منحني مستدير وإن بدا لنا صغيرا للغاية مبنى عليه كوخان من القش وبالقرب منهما أسننا مخيماً خاصاً بنا دون أن نفكر في احتلال أكواخ الفلاحين .

كان فيدل كاسترو وقد قرر أن الجيش سوف يطاردنا وسينجح في تحديد المكان الذي آتينا إليه ومن ثم قرر اختيار هذا المكان من أجل تجهيز ونصب كمين لكى نفاجئ به قوات جيش العدو، وتم توزيع الرجال على نقاط ومراكز شتى من أجل إتمام هذا الهدف .

ولم يكن «فيدل» يترك الخطوط دون وضع فرق مراقبة ورصد حيث كان يقوم بجولات من أجل أن يتأكد من فعالية وصلابة الدفاع، وفي صباح التاسع عشر من يناير كنا مشغولين باستعراض قواتنا حينما وقع حادث كان من الممكن أن يكون له تداعيات خطيرة للغاية: فلقد أتيت من معركة «لابلاتا» بغنيمة هي عبارة عن قبعة جميلة لكابورال من جيش باتيستا . كنت أرنديها بكل فخر وللقيام بجولتنا التفتيشية على القوات توغلنا في الجبال إلى مسافات بعيدة ونما لمسامعنا أصوات الخفر تتقدم من مكان بعيد وشاهدنا مجموعة على البعد يترأسها رجل يضع على رأسه قبعة تشبه قبعات جيش باتيستا . ولحسن الطالع كان الرفاق في تلك الأثناء منهمكين في تنظيف أسلحتهم ولم تكن هناك إلا بندقية فقط جاهزة للعمل كانت تخص «كاميلو

سينفو يجوس» الذى أطلق عيارا ناريا فوق رؤوسنا ولاحظ أنه لم يصب أحداً بأذى وحاول الاستمرار فى إطلاق النار ولكن خذلته بندقيته.

إن هذا الأمر يشير إلى مدى استعدادنا وتطلعنا إلى القتال وهو ما يشبه لهفة الأسير على التحرر من قيوده.

لقد كنا أثناء هذه اللحظات الدقيقة - حتى الذين كانت أعصابهم من حديد - نشعر بركبتنا تصطك بعض الشيء وكل منا يتحرق شوقا لبلوغ ساعة الحرب الحاسمة أقصد لحظة الاصطدام والاشتباك ورغم ذلك لم يكن القتال فى الأساس هو ما نصبوا إليه وإنما كنا غارسه لأنه كان أمرا تقضيه الضرورات.

وفى صباح الثانى والعشرين من يناير نما لأسماعنا عدة طلقات نارية منعزلة فى منطقة «الريو يالما موتشا» وقد ساعدنا ذلك على تحسين وتطوير أوضاع خطوطنا وتكثيف اليقظة لجيش العدو الذى كان على وشك أن يدهمنا بين لحظة وأخرى.

وإذا قدرنا أن جنود العدو قد أصبحوا على بعد أمتار منا فلم نتناول حتى اللحظة أية أطعمة لا فطور ولا غداء واتضح أمامى أنا وكريستو عش دجاجة فاستولينا على ما فيه من بيض وأكلناه.

وتشير الأعراف والعادات إلى أن نترك دائما بيضة واحدة فى العش لإغراء الدجاجة على مواصلة وضع البيض ومن ثم تقيدنا بتلك القاعدة ولكن فى ذلك اليوم قرر الفلاح كرسيو متأثرا بطلقات النار التى سمعناها جميعا أن نتناول البيضة الأخيرة وحين نطق بذلك كنا قد التهمناها قبل أن يفرغ من قراره.

وعند الظهر شاهدنا بأعيننا ظل رجل داخل كوخى القش وكنا فى بداية الأمر قد ظننا أنه أحد رجالنا وأنه قد عصى الأوامر فى الطواف حول البيوت بيد أننا اكتشفنا أنه أحد جنود باتيستا جاء للاستطلاع والرصد والمراقبة وفى التو لاحظنا

وصول ستة رجال توافدوا على المكان وغادر ثلاثة بعد قليل وظل ثلاثة تحت
أبصارنا. . وتفرغنا لرؤية هذا الجندى الذى راح يلقي نظرات حائرة من حوله إلى
انتزاع قبضة من الحشائش ووضعها خلف أذنيه من أجل إخفاء نفسه ثم جلس هادئا
مطمئنا فى ظل شجرة، وكنا نراقب بالمنظار ملامح وجهه التى كانت تشير إلى
شجاعته وفتح فيدل النار عليه فسقط غارقا فى بركة من الدماء وهو يصرخ آه يا
أمى وتصاعدت حدة تبادل النار بيننا وبين الجنديين الآخرين حتى سقطا معا بفعل
رصاصاتنا القاتلة وسرعان ما لاحظت داخل الكوخ جنديا آخر يحاول تجنب
رصاصتنا وقد شاهدنا ساقيه حيث كان سقف الكوخ يحجب عن بقية جسده
وأطلقت نحوه عيارا ناريا لكنه لم يصبه بيد أن الرصاصة الثانية قد اخترقت صدره
فسقط على الفور صريعا مضرجا فى دماائه وبتغطيه من الفلاح كرسىو بلغت الكوخ
فاستوليت على بندقية الجندى وما لديه من ذخيرة بعد أن تأكدت من موته حيث
بدأت جثته فى التصلب وقد يكون ذلك بسبب إجهاده الشديد خلال سيره الطويل
وقد كانت هذه المعركة تتسم بالوحشية والقسوة والعنف وحين وصلنا إلى أهدافنا
انسحبنا كل من طريقه الذى جاء منه ولكن بأقصى سرعة وأجرينا الجردة كالعادة
فتبين أننا استهلكنا ٩٠٠ رصاصة لكى نكسب سبعين رصاصة فضلا عن جناد
مكتظ بالرصاص وبندقية واحدة وقد أعطيت هذه البندقية من طراز «جاراند»
للقومندان «افيحيتينوا إميخيراس» فاستخدمها فترة طويلة من فترات الحرب. .
وعددنا أربعة قتلى من الأعداء ولكننا علمنا بعد أشهر عديدة عند اعتقالنا أحد
الخونة إنه كان هناك قتيل خامس ولم يكن هذا انتصارا بالمعنى الشائع لكلمة
الانتصار، لكنه لم يكن أيضا انتصارا انتحاريا. . لقد اخترنا قوتنا مع قوات جيش
العدو فإذا بنا نكتشف أننا اجتزنا الاختبار وحققنا النجاح مما أدى إلى رفع معنوياتنا
وشجعنا على مواصلة التسلق نحو مرتفعات الجبل حتى نتجنب الوقوع فى كمائن

العدو ومن ثم بلغنا القلب الآخر للجبل لهذا كنا نواصل سيرنا باتجاه مواز لجيش باتيستا الذى كان بدوره يهرب ويعبر القمم لبلوغ القلب المعاكس .

وعلى مدار يومين كانت قوات العدو وقواتنا تسير جنبا إلى جنب دون أن يدرى أى منهما، بل حدث أن استسلمت بعض هذه القوات للنوم فى كوخين على جانبى نهر صغير هو نهر (لابلاتا) الذى ينعرج أكثر من مرة بين الكوخين وكانت دورية العدو تعمل بأوامر من الملازم «ساتش موسكيرا» الشهير بسوء الخلق فى منطقة «سيرا مايسترا» بسبب تجاوزاته .

وجدير بالذكر أن الطلقات النارية التى نمت لأسماعنا قبل عدة ساعات من اندلاع الاشتباك أطلقها جنود كانوا ينفذون الاعدام رميا بالرصاص بأحد «الأجانب» من أحفاد أبناء هايتى الذين كانوا قد توافدوا بأعداد هائلة إلى مقاطعة أورينتى بعد نشوب حريق ثورة العبيد وكان هذا الرجل الأجنبى قد رفض أن يرشد الجنود إلى مخبأنا الصغير ولو أنهم لم يرتكبوا جريمة القتل الحقيرة لهذا المسكين لما وجدونا فى انتظارهم على أهبة الإستعداد ومرة أخرى اكتشفنا أننا نعانى من ثقل أحمالنا حيث كان أغلبنا يحمل بندقتين وكان شاقا علينا مواصلة السير بيد أن معنوياتنا كانت مرتفعة بأكثر مما كانت عليه بعد كارثة الجريا دى بيو» فقبل مرور بضعة أيام هزمنا كتلة صغيرة من الجنود الذين تحصنوا فى إحدى الثكنات . .

واليوم نتغلب ونتصر على قافلة يزيد عدد جنودها على عدد جنودنا . . إن هذه المعركة جعلتنا نلمس كلمس اليد كم هى ضرورية فى هذا النوع من القتال تصفية المقدمة الأولى حيث يصبح الجيش من غير مقدمة ومن ثم يعجز عن الحركة والانتقال والتحول .

الفصل الرابع

غارة جوية والرفيق الخائن

«واجبى هنا أن أعترف أن بندقتى ليست مسئولة عن
سقوط قتيل أو وقوع جرحى فى تلك اللحظة فأنا لم
أقم بشيء سوى التراجع الإستراتيجى على جناح
السرعة»

الفصل الرابع

غارة جوية والرفيق الخائن

بعد تلك المعركة الرائعة التي كان النصر حليفنا فيها على قوات سانتس موسكيرا» مشينا على ضفاف نهر لابلاتا ثم عبرنا ماجدا لينا للعودة إلى قطاع سبق أن عرفناه قريب إلى «رايه كاراكاس»، وفي الأيام الأولى لإقامتنا عشنا سرا على تلك الراهبة نفسها وكانت القرية كلها توازرنا. . أما الآن فالمكان يظلمه مناخ شديد الاختلاف حيث كانت قوات «كاسياس» في الواقع قد عادت للمنطقة ونشرت فيها الرعب وأقدمت على ارتكاب الفظائع ومن ثم هجرها الفلاحون وإن بقيت أكوأخهم الخاوية على عروشها فضلا عن رأس ماشية أخذناه طعاما لنا. . ولقد تأكد لدينا أنه لا يجيد العيش داخل الأكواخ والمنازل ولهذا وجدنا أنفسنا خارج المكان بعد أن أوينا طيلة ساعات الليلة داخل الكوخ المنعزل^(١) وأنشأنا مخيما خاصا بنا عند نبع ماء على أعلى قمة في ربوة «كاراكاس» وقد جاء مانويل فاخاردو» يسألني بقوله: هل يمكن ألا نتصر في هذه الحرب؟

وكان جوابي في العادة لا يختلف كثيرا عن نفس السؤال حتى إذا لم تكن في لحظة من لحظات النشوة التي تتجاحنا وهو أننا سنريح الحرب بالضرورة وقال لي «مانويل» إنه إنما يوجه إلى هذا لأن «الجاليسي موران أكد له أننا نسير إلى الكارثة وأننا خاسرون ودعاه فضلا عن ذلك إلى أن يترك كل شيء^(٢) وقد توجهت إلى إبلاغ

(١) لقد كان (فيدل كاسترو) أبرز من سدد نفقات تلك التجربة بعد حملة (مونكادا) حيث قام هو ورفقاؤه بعد أن أرهقهم التعب في كوئخ بعيد في «الجران بيدرا» وأمر بالملازم الأسود «ساريا» يفاجئهم حين جاء يفتش الكوخ الذي كان هدفا طبيعيا لتجريات هذا الضابط من ضباط الجيش.

(٢) يصف الكوبيون الناس عادة بأصولهم الاجتماعية أو العرقية فهم يقولون على سبيل المثال: الفلاح كرسبيو والصيني ووينج والجاليسي موران وكان والدموران هذا قد جاء من منطقة جاليسيا في أسبانيا وكذلك كان والدفيدل كاسترو جاليسيا.

فيدل كاسترو على هذه الحكاية ولكننى اكتشفت أن الجاليسى (موران) كان قد تعجل الأمور فقال لفيدل إنه كان يقوم بعمليات جس نبض من أجل اختبار معنويات الرفقاء ورأينا أن مثل هذه الخطة تحتمل المناقشة على الأقل، وراح فيدل كاسترو يلقي خطاباً قصيراً دعا فيه الرفقاء على الالتزام بقدر وافر من النظام وشرح أمامهم الأخطار والتحديات التى سيواجهونها إذا لم نتقيد بالنظام وأعلن بالإضافة إلى ذلك أن ارتكاب أى من المخالفات الثلاثة التالية يتعرض صاحبه للحكم عليه بالإعدام بتهمة التمرد والهروب والانهازمية.

لم تكن أوضاعنا تبعث على البهجة فى تلك الأيام حيث كان طابورنا تنقصه صفات المثابرة والصبر والجلد التى يتسم بها المناضلون أينما كانوا كما كان يحتاج إلى وعى أيديولوجى جلى ومن ثم لم يتمكن من تشكيل وحدة ذات روابط صلبة ومثينة. وفى كل مناسبة كان عدد من الرفقاء يرفضون قبول القيام بمهمات فى أى مكان، وهى أحيانا مهمات عسيرة وخطيرة ولكنها كانت على الأقل تتيح لهم التخلص من ملابس الحياة الشاقة وظروفها الصعبة والشاقة فى البرية. . . ولكن حياة البرية لم تظل كما هى إذ أن (الجاليسى موران) لم يكن لينال من التعب وخصوصا فى البحث عن المؤن وإقامة اتصالات مع فلاحي المنطقة المجاورة وكانت الحالة فى صباح يوم ٣٠ يناير كالآتى: لقد طلب أوتيميو جيرا - الخائن - إذنا من فيدل كاسترو بالسماح له لكى يذهب إلى زيارة والدته المريضة وقد وافق فيدل على الفور ودون تردد ومنحه بعض النقود من أجل إتمام رحلته التى كانت تستغرق بضعة أسابيع ولم نكن قد تنبها حتى تلك اللحظة لحزمة من الحقائق وقد جاءت تصرفات وسلوكيات وأفعال هذا الشخص لتلقى عليها مزيدا من الضوء الساطع.

وحين عاد (أوتيميو) من رحلته صرح لنا بقوله إنه حينما بلغ (يالما موتشا) عرف أن القوات الحكومية تطاردنا وتلاحقنا فبدل أقصى ما يستطيع من جهد لكى يحذرنا

ولكن حين بلغ كوخ «دلفين» وهو أحد الفلاحين الذين جرت فى داخل أراضيهم معركة (نهر الجحيم) وجد جثث جنود فاقتفى أثرنا فى «السيरा» (الجلبل) حتى وصل أخيرا إلى حيث كنا. . وهذه هى القصة التى رواها لنا «أوتيميو» بيد أن الحقيقة كانت على عكس ذلك تماما حيث إن (أوتيميو) كان قد ذهب قاصدا خدمة العدو بعد أن اتفق معه على قتل فيدل كاسترو مقابل مبلغ مالى كبير والحصول على رتبة عسكرية رفيعة المستوى ولإتمام هذا المخطط غادر «أوتيميو» المخيم فى الليلة الماضية.

وفى صباح ٣٠ يناير بعد ليلة شديدة البرودة وبعد أن استيقظنا من النوم سمعنا صوت محرك الطائرة فبذلنا أقصى جهد لتحديد مكان الطائرة حيث كنا فى مكان مكشوف وكان المطبخ مضادا على بعد أكثر من ٢٠٠ متر أسفلنا، بالقرب من نبع صغير وكان يتمركز فيه رجال الحفر الأمامى، وعلى نحو مفاجئ غير معهود سمعنا انقضاض طائرة مقاتلة وفى أعقاب ذلك سمعنا صوت الرشاشات تنطلق ثم سرعانا ما ترامى لنا صوت قنابل تنفجر ولم نكن آنذاك نتمتع بخبرات قتالية خاصة فى هذا الأمر المفاجئ وبدأت الانفجارات تقع حولنا من كل جانب وكانت الرصاصات من عيار ٥٠ تنفجر عند وقوعها على الأرض حتى تصورنا أنها تنبعث من الغابة ذاتها فيما كنا نسمع طلقات الرشاشات فى الهواء مما جعلنا نظن أن القوات البرية قد تمكنت من حصارنا وشتت هجومها علينا.

وتوليت مهمة ترقب رجال الحفر الأمامى وجمع بعض الأمتعة التى تركت مكانها ساعة الهجوم، وكان مكان التجمع «مغارة الدخان» وكان رديفى فى تلك المهمة هو «تساو» ذلك المقاتل القديم فى الحرب الأسبانية وراح كلانا ينتظر بعض الوقت وصول بعض الرفقاء الذين فقدنا أخبارهم ولكن دون جدوى، ثم مضينا فى أعقاب الطابور على طول طريق غير ممهد والأحمال قد أثقلت كاهلنا وبعد مدة قرنا الجلوس لنستريح فى مكان ما بالغابة لم يكن فيه أشجار وبعد فترة قصيرة سمعنا

أصوات زاعقة تبرهن على وصول «جيرمو جارسيا» (وهو اليوم برتبة قومندان) وسرخيو أكونيا) وقد مضى على الطريق نفسه وكانا يشكّلان فصيلا من المخفر الأمامى وقد جاء للحاق بالطابور، وبعد أن تباحثنا فى الأمر عدت مع جيرمو جارسيا إلى المخيم فقد كان ينبغي معرفة ماذا حدث؟ وكان قد اختفى كل صوت كما اختفت الطائرات أيضا .

لقد كان منظرا كئيبا وفظيعا ذلك الذى وقعت عليه أعيننا، فلأن الدقة البالغة فى الرماية ظلت تلك اللحظة فريدة من نوعها فى كل تاريخ الحرب . . لقد هاجم الأعداء المطبخ فحطم الرشاش الفرن قطعة قطعة . وانفجرت قبلة داخل مخيم المخفر الأمامى الذى كان الجميع قد تركوه وكان الجاليسى «موران» قد توجه مع أحد الرفقاء فى مهمة استطلاعية فعاد بمفرده مؤكدا لنا أن هناك قوات برية فى المنطقة القريبة لنا . . ومضينا فى المسير نحن الخمسة وعلى كاهلنا أحمال ثقيلة فى قلب المشهد الدامى مشهد البيوت المتهدمة التى كان يقيم فيها أصدقاؤنا الفلاحون فى السابق وكل ما رأيناه فى تلك الأكواخ قطة كانت تموء بشكل يدعو للراء والإشفاق على حالها المتردى وخنزير خرج عندما اقتربنا منه .

لم نكن على علم بأحوال مغارة الدخان باستثناء اسمها ولم تكن لدينا أية فكرة كاملة عن مركزها . . وهكذا ظللنا طوال ساعات الليل ضحايا للقلق والتوتر والاضطراب على أمل أن نلتقى مع رفقاتنا وفى نفس الوقت يفترسنا الهلع من لقاء العدو .

وفى ٣١ يناير تجمعنا على قمة ربوة تفرض سيطرتها على قطع من الأرض الصالحة للزراعة وأخفقنا بعد محاولات عديدة لتحديد مكان المغارة وقد تصور (سرخيو) أنه رأى شخصين يرتديان على رأسيهما قبعة لاعبي البيسبول ولكنه عاد فى وقت متأخر دون أن نصل إلى أى شىء وهبطت مع جريممو فى رحلة

استطلاعية حتى أعماق الوادى بالقرب من شواطئ نهر «آخى» حيث قدم لنا صديق لجير هو ما نتناوله من طعام بيد أن الناس كانوا فى هلع شديد وأبلغنا هذا الصديق أن رجال الحرس الحكومى نهبوا وأضرمو النيران فى كافة بضائع «سيروفرياس» كما تمكنوا من مصادرة جميع البغال بل أنهم قتلوا بعضها وأشعلوا النار فى حانوت «سيرو فرياس» واعتقلوا زوجته وكان هؤلاء قد مروا بالمكان فى الصباح تحت إشراف القومندان «كاسياس» الذى استسلم للنوم العميق بالقرب من المنزل.

وفى الأول من شهر فبراير لم نترك مخيمنا الصغير الذى بدا مكشوفاً مفتوحاً للرياح وكان ينبغي علينا أن نسترد قدراً من عافيتنا ونشاطنا بعد متاعب جمة من السير فى الليلة السابقة.

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم سمعنا طلقات نارية خرجت من بنادقها وبالتحديد من الجهة الأخرى للربوة ثم سرعان ما سمعنا أصواتاً قريبة منا تن بالشكوى وكأنها صرخة تتعجل الاستغاثة ولم تتحمل أعصاب «سرخيو اكوينا» فقذف ببندقية وجناده دون أن يحرك أى من شفيته وترك الحراسة التى كنا قد عهدنا بها إليه.

وقد دونت فى مفكرتى اليومية حيثئذ أنه توجه مرتديا قبعة من القش وعلبة من الحليب المكثف وثلاث قطع من المقائق وفى الحال تجمعت أفكارى وتوحدت على الحليب والمقائق.

وبعد مرور بضع ساعات سمعنا جلبة واثابتنا حالة من الخوف من أن تكون هناك خيانة قام بها رفيقنا الهارب ومن ثم تمركزنا فى موقف دفاعى، ولكنه كان كرستيشو الذى وصل يتبعه طابور طويل وضخم مكون من جميع رجالنا تقريباً ومن متطوعين جدد أقبلوا من «مانزايانو» يتقدمهم «روبرتويسانت أما من رجال المقدمة فلم يكن إلا «سرخيو اكوينا» الهارب والرفيقان كاليستو جارسيا (ومانويل اكوينا) وكنا

نحتاج لمتطوع جديد قد انضم إلينا فى الآونة الأخيرة كنا فقدناه عند تبادل إطلاق النار الذى وقع فى رائعة نهار أول فبراير.

وعدنا للهبوط من وادى (أخى) وفى أثناء سيرنا وزعت علينا أشياء بدت لنا مختلفة كان قد حملها نفر من المتطوعين الذين جاءوا إلينا من «مانزايو» ومن بين هذه الأشياء وجدت حقيبة جراحة وملابس داخلية لنا جميعا وقد كان رائعا منظر الملابس الداخلية النظيفة التى طرزتها أصابع فتيات مانزايو.

وفى الثانى من فبراير كانت قد تكونت منا مجموعة تألفت مع بعضها البعض وانضم إليه عشرة رجال آخرين جاءوا من مانزايو وعملنا شعور جارف من أننا أصبحنا أقوى وأكثر وأشجع من أى وقت مضى وراح البعض منا يتناقش فى مسألة الغارة الجوية وكيف وقعت ولماذا وتساؤلات حولها عديدة وتوصلنا إلى أن دخان المطبخ هو الذى أرشد العدو إلينا ولهذا أصبحنا بعد ذلك نتجنب إشعال النيران فى الهواء الطلق خوفا من الوقوع مرة أخرى فى مصيدة الغارات الجوية.

كيف يمكن أن نتخيل أن الرجل الذى كان فى طائرة الاستطلاع هو الخائن العميل «أوتيميو جيرا» وأنه كان يرشد القومندان (كاسياس) إلى الموقع الذى نتمركز بداخله؟ إن هذا الأمر بالطبع كان حقيقة لا يخالجنها الشك فى مصداقيتها فلم يكن ما زعمه «أوتيميو» من المرض الذى داهم والدته سوى حجة من أجل الذهاب لاستقدام السفاح المجرم كاسياس.

ولقد مضى (أوتيميو جيرا) بعد ذلك مدة من الزمن يمارس دوراً شديداً الخطورة على حركتنا الثورية فى حرب التحرير التى كنا نخوض غمارها أمام عدو غاشم.

مفاجأة جبال أسبينوزا ٩ فبراير ١٩٥٧

بعد الغارة الجوية المفاجئة التى ذكرت تفاصيلها فى الصفحات السابقة تركنا ربوة (كاراكاس) فى محاولة للعودة مرة أخرى لمناطق كنا نعرف دروبها وخطوطها (ومسالكها كما نستطيع أن نبني شبكة من الاتصالات الحية مع «مانزانو» فضلا عن استقبال مساعدات من الخارج بشكل أكبر وأوسع وأضخم بما يتناسب مع حجم قواتنا وأعبائنا ونفقاتنا وتحدياتنا وتأسيس فكرة أكثر وضوحا عن مجمل الأحوال فى طول البلاد وعرضها.

ها نحن قد عاودنا المسير فى طريق العودة وها هو نهر (أخى) قد عبرنا صفحة مياهه واجتزنا أماكن ومناطق عرفناها حتى بلغنا بيت الشيخ (مندوزا) وكان واجبنا أن نفتح بواسطة الفأس ممرات الجبل حيث مضى زمن بعيد لم يستعملها أى إنسان الأمر الذى أدى إلى عرقلة مسيرتنا وتقدمها بخطوات ثقيلة ثقل الجبال ومضينا الليل بأكمله على أحد هذه المرتفعات ولم يكن فى حوزتنا ما نتناوله من طعام ولا أزال أذكر حتى اليوم كما لو أن الأمر يتصل بمأدبة ضخمة فخمة شهدتها فى حياتى تلك اللحظة التى جاءنا فيها الفلاح «كرسيو» حاملا معه علبه تحتوى على نحو أربع قطع من المقاتن كان قد امتنع عن تناولها فى الماضى وظل محتفظا بها لمواجهة مثل هذه الأزمات الطارئة والمفاجئة مؤكدا أنها للأصدقاء وتذوقتها أنا وفيدل والفلاح كرسيو وأحد الرفقاء الذى كان يشاركنا تلك اللحظة كان الطعام رديئا للغاية وإن بدا أمام أعيننا كأنه على مأدبة ملكية وعاودنا مواصلة المسير حتى وصلنا إلى المنزل الكائن على يمين رابية (كاراكاس) حيث جهز لنا الشيخ مندوزا ما نلتهمه من طعام، كان الرجل قد تسلل إليه الخوف رغم ما يتصف به كفلاح من رجولة وولاء كان الشيخ

لا يتردد فى الاحتفاء بنا كلما مررنا عليه حيث إن الصداقة التى ربطته «بكرستيتو بيريز» أو بفلاح آخر من رفاقنا كان لها ضروراتها ولم يكن هذا الشيخ ليتهرب منها على وجه الإطلاق.

وقد كانت عملية السير ترهقنى للغاية حيث كنت دائم الشكوى من حمى الملاريا ولم أستطع الوصول إلى هذه الرحلة المنهكة إلا بفضل الفلاح «كرسيو» والرفيق الذى سيظل ساكنا فى ذاكرتى «خوليو زينون أكوستا» وحين كنا نبلغ أماكن من هذا الطراز لم نكن نستسلم للنوم داخل المنازل وكنت أعانى من الإعياء أنا والجاليسى موران الذى أمسى مريضا هو الآخر وقد أوفدونا لننام فى الداخل بينما ظل الرفقاء فى موقف المراقبة لا يدخلون المنزل إلا عند تناول الطعام.

وأصبح من الأهمية بمكان تطهير الفرقة حيث كانت تحتوى على عدد من الرجال الذين اتصفوا بالمعنويات المنخفضة والحماس الفاتر هذا بالإضافة إلى أن رفيقا واحدا أو رفيقين اثنين كانا قد تعرضا للإصابة بجروح خطيرة وكان أحد هذين الجريحين «راميرو فالديس» وزير الداخلية الحالى وكان الثانى هو (أجناسيو بيريز) ابن «كرستيتو» الذى اشتهر فيما بعد وهو يحمل رتبة كابتن لكن (راميرو) كان قد أصيب بضربة قوية فى ركبته التى كانت لاتزال تشكو من الجروح الغائرة التى تعرضت لها إبان معركة ثكنة (مونكارا) ومن ثم وجب الانفصال عن راميرو وتركنا أيضا بعض الفتيان الآخرين ولكن الفرقة ظلت على حالها السيئ.

ولازلت أتذكر واحدا من هؤلاء الفتيان الذى تعرض لنوبة عصبية وراح يشق بصرخاته سكون البرية بعد أن اكتشف أننا نشكو قلة أو ندرة الطعام ونفتقد لوجود أسلحة دفاعية ضد الغارات الجوية التى أرغمتنا على الترحال من مكان لآخر كل يومين خوفا من ملاحقة ومطاردة العدو لنا إذا نجح فى تحديد أماكننا، وعانينا من فقرنا للماء والطعام والاستحمام وهو الأمر الذى كان شاقا على نفس هذا الغلام

الذى كان يظن أنه قادم لزهة سياحية حتى وجد نفسه يتضور جوعاً ويعانى من الظمأ والاتساخ ليطلق صرخاته المدوية بيد أن هناك من الرفاق من تحمل مثل هذا العناء بشجاعة وبسالة ووصل (سيروفرياس) مع رفقاء انخرطوا مؤخراً فى صفوف العصاة وكان حاملاً معه حزمة هائلة من الأنباء المضحكة والغامضة فمثلاً كان (دياس تامايو) على وشك تغيير موقفه والخوض فى مفاوضات مع قوات الثورة و«فوستينو» نجح فى حشد ألوف «اليسو» الكثيرة والبلاد كلها على أية حال أضحت مسرحاً للتدمير والخراب حتى أن الحكومة أصبحت كأنها تمشى فى أوحال الفوضى ولكنها لا تستطيع المضى قدماً للأمام فى حالة من الفوضى لا مثيل لها.

وأخبرنا أيضاً نبأ غير سار ولكنه يحمل من الدلالات الكثير حيث قال إن (سرخيو أكونيا) - وهو الذى لاذ بالهرب منذ أيام وتوجه إلى أقرباء له ونزل لديهم وراح يقص على أقاربه قصة بطولاته كأنه أحد الثوار الأبطال وقد سمعه رجل يدعى (بدر هريرا) ونقل أمره إلى رجال حرس الحكومة على الفور وجاء الكابورال المعروف روسللو بنفسه^(١) وانهمك فى تعذيب سرخيو واطلق عليه أربع رصاصات ثم سمعنا أنه قد شنقه ولقد بينت هذه الواقعة لفرقتنا أهمية التوحيد والتضامن وعدم الارتكان على أى محاولة للفرار الشخصى من المصير الواحد فضلاً عن ذلك دفعنا ذلك إلى تغيير معسكرنا إذ خشينا أن يكون هذا الهارب المسكين قد أوشى بنا تحت ضغوط التعذيب البدنى الرهيب وكان يعرف بيت (فلورنتينو) الذى كنا نعيش بداخله فى تلك الأثناء.

* * * *

(١) تم اعدامه بعد ذلك على يد أبناء الشعب.

فى هذا الوقت بالذات وقع حادث عجيب جعلنا إلى جانب العديد من البراهين والأسانيد نفتح أعيننا حيث أعلن «أوتيميو جيرا» أنه شهد فى الحلم وفاة سرخيو «كونيا» وذهب إلى أبعد من هذا فأضاف أن الكابورال «روسيلو» هو الذى قام بقتله . .

وحينئذ نشأت مناقشة علمية فلسفية لمعرفة ما إذا كان التنبؤ بوقوع الأحداث اعتمادا على الأحلام ممكنا أم مستحيلا ، وبما أنه كان ينبغى على أن أقدم كل يوم للرفقاء أحاديث مختصرة ومقتضبة فى محاولات الثقافة والسياسة فقد شرعت فى الشرح وقلت إن هذا التنبؤ من الجانب العلمى يعد بالطبع مستحيلا حدوثه وأنه يمكن أن يكون نتاج صدفة كبيرة إننا جميعا نعتبر فى خانة الاحتمال كنهاية «سرخيو كونيا» وأن (روسيلو) اشتهر بعنفه وبعشقه لإراقة الدماء وإشعال النيران فى المنطقة ولكن جاء صوت أجش أثار فزعنا كان صاحبه هو وينفرسو سانتشس يؤكد أن (أوتيميو) كان (هازلا) ومن المؤكد أن يكون بعض الناس قد أبلغه بالخبر حيث كان قد توجه فى الليلة السابقة وعاد حاملا معه خمسين علبة من الحليب وفانوسا عسكريا .

وكان من بين الذين يؤمنون إيمانا صادقا بنظرية الأشرار فلاح يحمل علوم القراءة والكتابة ويبلغ من العمر خمسة وأربعين عاما كنت قد تحدثت عنه ويدعى «خوليو زينون أكوستا» وكان أول من تتلمذ على يدى فى «السيरा» حيث أرهقت نفس فى إكسابه مبادئ القراءة والكتابة وكنت كثيرا ما أنتهز فترات التوقف لكى أعلمه الحروف الأولى وقد استطعنا تمييز حرف «أ» من حرف «أو» وحرف (أ) من حرف (أى) وبقدر واسع من الشجاعة والقوة وبغير اهتمام بالأعوام المنصرمة التى مضت وتولت وباهتمام كلى نحو ما ينبغى أن يحلم به ويتطلع إليه انكب (خوليو

زينون) على تعلم القراءة وربما كان نموذجاً رائعاً^(١) لجميع الفلاحين من رفاقه في تلك المنطقة زمن الحرب أو الذين على علم بقصته ذلك أن (خوليو زينون أكوستا) قدم أثناء ذلك أكبر الخدمات... لقد كان الرجل الذى لا يهدأ ولم تكن المنطقة بأكملها تخفى عليه سراً وكان على الدوام على استعداد لإغاثة رفيق بائس له أو ابن المدينة الذى لم يكن قد تم له من صلابة العود ما يجعله ينهض بمفرده من زلة وقع فيها. وكان هو الذى يأتى بالماء من النبع البعيد وهو الذى يوقد النار فى ملح البصر وهو الذى يجد الأغصان الجافة لإشعال النيران فى أيام الشتاء لقد كان بمفرده بإيجاز أوركسترا عازفة فى ذلك الزمان وفى أحد الليالى الأخيرة قبل أن نكتشف خيانتة شكاً «أوتيميو جيرا» من أنه دون غطاء يتلحف به وطلب إلى فيدل إن كان يمكنه أن يمنحه غطاء حيث كان الجو بارداً فى مرتفعات الجبال خاصة وأتينا فى شهر فبراير الذى نحن فيه، فأجابه فيدل أن كليهما سوف يشعر بالبرد بهذه الطريقة وأن من الأفضل أن يتدثرا معاً بالغطاء نفسه حتى يدفعوا البرد عنهما وما كادا يفعلان ذلك حتى ظل أوتيميو جيرا الليل بأكمله ممدداً بالقرب من فيدل ومعه مسدس من عيار ٤٥ أعطاه له كاسياس لكى يجهز عليه به فضلاً عن قنبلتين يدويتين كان عليه استخدامهما لتغطية فراره من مرتفعات الجبل وفى تلك الساعة راح يطرح التساؤلات على أونيفر سوسا نتشس وعلى أيضاً وكنا بشكل دائم بجوار فيدل حول أدوار الحرس وقد أكد لنا فى سياق حديثه «أن مشكلة هؤلاء الحراس هى التى تثير قلقى للغاية حيث إنهم لا يأخذون ما يكفى من الاحتياطات وشرحنا له هناك حوالى ثلاثة رجال يحرسون، أما نحن رفيقى الجرائم ومحط ثقة فيدل كاسترو فقد كنا نتبادل الحراسة طوال الليل لكى نسهر على أمنه وسلامته الشخصية ولذلك ظل

(١) كتب جيفارا هذا المقطع عام ١٩٦١ وهو العام الذى أعلن فيه فيدل كاسترو بوصفه رئيس البلاد أنه عام مكافحة الأمية فى كوبا.

أوتيميو طوال الليل إلى جوار قائد الثورة فيدل كاسترو الذى كانت حياته معلقة فى فوهة مسدس، وأتيميو ينتظر تلك اللحظة الملائمة لقتله ولكنه لم يستطع أن يقرر مصيره وطوال هذه الليلة كان جزء هائل من الثورة متعلقا بما يدور فى ذهن هذا الخائن وعلى ما يدور فى رأسه من صراع بين شجاعته وخوفه وإجرامه وصرخات ضميره وأحلامه فى الحاضر والمستقبل ولكن من أجل إنجاح ثورتنا أشرقت الشمس ولم يتعرض فيدل لأذى.

وغادرنا منزل (فلورنتينو) وشيدنا مخيما عند مجرى نهر صغير جاف فيما كان (سيرو فرياس) قد ذهب إلى بيته - الذى كان قريبا - ثم سرعان ما عاد منه حاملا دجاجات ومؤنا غذائية حيث إن تلك الليلة الممطرة والباردة قد وجدت فى الصباح ما يعوضنا عن عذابها فى إعداد طعام طازج وحساء ساخن. وأخبرنا أن أوتيميو كان قد مر من هذه النقطة هو أيضا، وكان أوتيميو يذهب ويعود حيث كان محل ثقة وكان قد التقى بنا عند «فلورنتينو» وأخبرنا أنه بعد أن ذهب لرؤية والدته المريضة شاهد نفسه كل الوقائع التى جرت فى رابية (كاراكاس) وأنه اقتضى أثرنا ليعلم ما حدث بعد ذلك. . . وقد أكد لنا أن والدته تماثلت للشفاء وكانت تبدو عليه علامات شجاعة مؤقتة مدهشة فقد كنا فى مكان يسمى «مرتفعات إسبينوزا» وهى قرية للغاية من سلسلة الروايبى المرتفعة كرابية لومون، والحمار (كاراكاس، إلخ. . . ، التى شنت عليها الطائرات نيراناً كثيفة دون انقطاع وبلهجة الواثق والعالم بما سيأتى به المستقبل كان أوتيميو يقول على سبيل المثال «اليوم أنذركم بأنهم سوف يطلقون نيرانهم على رابية الحمار» وبالفعل تحلق الطائرات على رابية الحمار وتقصفها بعنف وراح على إثر ذلك يرقص فرحا وطربا من صدق تنبؤاته.

وفى ٩ فبراير ١٩٥٧ ذهب «سيرو فرياس» ولويس كرسبو» كالعادة فى البحث عن طعام وكانت الأمور هادئة فى العاشر صباحا حينما كان فلاح شاب يدعى

«لابرادا» انخرط مؤخرًا في صفوفنا قام باعتقال رجل يتردد ذهابًا وإيابًا في تلك المنطقة معلناً أنه نسيب كرسينيو ويعمل مستخدماً في مخزن «سليتينو» حيث توجد قوات (كاسياس) وقد علمنا منه أن في ذلك المخزن نحو ١٩٤٠ جندياً وكنا نستطيع رؤيتهم عن بعد في قمة إحدى الروابي.

وصرح لنا الأسير أنه تجاذب أطراف الحديث مع (أوتيميو) وأن هذا أكد له أن المنطقة سوف تتعرض لقصف عنيف بالقنابل في اليوم التالي.

* * * *

لقد كانت قوات كاسياس تتحرك دون أن تحمل معه خطة المستقبل وهنا فقط ساورت فيدل الشكوك حيث انتهى سلوك أوتيميو إلى إثارة وإخراج حاسة النقد لدى أى منا دون تردد أو إبطاء وبدأت التفاسير والشروح تلعب دورها وفي الساعة الحادية عشرة والنصف أمر فيدل بإخلاء المكان فانتقلنا إلى أعلى الراية تسلفاً حيث انتظرنا رجالنا الذين ذهبوا في مهمة استكشافية، وبعد قليل عاد سيروفراس (ولويس كرسبو) وأكدوا أنهما لم يلاحظا شيئاً غير عادى حيث كان كل شيء كما هو لا جديد من حوله وكنا في ذلك الوقت في نقاش حاد عندما خيل «السيرو رندو» أنه رأى ظلاً يتحرك فطلب السكوت قليلاً ودك بندقيته وفي الحال انفجرت الطلقات النارية والقنابل من كل جانب لقد كان الهجوم كثيفاً وعنيفاً خاصة على تلك الأماكن التي تركناها منذ دقائق وفي لمح البصر كان المخيم قد تم إخلاؤه وعلمت بعد ذلك بفترة قصيرة أن «خوليو زينون إكوستا» ظل إلى النهاية على قمة ذلك الجبل حيث إن هذا الفلاح البسيط غير المثقف والأمى تمكن من أن يدرك أن أية مهمة كبيرة ينبغي على الثورة الاطلاع عليها والذي راح يستعد للمشاركة في تلك المهمات بادئاً بالحروف الأبجدية الأولى، لم يتمكن من أن يصل بمحاولته حتى النهاية السعيدة.

وتفرق باقى رجال الفرقة زاحفين أو راكضين فيما كانت الحقيبة التى كنت أفتخر بها والمكتظة بالأدوية والكتب والأغطية فقد ظلت هناك فى مكانها وكل ما تمكنت من جمعه هو معطف من معاطف جيش باتيستا اغتنمته أثناء معركة (لابلاتا) وارتدتيه وفررت هاربا على جناح السرعة، والتقيت بعد قليل مع مجموعة من الرجال مكونة من أليدا، خوليتودياس، أونيفر سوسانتشس، كاميلو سينفويجوس، جيرمو جارسيا، سيروفرياس، موتولا، بيسانت، إمبليو لابرادا، ويابو، ومشينا فى طريق منعرج فى محاولة لتجنب طلقات الأعيرة النارية دون أن نعلم مصير باقى الرفقاء.

كنا أحيانا نسمع طلقات نار متقطعة من الخلف وكان من السهل اقتفاء أثر أقدامنا حيث كانت خطواتنا السريعة تعرقل إزالة أثر أقدامنا وفى الساعة الخامسة والربع وفقاً لساعتي بلغنا مكانا منحدرأ يقود إلى نهاية الغابة.

وبعد دراسة وافية قررنا البقاء هنا طوال الليل حتى لا يكشف أمر وجودنا تحت إشراف الشمس فى مكان مكشوف وإذا أرادوا هم الوصول إلينا فسوف تتمكن من الدفاع عن أنفسنا حيث يتيح لنا هذا المكان تلك الميزة.

ورغم ذلك لم يظهر العدو لنا وواصلنا سيرنا يقودنا بذلك سيروفرياس الذى كان على علم بأحوال وظروف المنطقة واقترح أحدنا أن ننقسم إلى فرقتين لنواصل السير بسرعة دون أن نترك لنا أثرا ولكننا أنا والميرا رفضنا قبول هذا الاقتراح من أجل الحفاظ على وحدة المجموعة وتبيننا المكان الذى يدعى ليمونس وبعد بعض المناقشة والتجاذب أصدر الميرا الذى كان قائد المجموعة - نظراً لدرجته العسكرية ككابتن- أمره بمواصلة السير حتى لومون وهو مكان التجمع الذى عينه لنا فيدل. . وكان هناك رفقاء اعترضوا بأن أوتيميو يعرف لومون وأن الجيش ربما كان متواجدا هناك، وفى الواقع كنا جميعا على قناعة فى تلك اللحظة أن الخائن بيننا هو بالفعل (أوتيميو)

بيد أن الميرا ظل ثابتا على قراره بضرورة وأهمية تنفيذ أمر فيدل كاسترو وبعد افتراق ظل ثلاثة أيام.. قابلنا فيدل في ١٢ فبراير بالقرب من (لومون) في مكان يدعى «دريتشا لاكاريراد» (يمين الرحمة) وتأكد لنا أن الخائن هو في الواقع «أوتيميو جيرا» وأعيد تركيب الحكاية من بدايتها.. حيث إنها قد بدأت في ذلك اليوم الذي وقع فيه «أوتيميو» بعد معركة «لابلاتا» أسيرا في يد «كاسياس» الذي - كما سبق أن أشرت - بدلا من أن يقتله أعطاه مبلغا من المال مقابل رأس فيدل وعلمنا أنه هو الذي أبلغ عن موقعنا في رابية كاراكاس وأنه هو الذي أعطى الإشارة بالهجوم على رابية الحمار لأننا كنا ننوي أن نمر بها ولكننا غيرنا طريق سيرنا في اللحظات الأخيرة ثم إنه هو أيضا الذي قام بتنظيم الهجوم المكثف على المكان المستدير الصغير الذي آوينا إليه في مجرى النهر (وقد خسرننا قتيلا واحدا بفضل الأمر الذي أصدره فيدل كاسترو بالانسحاب العاجل والفوري) فضلا عن ما تأكدنا منه من موت «خوليو زينون أكوستا» وعلمنا أن خفيرا على الأقل قد لقي مصرعه مع بعض الجرحى.

واجبى هنا أن أعترف أن بندقيتي ليست مسئولة عن سقوط قتيل أو وقوع جرحى في تلك اللحظة فأننا لم أقم بشيء سوى التراجع الإستراتيجى على جناح السرعة. وإذن فقد اجتمعنا مرة أخرى وبقيّة الفرقة، كلنا نحن الاثنا عشر رفيقا باستثناء «لابرادا» الذي فقد في الليلة الماضية، اجتمعنا مع راوول، وامنجيراس، وسير وردندو، ومانويل فاخاردو واتيشفاريا والجاليسى «موران» وفيدل وأصبح مجموعنا نحو ثمانية عشر شخصا ذلك كان جيش الثورة الموحد من جديد في ١٢ فبراير ١٩٥٧، لقد تشرذم بعض الرفقاء وترك بعض المتطوعين الجدد العصاة في ذلك الحين وفقدنا زميلا قديما من زملاء «الجرانما» وكان يسمى «أرمندور ودريجس» وكان معه رشاش من طراز تومبسون وكانت تبدو على محياه في الأيام الأخيرة علامات الضيق العميق والهلع الشديد كلما سمع طلقات نارية في البعيد أو بالقرب

من مواقعنا على الخصوص حتى انتهينا بعد ذلك إلى ابتداء تعبير «بداية التطويق» فكلما كان يظهر على محيا أحد رجالنا هذا الرعب الذى يبدو على حيوان سيطر عليه الفزع، أما الذى كان يتميز به وجه الرفيق أرمندو كان يشير إلى خاتمة مؤلة وحزينة.

ولقد ختم أرمندو حياته بوصفه مقاتلا وسوف نجد رشاشه عند أحد الفلاحين بعد فترة طويلة من الزمن وفى مكان بعيد حيث صدقت ساقاه فى الوصول إلى المكان.

* * * *

الفصل الخامس

لكل خائن نهاية مؤسفة

«سوف يأتي هذا اليوم الذي سيكتشفون فيه أن

والدهم قد أعدم جزاء خيانتة للثورة»

الفصل الخامس

لكل خائن نهاية مؤسفة

بعد أن احتشد جيشنا الصغير قررنا أن نغادر قطاع «لومون» والانطلاق إلى أماكن أخرى جديدة.. فى تلك الأثناء لم نتوقف عن تدشين شبكة اتصالات مع الفلاحين الذين يجاوروننا ونصب الشارات الضرورية للاهتمام وللحفاظ على سلامتنا.

وابتعدنا بالتدريج عن «سيرا مايسترا» لنمضى ناحية السهل للوصول إلى نقاط ينبغي أن نلتقى من خلالها مع المناضلين من منظمة المدن وعبرنا حزاما من الأكواخ الريفية يدعى «لاموتريا» وبعد ذلك نصبنا أعمدة خيامنا فى غابة صغيرة قرب جدول فى منطقة «إيفانيو دياس» الذى كان أبناء تلك المنطقة يقاتلون من أجل الثورة ولقد اقتربنا منهم جغرافيا حتى يمكننا أن نوثق اتصالاتنا مع الحركة حيث رن الحياة الخشنة البدوية التى كنا نعيشها خفية جعلت من غير الممكن إقامة تبادل بين فرعى الحركة وفى هذه المزرعة التقينا مع ألمع رموز الحركة فى المراكز المدنية وأذكر من بين الذين التقينا بهم ثلاث نساء شهيرات الآن فى كوبا وهن «فيلما أسين» رئيسة الاتحاد النسائى وزوجة راوول كاسترو^(١) وهايده سانتا ماريا^(٢) رئيسة بيت البلدان الأمريكية وهى على صلة قرابة بأرماندو هارت وسيليا سانتش رفيقتنا العزيزة فى كل سنوات الكفاح الثورى وقد انضمت بعد وقت قصير وبشكل نهائى إلى الحركة ولم تفارقنا بعد ذلك على الإطلاق، ورأينا أيضا فوسيتنو بيريز الصديق القديم ورفيق (الجرائم) وقد وقع أسيرا بعد فترة قصيرة وهو الذى كان لا يمل من تدشين

(١) شقيق فيدل كاسترو.

(٢) هى شقيقة أبل سانتا ماريا نائب فيدل كاسترو وقد واجه تعذيبا رهيبا على يد قوات باتيستا.

قواعد الثورة فى المدن الكوبية ثم تعرفنا على «أرمانو هارت» وفيما يتصل بى كانت تلك هى المرة الأولى والأخيرة التى تمكنت خلالها أن أقابل (فرانك ياييس) مدير «سانتياجو».

وكان فرانك ياييس هو من طراز فريد حيث يملك القدرة على طرح شخصيته بمجرد مصافحتك له وكان وجهه كما يظهر فى صورته الحالية ولكن كانت له نظرة تتسم بالعمق ومن غير الممكن أن نتحدث الآن عن رفيق توفى ولم يتسن لى اللقاء به سوى مرة واحدة وقد أصبح تاريخه ملكا للشعب فقط.

وكل ما يمكننى قوله اليوم أننا لاحظنا فى عينيه فى الحال هذا الرجل الذى تسيطر عليه قضية وهب لها نفسه بكل شجاعة وبسالة وجدنا فيه الإنسان المخلوق الرائع وها هو الشعب يطلق عليه الآن لقب «فرانك ياييس الذى لا ينسى» وأنا أيضاً أقول ذلك رغم لقائى الوحيد به.

إن فرانك هو واحد من أولئك الرفاق الذين قدموا أغلى التضحيات من أجل تعزيز قواعد وأعمدة الثورة الاشتراكية.. إن هؤلاء الشهداء هم أيضاً الفاتورة التى سدد الشعب قيمتها من أجل استرداد حريته.

لقد علمنا (فرانك) دون أن ينطق دروسا فى الوطنية والولاء فقد راح يتولى مهمة تنظيف بناقدنا من الشحم ويرصد عدد الطلقات النارية حرصا على ألا تضيع رصاصة واحدة.. ومنذ ذلك اليوم قررت أن أهتم وأعتنى بسلاحى وواصلت تلك العناية بعد ذلك وأنا لا أزعم أننى كنت نموذجا فى الجرص والدقة.

إن هذه الغابة كانت عبارة عن خشبة لمسرح حوادث عنف من نوع آخر وقد زارنى صحافى أجنبى من أمريكا الشمالية وكان كبير السن بدا أمامى مفتونا ومعجبا بالمناضلين وقد توثقت علاقته مع فيدل كاسترو وقد نشر بعد ذلك العديد من

المقالات التى تشيد وتمدح شخصية فيدل كاسترو وأيامه وكفاحه فى (سيرا مايسترا) المهم أن هذا الصحافى جاء لمقابلتنا وبحوزته آلة تصوير صغيرة رخيصة التقط بها الصور الشهيرة التى أصبحت واسعة الانتشار وعلق عليها وزير فى حكومة باتيستا بكلمات لا تخلو من السخافة.

وكان هناك مترجم يقف بيننا وبين هذا الصحفى الذى يدعى «مايوز» ووفقا لما قصه أمامى «فيدل» حيث لم أكن قد شهدت المقابلة التى جمعته مع مايوز حيث روى لى أنه طرح تساؤلات حسية لم تكن تهدف إلى إثارة أعصابه أو الإيقاع به وقدم نفسه لفيدل بوصفه صديقا ومتعاطفا للثورة ورجالها.

والواقع أننى لا أزال أذكر تعليقات فيدل ورأيه فى ذلك اللقاء وبالتحديد الأسلوب الذى أجاب به . . فعلى سبيل المثال أن يجيب على سؤال حول إذا ما كان فيدل مناهضا للاستعمار والذى هاجم فيه تسليمات شحنة الأسلحة إلى باتيستا لكى يثبت لمايوز أن هذه الأسلحة لن يتم استخدامها فى الدفاع عن القارة ولكنها سوف تستخدم من أجل تركيع الشعب وقهره وقمعه كانت زيارة مايوز زيارة خاطفة وعدنا لكى نجد أنفسنا بمفردنا وكنا على استعداد للرحيل ورغم هذا فقد تلقينا النصائح بضرورة مضاعفة اليقظة حيث كان «أوتيميو» فى الجوار القريب . . وتلقى «أليدا» أمرا يقضى باعتقاله دون إبطاء وكان فى دورية «أليدا» كل من «خوليو دياس» و«سيرو فرياس» و«كاميلو سينفو يجوس» و«افيخينو اميخيرس»، وكان «سيد وفرياس» هو الذى قام بالقبض على أوتيميو ولم يظهر أمامه أية مقاومة وسرعان ما جاء به أمامنا وقد تبين لنا أن بحوزته مسدسا من عيار ٤٥ ونحو ثلاث قنابل يدوية وتصريحا بالتجول من «كلسياس» وعندما وجد نفسه أسيرا فى هذا الفخ وبين يديه براهين إدانته لم يكن معه أى شك فى مصيره القادم . . ومن ثم جثا على ركبتيه أمام «فيدل» وطلب أن يشق نفسه لأنه كما روى أمامنا باكيا يستحق الموت.

وفى تلك الأثناء بدا لنا أنه قد أصبح شيخا هرما حيث بدا أكبر من عمره وكانت لحظة من لحظات الاضطراب والتوتر التى لم نألفها فى حياتنا.

وراح «فيدل» يقرعه ويلومه بعنف وقسوة على خيانتة ونذالته وكل ما طلبه أوتيميو هو أن يشنق نفسه بعد أن أقر بخطئه وقد ظلت تلك اللحظة شاخصة أمام أعيننا حيث كان من المستحيل أن تمحى من ذاكرتنا وراح رفيقه «سيرو فرياس» يحدثه ويذكره بكل الخدمات التى قدمها له هو وشقيقه إلى عائلة أوتيميو ثم كيف ولماذا خان وتسبب فى اغتيال شقيق سيرو «وكان أوتيميو قد وشى به فلقى مصرعه على يد الحرس الحكومى قبل عدة أيام» ثم حاول أخيرا أن يقضى على المجموعة بأكملها، كانت كلمات سيرو عريضة اتهامات مثيرة ورهيبة ولم يكن «أوتيميو» يجيب أو يرد أو يعقب حيث كان مطرق الرأس وحين سئل عن شىء يتمناه فأجاب أن نعنى نحن أو الثورة بأولاده.. والواقع أن الثورة أبدت اهتماما كبيرا بأولاده حتى أنهم حملوا أسما آخر ويذهبون إلى المدرسة شأنهم شأن جميع زملائهم ويعاملون معاملة حسنة وكريمة كأبناء الشعب دون تفرقة ولكن سوف يأتى هذا اليوم الذى سيكتشفون فيه أن والدهم قد أعدم جزاء خيانتة للثورة، وللإنصاف ينبغى أن يعرفوا أن هذا الفلاح الذى أغراه الفساد وحاول أن يرتكب جريمة لا تغتفر بدافع لهفته على جمع المال والوصول لقمة المجد الزائل.

لم يفر هذا الرجل بخطئة فقط ولم يطلب الرحمة لأنه كان على يقين بفداحة جرمه وأنه بالطبع لا يستحقها ولكنه أيضا فكر أخيرا فى أولاده وتوسل أن نعاملهم معاملة كريمة.

وفى تلك اللحظة اجتاحتنا إعصار رهيب وأصبحنا فى ظلام دامس وفيما كانت السماء ترعد وتبرق وتمطر بغزارة لا مثيل لها لفظ (أوتيميو) أنفاسه بطلق نارى تعذر علينا سماعه بفعل الصواعق والرعد والعواصف التى غلبت على صوت الرصاص.

وفى صباح اليوم التالى دفن (أتيـميو) فى المكان نفسه وحصل على ما أتذكر حادث صغير حيث أراد (إمانويل فاخاردو أن يضع عليه صليبا وقد اعترضت على ذلك بشدة حيث أن ترك هذا الدليل على اعدام (أوتيـميو) كان يمثل خطورة شديدة على أصحاب الأرض واقتنع «مانويل» بما قلت ومن ثم قرر نصب صليب على شجرة قريبة وهذه العلامة هى التى تقود إلى المكان الذى دفنت فيه جثة هذا الخائن العميل .

وتركنا فى تلك الأيام الجاليسن (موران) حيث كان على دراية بنظرتنا نحوه . . لقد كنا نراه فى أعيننا فارا بالقوة (وكان قد اختفى قبل مرور يومين أو ثلاثة وقد ادعى كذبا أنه كان يتعقب أوتيـميو ولكنه ضل طريقه فى الجبال).

ففى ذات اللحظة التى شرعنا فيها للترحال سمعنا انفجار طلق نارى ورأينا موران قد سقط على الأرض بعد أن أصيبت ساقه ونشأت بين الرفقاء الذين كانوا هناك مناقشة حامية الوطيس حول هذا الأمر حيث زعم البعض منهم أن الرصاصة قد انطلقت بطريق المصادفة وادعى البعض الآخر أن موران أطلقها على ساقه حتى لا يواصل السير معنا . بيد أن ما حدث بعدها من خيانة (موران) وإعدامه على يد ثوار «جونتائغو» يبرهن بشكل واضح أنه هو الذى قصد أن يطلق الرصاص على نفسه ويبيده ودون أن يصنع ذلك أحد غيره .

وحين رحلنا تعهد (فرانك ياييس) أن يبعث إلينا عددا من الرجال فى أوائل شهر آذار وكان الاتفاق بيننا أن يكون بيت إبيفانو دياس القريب من خييارو هو مركز اللقاء بيننا .

الأيام الصعبة

كانت الأيام التي تلت رحيلنا من بيت «أيفانو دياس» فى تقديرى من أصعب وأشق الأيام التى عشناها فى مرحلة الحرب وسوف أحاول أن أشرح فى تلك الصفحات ماذا تعنى هذه المرحلة عند الثوار. . وإن كنت مضطرا فى هذا الجزء من ذكرياتى أن أشير إلى مساهمتى الخاصة وذلك للعلاقة التى ربطتنى بالأحداث اللاحقة وليس بمقدورى أن أنزع صفحة هذه الأحداث عنها دون أن يؤثر ذلك سلبا على مضمون الرواية.

عند خروجنا من بيت «أيفانو دياس» كانت فرقتنا الثورية تتكون من عشرين رجلا منهم سبعة عشر رفيقا من أبناء الفرقة الأصلية الأولى ثم يضاف لهم ثلاثة من الرفقاء الجدد وهم راوول دياس، وجيل، و(سوتولونجو) وهؤلاء الرجال الثلاثة كانوا قد نجحوا فى مهمة إنزال المركب «جرانما» وظلوا يختبئون بعض الوقت بالقرب من «مانترانيو» وسرعان ما جاءوا إلينا بعد أن علموا بقدمونا وذلك بهدف أن يلتحقوا بالفرقة وكانت حكاية كل واحد منهم تشبه إلى حد كبير قصة كل واحد منا لقد نجحوا فى الهرب والنفاذ بجلودهم من سياط الحرس الحكومى والآنزواء فى منزل أحد الفلاحين ثم الانتقال إلى منزل فلاح آخر وعندما وصلوا إلى «مانزانيو» اختبئوا فيها والآن توحد مصيرهم مع مصير الطابور بأكمله وفى تلك المرحلة كان من العسير كما يرى القارئ أن نضاعف من عدد رجالنا فلقد كان هناك من يأتينا للانخراط فى صفوفنا وكان بالطبع هناك من يتركونا. . لقد كانت أحوال الكفاح الجسدى مرهقة إلى أقصى حد لا نظير له وكنت أنصور أننا نعيش فى هوان وضعف لا نهاية له بسبب هجمات العدو التى لا تتوقف.

فى تلك الأيام كنا نسير دون هدف وببطء شديد حيث كنا نخفى فى غابات فى منطقة تكثر فيها المرامى على الزراعة العادية وبقيت بها مساحة صغيرة تناسب أعمال المقاومة، وفى إحدى هذه الليالى أعلن لنا راديو «فيدل» الصغير قيام قوات الحكومة باعتقال أحد رفقاءنا فى المركب (جرانما) وكان يتراجع مع (كرستينو بيريز) وكنا على علم من خلال اعترافات «أنيميو» التى صرح فيها أمامنا بأنه وقع أسيرا ولكن لم نكن على يقين من صحة هذا الخبر وإن كنا قد تأكدنا أنه لا يزال على قيد الحياة حيث يندر عودة الأحياء الذين يقعون تحت وطأة تعذيب رجال حكومة باتيستا إلى الحياة مرة أخرى.

من وقت لآخر كان يترامى لأسماعنا أصوات طلقات رشاشات يطلقها جنود جيش باتيستا على مناطق المقاومة حيث كان العدو يحرص على تحاشي المواجهة مع أنصار المقاومة ومن ثم كان يعتمد على الغارات الجوية أو الضرب بالرشاشات عن بعد.

ولقد دوت فى الصفحات اليومية للقتال بتاريخ ٢٢ فبراير ظهور الأعراض الأولى لأزمة الربو حيث أدركت للوهلة الأولى أنها سوف تكون عيفة خاصة وأننى كنت أفترق إلى السائل المضاد للربو ولأن الاتصال بالمدينة تحدد فى الخامس من مارس فكان لزاما على أن أنتظر عدة أيام وفى خلال هذا اليوم تقدمنا بخطوات شديدة البطء لا نهدف من ورائها إلى أى شىء لكننا كنا نريد فقط إزهاق الوقت على أمل انتظار حلول الخامس من مارس وهو اليوم الذى وعدنا فرانك ياييس أن يبعث لنا فيه عددا من الرجال المسلحين وتوحدت كلمتنا على أنه يلزم تقوية سلاحنا قبل مضاعفة أعداد الجنود فى جبهتنا الصغيرة وأنه يجب لهذا الهدف أن تصعد جميع هذه الأسلحة المتوفرة فى «سانتياجو» إلى «سيرا مايسترا».

وفى أحد الأيام باغتتنا شعاع القمر المنير على ضفاف جدول صغير تكاد تكون جرداء لا ينبت بها زرع وقضينا فى هذا المكان يوما لا يخلو من القلق والاضطراب

والتوتر في واد بالقرب من «لاس مرسيدس» يسمى على ما أذكر «لاماجاجوا» وعند حلول الليل وصلنا إلى منزل الشيخ «أميليانو» وكان هذا الرجل من الذين كانوا يصابون بالرعب عند وصولنا عندهم لكنهم كانوا يتحلون بالشجاعة والبسالة والإقدام من أجل ثورتنا وكانت تلك الفترة الزمنية تتسم بالمطر الشديد في (الشيرا) حيث كنا نبلل بالماء كما تبلل الأشجار ولهذا اضطررنا للهرب إلى منازل الفلاحين رغم المخاطر الناجمة عن ذلك بسبب انتشار جنود باتيستا في كل أرجاء البلاد.

وكان الربو قد اشتدت مضاعفاته حيث أصبحت لم أعد قادرا على السير بشكل طبيعي الأمر الذي أرغمنا على أن نخلد للنوم في داخل إحدى المزارع الصغيرة والتي تعمل في البن بالقرب من أحد الأكواخ وهو ما جعلنا نسترد عافيتنا . . وفي ذلك اليوم وأنا أتحدث عن ٢٧ أو ٢٨ فبراير تم رفع الرقابة عن الأخبار في البلاد ولم يتوقف الراديو عن بث أخبار حدثت في الأشهر الأخيرة وكان على رأس تلك الأنباء خبر لقاء الصحفي الأمريكي ماتيو مع (فيدل كاسترو) فضلا عن التعرض للأعمال الإرهابية على حد التعبير الإذاعي وفي ذلك الوقت أدلى وزير الدفاع بتصريحه المعروف حول هذه المقابلة التي لم تكن سوى أكذوبة كبرى وذلك على حد قوله كما أنه قام بمنع وحظر نشر الصور التي التقطها «ماتيو».

كان (هرمس) ابن من أبناء الشيخ أميليانو هو المسئول عن مساعدتنا فيما يتصل بالإمدادات الغذائية ويدلنا على خط السير الذي ينبغي أن نفتق أثره حتى لا نضل الطريق، ولكن في صباح ٢٨ فبراير تغيب عن الحضور الأمر الذي أثار قلقي (فيدل) الذي أصدر قراره بإخلاء المكان واحتلال نقطة أخرى إذ يتعذر علينا معرفة ما حدث له . . وفي تمام الساعة الرابعة بعد الظهر كان «لويس كرسيو» وأونيفرسو سانتشس يراقبان الطرقات حينما تبين (أونيفرسو) على الطريق المتفرع عن تلك التي تصعد من (لاس فيجاس) عددا كبيرا من الجنود في حالة تأهب لاحتلال الأرض،

وكان يلزم الجرى بأقصى ما نستطيع لكى نصل جانب الرابية والمرور إلى الطرف الآخر منها قبل أن يغلق هؤلاء الجنود القادمون الممر . . ولم يكن فى ذلك شىء صعب ما دمتنا قد شاهدنا بأعيننا جنود العدو فى الوقت المناسب، وكانت طلقات المدافع والرشاشات قد بدأت تهز أرجاء المكان بالقرب منا الأمر الذى يؤكد بما لا يدع مجالا للشك - أن جيش باتيستا كان يعرف موضعنا بالضبط . . ووصلنا جميعا إلى القمة دون وقوع أى حادث بل تجاوزنا القمة بسلام بيد أننى كنت أشكو من تصاعد حدة الربو الذى أفقدنى القدرة على أن أمشى وهو ما دفع الفلاح (كرسيو) الذى رثى لحالى وراح يبذل قصارى جهده لدفعى على مواصلة السير . وعندما ضعفت قواى ورجوتهم أن يتركونى قال لى الفلاح باللهجة التى تميز بها قواتنا «اسمع أيها الأرجنتيني سوف تمشى وإلا دفعتك للأمام قسرا بمؤخرة هذه البندقية) ولم يقف تشجيعه لى عند هذا الحد بالقول فبالإضافة إلى ما كان يحمل من أهدافه الشخصية كان يحمل جسدى وحقيتى فى الأماكن الوعرة من الجبل . . فى ذلك الوقت كان وابل من الأمطار يضرب ظهورنا بلا هوادة وبلغنا رغم ذلك الكوخ الصغير وكان المكان يدعى «بورجاتوار» (المطهر) وهناك تقمص (فيدل) شخصية القومندان (جونزالس) أحد قادة ضباط جيش باتيستا وأنه يهدف إلى ملاحقة الخارجين على قوانين البلاد وقدم لنا صاحب المكان بيته واهتم بنا اهتماما لا يخلو من الخوف والتبرم ولكن كان هناك شخص آخر صديق من كوخ مجاور لا يكف عن الكلام وقد كانت صحتى حرج عثرة للاستمتاع بمشاهدة فيدل كاسترو وهو يلعب دور القومندان وحواره الرائع مع الفلاح الثرثار الذى لا يتوقف عن إسداء النصائح لفيدل كاسترو.

وكان الأمر يقتضى إصدار قرار حيث لم أكن أستطيع أن أتحدى بالصبر مدة أطول وحينما غادر الجار الثرثار أفصح فيدل كاسترو لصاحب البيت عن هويته

وشخصيته الحقيقية فارغى الرجل فى أحضانه وقال إنه كان عضوا فى حزب الاستقامة وإنه كان دائما من أتباع «تشيياس»^(١) فماذا كان بوسعه أن يفعل من أجلنا؟ لقد كان أكثر الأمور إلحاحا إرسال فلاح إلى (مانزايانو) بهدف تدشين قاعدة اتصالات مع هذه المدينة وشراء بعض الأدوية على أقل تقدير، وكان ذلك يلزم أن أظل موجودا بالقرب من البيت دون علم أحد حتى زوجة صاحبه وكان قد وقع الاختيار على رفيق آخر للانضمام إلينا وقد كان رجلا ضخما الجسم قليل الأخلاق وقد اختير هذا الرفيق لكى يظل بجوارى وزودنى فيدل بسخائه ببندقية من طراز جونسون كراة كانت فى تقدير الذين يملكون الخبرات التسليحية إحدى الدرر التى تسلح بها عصابتنا لقد أعطانى هذه البندقية لكى أُدافع بها عن نفسى إذا لزم الأمر وتظاهرنّا بأننا نغادر البيت جميعا فى طريق واحد وبعد عدة خطوات اجتزت أنا ورفيقي الذى كنت ألقبه بالأستاذ فى البرية إلى مكان متفق عليه مسبقا، لكى نترقب ما سيقع فى الساعات القادمة من أحداث، وهذه هى أخبار ذلك اليوم: لقد تحدث الصحفى الأمريكى العجوز (ماتيزو) بواسطة الهاتف وقد أكد فى إصرار على أن الصور سوف تنشر مهما كانت التحديات . .

وصرح (دياس تامايو) أنه يتعذر على أى كائن من كان أن يخترق صفوف القوات الحكومية التى تفرض حصارها بقوة، ووقع (أرماندو هارت) فى قبضة قوات الحكومة بتهمة انتمائه لعصابتنا بوصفه الرجل الثانى فى الحركة وقد أذيع كل هذا ووقع فى ٢٨ فبراير، وقام الفلاح بتنفيذ مهمته وأحضر لى كمية كبيرة من (الأدريالين) ومن هذه الساعة بدأت الأيام العشرة التى هى أصعب وأعنف أيام الكفاح والنضال فى (السييرا) فمن أجل أن أسير كنت أتوكأ على الشجر من واحدة

(١) تشيياس: هو الذى أسس حزب الاستقامة وكان عضوا فى مجلس الشيوخ قبل أن يقود باتيستا انقلابه عام ١٩٥٢ وقد تمرد على أركان (الحزب الأصيل) وقد نجح حزب الاستقامة نجاحا باهرا وقد مات تشيياس

لأخرى لها مجاورة وعلى مؤخرة بندقيتي.. وكان يلازمى أحد الجنود الجبناء الذى كان يرتعد كلما سمع طلقة ناريا بالقرب منا ويصاب بحالة عصبية كلما أرغمنى الربو إلى السعال فى بعض الأماكن والنقاط التى تتسم بالخطورة..

وقضينا نحو عشرة أيام طويلة قبل أن نعود إلى بيت (إيفانو) وكانت المسافة التى قطعناها تحتاج إلى يوم واحد وكنا قد اتفقنا على أن يكون يوم ٥ مارس هو يوم اللقاء الجديد ولكن لم نكن على ثقة لانعدام كافة السبل لإتمام هذا الموعد المضروب خاصة وأن الحصار الذى فرضه جنود باتيستا فضلا عن عدم قدرتنا على السير كانا حجر عثرة فى طريقنا للوصول قبل ١١ مارس إلى بيت مضيفنا «أيفانو دياس».

كانت أمور كثيرة قد وقعت فى تلك الأثناء وقد علم بها أهل البيت فمجموعة فيدل المكونة من ثمانية عشر رجلا انقسمت إلى قسمين لأنهم ظنوا خطأ أن جنود الحرس الحكومى سوف يشنون هجوما واسعا مرة أخرى فى مكان يسمى «التوس دى مرينيو» أو مرتفعات مرينيو» وقد واصل اثنا عشر رجلا طريقهم مع (فيدل) وستة رجال مع (سيرو فرياس) ثم سرعان ما وجد (سيرو فرياس) نفسه فى كمين حكومى بيد أنه خرج منه خروج الشعرة من العجين هو ورجاله وتجمعوا مرة أخرى فى مكان قريب ولم يمر بمنزلة أبيفايو دياس منهم إلا (يايو) بمفرده الذى عاد بغير بنديته فى اتجاه مانزاينو وبفضل يايو تمكنا أن نقف على حقيقة ما يجرى، وعلمنا أيضا أن الرجال الذين كان ينبغي أن يبعث بهم (فرانك بايس) كانوا على أتم الاستعداد بيد أن فرانك قام باعتقال (سانتياجو) والتقىنا مع قادة هؤلاء الرجال وكان يدعى (خورخى سوتوس) ويحمل رتبة كابتن ولم يكن قد تمكن من الوصول فى الخامس من مارس لأن خبره مع رجاله كان قد انتشر ومن ثم كانت الطرقات جميعها تخضع للمراقبة والرصد الشديد واتخذنا بدورنا كافة الاحتياطات اللازمة لكى يتم بلوغ الرجال فى زمن قياسي حيث كانت أعدادهم لا تقل عن خمسين رجلاً.

الفصل السادس

وصول الإمدادات

«قام فيدل كاسترو وراح يوجه النقد لشخصي لأنني أهملت السلطة التي كانت في حوزتي وعاتبني على ترك هذه السلطة وانتقالها إلى يد سوتوس».

الفصل السادس وصول الإمدادات

أثناء انتظارنا قدوم القوة الثورية الجديدة بثت الإذاعة عبر أنيرها أن «باتيستا» قد أفلت بأعجوبة من محاولة اغتيال استهدفته شخصيا وأعطى الراديو أسماء بعض ضحايا الحادث من القتلى والمصابين وجاء «أنطونيو أنشيفاريا» زعيم الطلاب في مقدمة القتلى ثم تبع اسمه بعض ممن لا تربطهم علاقة بالحادث وفي ضوء ذلك علمنا أن «بيلايو كويرفونا فارو» أحد مناضلي حزب الاستقامة الذي رفض أية تسوية سياسية مع حكومة باتيستا قد لقي مصرعه وتوترات الأنباء حول جثته التي تم العثور عليها مهملة في «لاجوتيو» وهي ضاحية مشهورة من ضواحي نادى «كترى كلوب» الشهير بأنه حى أرستقراطى وتجدر الإشارة إلى أن الذين قتلوا [بيلايو كويرفونا فارو] وأبناء هذا القتل - قاموا بما يشبه النكته - حيث تعاونوا معا بمحاولة الغزو الفاشلة في (بلايا خيرون) و(شاطئ خيرون) من أجل تحرير كوبا من (جذام الشيوعية).

وقد تسربت التفاصيل الدقيقة المتعلقة بمحاولة مقتل باتيستا عبر الأجهزة الرقابية ولا يزال شعب كوبا يتذكر هذه المحاولة أما أنا فلم يحدث أن التقيت مع أنشيفاريا» زعيم الطلاب على وجه الإطلاق. . وعلى العكس فقد تعرفت على رفاقه فى المكسيك حين توصلت «٢٦ يوليو» وإدارة المنظمة الطلابية إلى اتفاق يهدف للعمل المشترك ومن هؤلاء سفيرنا الحالى فى الاتحاد السوفيتى «فورى تشومون» و«فروكتيوسو روديجس» وجو وستبروك وقد تعاونوا جميعا فى محاولة اغتيال الديكتاتور حتى كاد بعضهم يصل إلى الطابق الثالث الذى يوجد فيه الطاغية بيد أن فشل الهجوم أسفر فى التو عن قيام رجال الشرطة بقتل جميع الذين أخفقوا فى

الخروج فى الوقت الملائم من قصر الرئاسة الذى أصبح قريب الشبه من مصيدة للفئران.

وكنا ننتظر وصول الإمداد على أقصى تقدير فى ١٥ مارس.. فانتظرنا ساعات طويلة فى المكان المحدد للقاء وهو عبارة عن مهبط سرى فى مجرى جدول نهري لم نكن نتوقع وجوده إطلاقا حيث أنه من أروع الأماكن التى يمكن الاعتماد عليها فى النشاط السرى.. على أية حال لم يأت إلينا أحد وعلمنا أن هناك صعوبات وعقبات عرقلت وصول الإمدادات وفى ١٦ مارس وصل الرجال عبر شاحنات وقد بدا عليهم الإجهاد الشديد وكانوا على وشك السقوط من فرط الإرهاق الذى تعرضوا له فى طريق وصولهم إلينا.

وكان صاحب الشاحنات أحد زراع الأرز فى المنطقة وقد سيطر عليه الهلع من التداعيات التى يمكن أن تترتب على مهمته الخطرة ومن ثم طلب حق اللجوء إلى كوستاريكا فحصل على هذا الحق وعاد إلى كوبا كبطل فى الطائرة الشهيرة التى حملت على متنها أسلحة من تلك البلاد وكان اسم هذا الرجل «هوبرت ماتوس».

أما فيما يتعلق بالإمدادات فكانت عبارة عن خمسين رجلا كان منهم ثلاثون فقط مسلحين وقد زادت أسلحتنا بندقيتين رشاشتين كانت واحدة من طراز مادزن والأخرى من طراز تومبسون وكانت الأشهر القليلة التى قضيناها فى السيرا قد أفادتنا وزودتنا بالخبرات فظهرت أمامنا عيوب الرجال الجدد التى كانت فينا أيضا يوم هبطنا على الشاطئ من الجيرانما فليس هناك نظام وليس هناك تكيف بالصعوبات الأساسية ولم يكن هناك عزم على أمر.. لقد كان لديهم باختصار حالة من عدم التوافق مع هذا النوع من الحياة الشاقة وكان يترأسهم الكابتن «خورخى سوتوس» وكانوا قد انقسموا إلى خمس فصائل كل فصيلة مكونة من عشرة رجال وعلى رأسها ملازم وهذه قائمة بأسماء رؤساء الفصائل الخمسة.

الرفيق دومينجس أظن أنه مات بعد ذلك بوقت قصير في بينودل أجوا»، والرفيق «رينه راموس لاتور» الذى مات بطلا في ميدان القتال عند الساعات الأخيرة من الهجوم الأخير الذى شنته القوات الحكومية وكان هو الذى أشرف على تنظيم وإعداد المليشيا في السهل.

و(بدرين سوتو) هذا الرفيق القديم الذى زاملنا في «الجرانغا» وقد انضم إلينا مؤخرا بعد فترة طويلة من الدراسة والتفكير وقد مات هو الآخر في ساحة القتال على الجبهة الشرقية الثانية، ومنحه راوول كاسترو رتبة قومندان بعد أن رحل عن الدنيا، والرفيق (ينيسا) الذى منحته الثورة رتبة قومندان وإن كان قد مات منتحرا بعد نجاح الثورة وانتصارها وأما الملازم (هرمو) فقد كان هو القائد الوحيد الذى ظل على ظهر الدنيا بعد انتصار الثورة.

كان من أهم العقبات التى عرقلت سيرنا هى عجز هؤلاء الرجال على المشى حتى كان قائدهم «خورخى سوتوس» أحد الذين يسرون بطريقة سيئة للغاية فكان يجر قدميه دائما فى آخر القافلة وهو ما كان يمثل فى تقديري نموذجاً سيئاً لرجاله.

وكنت قد تلقيت أمرا بأن أقود بنفسى تلك المجموعة وحين فاتحت (سوتوس) فى هذا الموضوع أخبرنى أن فى حوزته أمرا بأن يسلمها بنفسه إلى (فيدل) وأنه لن يسلمها فى كل الأحوال إلى أى رجل آخر غير (فيدل) ومن ثم لن يتخلى عما أوكل إليه، وفى تلك الأيام كانت عقدة أننى غريب تلازمنى ولم أكن ميالا إلى دفع عجلة الأمور إلى أقصى سرعة رغم أن هذه المجموعة تشكل لى مثار قلق وإزعاج وبعد فترة من المسيرات القصيرة جدا والتى بدت كأنها طويلة للغاية بسبب عدم التأهب والاستعداد الكافى بلغنا منطقة تسمى «لادريتشا، اليمين» ففىها كنا على موعد مضروب لانتظار (فيدل كاسترو) ووجدنا هناك عددا قليلا من الرفقاء كان قد ابتعد عن (فيدل) قبل وقت قصير وهم (الإخوة سوتو مايور الثلاثة وسيدو

فرياس) بيسان وجرميو جارسيا وخوفتينو ومانويل فاخارود وفي تلك الأثناء كان الفرق الشاسع واضحا لكل ذى عينين بين الفرقتين حيث كانت مجموعتنا تتسم بالنظام والتناغم بين أفرادها فى حين كانت مجموعة الرجال (الزرق) نهبا لكافة أمراضنا التى واجهتنا وتعرضنا لها فى مستقبل أيامنا الأولى، خاصة أنهم لم يعتادوا على تناول الطعام مرة واحدة فقط فى اليوم وإذا لم يكن الطعام حلو المذاق لا يتناولونه وكانوا يحملون على ظهورهم حقائب مكتظة بأشياء لا قيمة لها فى مشوار ثورتنا وإذا تبين لهم ثقلها على ظهورهم تخلصوا من اللبن الحليب وحرصوا على بقاء علب مناديل تواليت ومن ثم كنا نحن نوظف عذوبة ورقة طباعهم لكى نحمل عنهم علب الحليب والمواد الغذائية التى يرمونها فى عرض الطريق، وحين طاب لنا البقاء بعض الوقت فى «لادريتشا» حتى أضحى الأمر بالغ الخطورة بعد تصاعد حدة الاحتكاكات والصدامات المستمرة بين المجموعة بأكملها و(خورخى سوتوس) الذى يشتهر بالاستبداد والانفراد بالرأى وصاحب المزاج السيئ دائما ولذلك وجدنا أنفسنا نتخذ العديد من الاحتياطات اللازمة وعند خروجنا من ملجئنا التزم (رينه راموس لاتور) وكان يدعى فى الحرب «دانيال» يتحمل مسئولية الفرقة الحاملة للرشاشات وكانت هذه هى لكى نضمن ولاء هذه الفرقة وعدم انقضاضها على الثورة.

وبعد ذلك بعث (خورخى سوتوس) فى مهمة خاصة إلى ولاية ميامى وهناك انقلب على الثورة وخانها حيث أسس علاقات مع (فيليب باسوس) الذى ينسى وعوده ويرشح نفسه للرئاسة المؤقتة فى مؤامرة كان للخارجية الأمريكية فيها دور رئيسى وبمرور الوقت أبدى الكابتن «سوتوس» حرصه الشديد على رد اعتباره ومن ثم منحه (راوول كاسترو) فرصه ذهبية ولكن (سوتوس) قام بتوظيفها لكى ينسج خيوط مؤامرة ضد الثورة وقضت المحكمة بعقوبته بالسجن عشرين عاما ثم سرعان ما نجح فى الهرب من محبسه بعد أن رشى سجاناه وقد أطلق ساقه للريح قاصدا (مركز الديدان) السامى : الولايات المتحدة.

ورغم ذلك فقد بذلنا قصارى جهدنا لمساعدته بقدر الإمكان وأن نتخذ من الحكمة وسيلة للرفقاء الجدد كما أننا حاولنا أن نشرح له أهمية النظام وذهب «جيرمو جارسيا» لكى يأتى بفيدل من ناحية (كاراكاس) فيما توجهت أنا إلى (براميرو فالديس) الذى كان قد بدأ يتماثل للشفاء من الجروح التى أصابت ساقه وفى الرابع والعشرين من مارس وصل فيدل ليلا.. وكان وصول الزعيم يمثل أهمية بالغة وذات تأثير هائل خاصة أن الرفقاء الأوفياء يحيطون به من كل جانب وقد كانوا بالفعل اثنى عشر.

وما أعظم الفرق بين الثائر المقاتل الذى أطلق لحيته وحمل حقائبه المثقوبة وبين هؤلاء الجنود الجدد الذين جاءوا بملابسهم النظيفة وحقائبهم الأنيقة لامعة ووجوههم الحليلة وبشرتهم البيضاء.

منذ قليل تبادلنا مع (فيدل) أطراف الحديث حول الأزمات التى واجهتها والمشكلات التى تعرضنا لها وعقد اجتماعا لكى نحدد الموقف الذى ينبغي أن نتخذه وكان المجلس يضم فيدل وشقيقه راوول وكان يحضره أيضا «أليدا» و«جيرمو جارسيا» سيفوييجوس ومانويل فاخارود وسيرو فرياس وكاميلو سيفوييجوس، وأنا ثم قام فيدل وراح يوجه النقد لشخصى لأننى أهملت السلطة التى كانت فى حوزتى وعاتبنى على ترك هذه السلطة وانتقالها إلى يد (سوتوس) وأظهر (سوتوس) أنه لا يوجد موقف عدائى أو شخصى معه لكن لم يكن يحس التساهل نحو موقفه مثل ذلك الوقت ثم شكلنا الفكر الجديد وذلك بتقسيم المجموعة إلى ثلاث مجموعات الأولى برئاسة راوول كاسترو، وخوان أليدا، وخورخى سوتوس بيد أن (كاميلو سيفوييجوس) كان مسئولاً عن قيادة الطليعة وكان على (أفيخنيا ميخراس) قيادة المؤخرة أما أنا فقد عينت طبيب الأركان فيما أضحي «أونيفرسو سانتش» رئيس الأركان كانت الفرقة تتضاعف يوما بعد الآخر من حيث القوة والعدد بفضل

المتطوعين الجدد خاصة وقد أصبح لدينا بندقيتان رشاشتان رغم أن فعاليتهما كانت
 مشار ربية وقلق ومع ذلك فقد أمسينا نمثل قوة مرهوبة الجانب وبدأنا فى اجراء
 مناقشات حول ما سوف نفعله الآن وقلت فى تلك المناقشة أننا يجب أن نشن
 هجوما على أول نقطة لكى نرفع بنيران القتال والكفاح الثورى معنويات الرفقاء الجدد
 ولكن رأى فيدل وجميع الأعضاء أننا يجب أن نتركهم يترجلون وسط الصعاب
 والشدائد حتى يالفون تلك الحياة الشاقة التى لم يكونوا يعهدونها من قبل . ثم
 محاولة إرغامهم على السير بين الروابى الحادة والصخور المديبة وبين المنحدرات
 حتى يكتسبوا قوة وصلابة ويتمتعوا بالجلد والمثابرة والصبر ولا يتعجلوا النصر أو
 الهرب .

من هنا قررنا أن نتجه صوب جهة الشرق وأن نتقدم بأقصى ما يمكن التقدم فى
 الوقت الذى نفتش فيه عن مناسبة لكى نباغت بعض جنود الحرس الحكومى بعد أن
 نكون قد تابعنا درسا عمليا تمهيدا فى أصول وعلوم وفنون حرب العصابات .
 واستعدت الفرقة فى مناخ حماس وانطلقت تؤدى المهمة الموكولة إليها وبدأت
 طقوس تعميدها بالدم من خلال معركة «الأوفىرو» .

* * * *

إعداد الرجال

انكفأت القوات الشورية طوال شهرى مارس وإبريل عام ١٩٥٧ على نفسها من أجل تكثيف ساعات التدريب وإعادة التنظيم ورسم الخطط المستقبلية وكانت هذه القوات مع الدعم الجديد الذى حصلنا عليه مؤخرا تتكون عند خروجنا من المكان الذى يدعى «لادرتيشا» من ثمانين رجلا تقريبا وكانت تشكيلاتها على النحو التالى :

كانت المقدمة تتكون من أربعة رجال فى مقدمتهم «كاميلو» وأسندت مهام المجموعة التالية إلى «راوول كاستر» ومعه نحو ثلاثة ملازمين على أن يتولى كل منهم قيادة فصيلة وهم «راميدو فالديس» و«نانودياس» و«خولينو دياس» وهم بالمناسبة لا تربط بينهما أية صلة قرابة على الإطلاق حيث إن أحدهما ولد فى مدينة سانتياجو وإن كانت مصفاة الإخوان دياس تتشرف بهذا الاسم فى تلك المدينة لإحياء ذكرى نانو وأحد أشقائه الذى كان قد مات شهيدا فى سانتياجو بكوبا . . أما الثانى فكان من رفقاء الجرائما ومونكارا القدماء وقد أبلى بلاء حسنا فى معركة (الأوفيرو) وكان مع (خورخى سوتوس) الذى كان برتبة كابتن فى ذلك الوقت . ثلاثة ملازمين هم «سيروفرياس» الذى استشهد فيما بعد على جبهة (فرانك ياييس) (وجيرمو فارسيا) وهو الآن قائد عسكري (ورينه راموس لاتور) وقد استشهد وهو برتبة قومندان فى السيرمايسترا .

ثم بعد ذلك تأتى هيئة الأركان المكونة من (فيدل) قائدا عاما (وجيرو رودندو) و(مانويل فاخاردو) والفلاح كرسيو واينفرسو سانتشس وأنا بوصفى طيبا وكانت المجموعة التى تلى هذه المجموعة فى سير الطابور صفا متصلا هى فى الغالب مجموعة أليدا وكان الملازمون فيها «هرموا» وجيرمو رومنجس الذى قتل فى أليينو دلاجوا) و(ينيا) وكان فى ذيل الطابور أفيخينيو ميفيراس برتبة ملازم يرافقه ثلاثة رجال يشكلون المؤخرة .

وراح الرجال يتعلمون أصول الطهى واحدا بعد الآخر وكانت الحلويات والمأكولات والأدوية والذخائر توزع بالتساوى على كل فرقة وكانت كل فرقة تحتوى على عناصر من القدامى وأعضاء من الجنود الجدد لكى يكتسبوا الخبرات والمعلومات فى الطبخ وكيفية استخراج أكبر نسبة ممكنة من المأكولات إلى جانب فنى حياة الحقائق العسكرية وفنون الترحل الطويل والشاق فى السير.

إن السيارة تقطع المسافة بين قطاع درتيشا ولومون والأفيرو فى بضع ساعات ولكن عبور هذه المسافة يتطلب خمسة أشهر حتى استطعنا خلالها أن نصل إلى الهدف الأساسى وهو تجهيز الرجال للمعارك القادمة وللحياة التى تنتظرهم وهكذا عدنا إلى عبور مرتفعات «أسيينوزا» مرة أخرى حيث وقفنا نحن القدامى حرس شرف أمام قبر (خوليو زينون) الذى كان قد استشهد منذ مدة قصيرة ووجدت هناك قطعة من غطائى لاتزال عالقة بالأشواك (تذكرنى بتراجعى الإستراتيجى المهرول) فوضعتها فى حقيبتى وعقدت العزم الأكيد على ألا أفقد أى شىء بعد هذا اليوم من حقائى فى ظروف مشابهة.

وانضم إلى أحد الرفاق الجدد ويدعى «يولينو» لكى يساعدنى فى نقل الأدوية وهكذا أصبحت مهمتى يسيرة وتمكنت من أن أخصص بضع دقائق يوميا بعد أن ينتهى شوط السير من أجل التفرغ للاهتمام بصحة الفرقة.

ورجعنا إلى رابية «كاراكاس» موضع الغارة التى شنها طيران العدو علينا بسبب خيانة «جيرا» ووجدنا هناك إحدى البنادق التى كانت تفيض عنا وقد اضطر أحد جنودنا إلى تركها ليمشى بخطى أسرع عند التراجع. . أما الآن فلا يوجد فى حوزة الفرقة مزيد من البنادق بل الحقيقة التى لا يخالفنا الشك فيها أننا فى حاجة ماسة للبنادق حيث نشكو النقص فيها.

ودخلنا مرحلة جديدة ومثيرة وتستدعى الانتباه.

فقد حدث تغير نوعي.. لقد كانت هناك منطقة كاملة كان جيش العدو يتجنب أن يجازف بالمغامرة فيها حتى لا يصطدم بنا ورغم ذلك فلم نكن نحن أيضا نظهر رغبة عارمة في مقابلة هذا الجيش.

وكان الوضع السياسي أثناء ذلك يفسح المجال للاستغلال وكانت الأصوات الضخمة التي يعرفها الناس أصوات «يارد ويادا» وكونت أجويرو والعديد من فئة المستغلين حيث يتصايحون بالخطب الرنانة بالديما جوجية في دعوة للوفاق والوثام من خلال هجوم حاد وعنيف على الحكومة.

والحكومة بدورها راحت تتحدث هي الأخرى عن السلام وقد صرح رئيس الوزراء الجديد (ريفيرو أوجويرو) لكل إنسان أنه مستعد إذا دعت الضرورة أن يتوجه إلى سيرا مايسترا من أجل نشر لواء السلام في ربوع الوطن ومع ذلك فبعد مرور عدة أيام أكد باتيستا أنه لا ينبغي إجراء أى حوار مع (فيدل) وأمثاله من الخارجين على القانون وقال إن (فيدل) ليس في السيرا وأنه لا يوجد هناك أحد في أعالي الجبال ومن ثم لا يوجد داع يفرض علينا أن نتوجه لكى نتفاوض مع (حفنة من الأشقياء) وهكذا اتضحت من جانب باتيستا العزيمة في المضى قدما لمواصلة العمليات الحربية وكانت هذه هي المناسبة الوحيدة التي اتفقنا فيها مع العدو وعلى الفور قررنا نحن أيضا مواصلة القتال مهما كان الثمن.

وفى ذلك الوقت عينت الحكومة الكولونيل «باريرا» رئيسا للعمليات وهو معروف بشراسته وجشعه وطمعه في مأكولات الجنود وقد استطاع بعد ذلك أن يشهد لحظة اندثار نظام باتيستا وذلك من كاراكاس عاصمة فنزويلا خاصة وأنه كان يعمل ملحقا عسكريا.

كان معنا فى تلك الأثناء بعض المؤيدين المتحمسين الذين كانوا يجيدون فن الدعاية التجارية فقط، لحركتنا فى الولايات المتحدة وقد سبب لنا اثنان منهم على وجه خاص بعض المصاعب.

ولقد كان هؤلاء ثلاثة شباب أميركيين هربوا من منازل آبائهم فى القاعدة البحرية الأمريكية فى (جوانتانمو) وانخرطوا فى صفوف الحركة التى نقودها وتعذر على اثنين منهما سماع أى طلق نارى فى السيرا وانسحبا وقد أنهكهما المناخ وكافة صنوف الحرمان الأليمة بحراسة الصحفى «بوب تابير» أما الرجل الثالث فقد شارك فى معركة (الأوفيرو) ثم سرعان ما أثر الانسحاب بعد أن سقط مريضا وإن كان قد أبلى بلاء حسنا فى ميدان القتال لأول مرة فى حياته.. إن هؤلاء الشباب لم يكن أى منهم على استعداد أيدولوجى للثورة ولكن اقتصر الأمر لديهم على إشباع رغبتهم فى المغامرة بالعيش فيما بيننا شهرين أو ثلاثة أشهر.. ولقد شاهدناهم يذهبون ونحن فى غاية التأثر والسرور بالطبع.. وكان سرورى أنا يكاد يكون الأكبر والأعظم بوصفى أعمل طبييا حيث كثيرا ما كنت أنا الذى أحمل عبئهم لأنهم لم يكونوا على استعداد لقبول ومواجهة مصاعب الدنيا التى نعيشها الآن.

وفى ذلك اليوم نفسه دعت الحكومة رجال الصحافة إلى جولة فى إحدى الطائرات التابعة للقوات المسلحة على ارتفاع بضعة آلاف من الأمتار لكى تبرهن على عدم وجود أحد فى جبال (سيرا مايسترا) وكانت عملية تثير الدهشة ومن ثم أخفقت فى إقناع أى أحد وقد كشف ذلك الأمر كيفية توظيف حكومة باتيستا لكافة أدوات وأساليب تضليل وخداع الرأى العام وتزييف وعيه من خلال دعم جميع الذين كانوا أمثال «كونت أجريرو» حيث كانوا يظهرون للرأى العام كأنهم أبطال وثار مناضلون ورموز للكفاح الوطنى فى حين كانت خطبهم اليومية بمشابة حقن مخدرة يتعاطها الشعب.

وفى أيام المحنة استطعت أن أتمدد على فراشى من القطن وكان الفراش غالى الثمن وقد منعتنى نظام الحركة الصارم من أن أحصل على مثله حتى الآن، والواقع أن نظامنا الثورى الصارم كان لا يسمح لأحد باقتناء مثل هذا الفراش باستثناء فراشى

قماشاً الحقائق وكان هذا التدبير وسيلة لمكافحة البلادة والكسل . . ولقد استطاع كل عضو من أعضاء الفرقة أن يصنع فراشا من القماش وكان الربو الذى يفترسنى يحول بينى وبين استخدام فراش القماش حيث أن حشوة الشعر كانت تثير إزعاجى فكنت أرى نفسى مدفوعاً رغم أنفى للاستلقاء على الأرض ولأننى لم أكن أملك فراشا مصنوعاً من القماش فلم يكن بوسعى أن أطالب بفراش من القطن إن هذه الجزئيات الصغيرة التى كنا نراها ونعيش تفاصيلها يوميا تكاد تكون مأساة تلتبس كل حركة أو عصابة بيد أن (فيدل) أخذ الأمر بجدية واهتمام وتجاوز الأنظمة وخصص لى فراشا، ولا أزال أذكر أن هذا جرى فيما كنا على ضفة نهر «لابلاتا» فيما كنا نعب الحصون الأخيرة قبل وصولنا إلى (يالماموتشا) وبعد يوم واحد من تناولنا أول عشاء مع الرجال على التوافق.

ولقد ثار الفلاحون غضبا من أعضاء الفرقة ورفضوا كل حصتهم من الطعام. بل كان من بينهم من اعتبر (مانويل فاخاردو) مجرماً سفاحاً، وكان مانويل فى زمن السلم يقتل المواشى فى السلخانة وكنا نستفيد من قدراته فى حالات كهذه التى ضحى فيها بأول حصان).

وكان هذا الحصان الأول يخص فلاحاً يسمى (يوبيا) يعيش فى الجانب الآخر من نهر (لابلاتا)، وما من شك أن (يوبيا) أصبح على دراية بأبجديات القراءة بعد الحملة القومية لمكافحة الأمية فهو إذن يستطيع إن كانت تصله (مجلة فردى أوليفو)^(١) أن يتذكر هذه الليلة التى طرق فيها ثلاثة مقاتلين من الثوار وعلى وجوههم علامات استحقاق المقصلة باب كوخه وظنوه خطأ أحد الجواسيس وأخذوا إليه هذا الحصان العجوز الذى كان ظهره مثخناً بالجراح.

(١) هى مجلة القوات المسلحة الثورية.

وبعد مرور عدة أيام أضحى هذا الكدش طعاما لنا ولقد تلمظ بعضنا بلحمه
كطعام رفيع ولكنها كانت أزمة حادة ومحنة خانقة لبطون الفلاحين الذين ترسخ في
مكنوناتهم شعور بالرعب لأنهم على حد ظنهم يرتكبون جريمة أكل لحوم البشر
فيما هم يتلوكون بأفواههم صديق الإنسان القديم.

* * * *

الفصل السابع

لقاء صحفى شهير ومثير

«كان فيدل فى تلك الأثناء يتطلع إلى الحصول على راديو وطلب واحدا من أحد فلاحى المنطقة وجاء به فى الحال، وكان بمقدور هذا المناضل أن يحمل هذا الراديو الضخم فى حقيبته وقد استطعنا من خلال هذا الراديو سماع الأخبار الواردة من هافانا مباشرة».

الفصل السابع

لقاء صحفى شهير ومثير

فى ١٥ أبريل عام ١٩٥٧ عاد جيشنا المتمرس إلى منطقة (يالماموتشيا) القريبة من «بيك توركينو» «قمة توركينو» وفى تلك الأثناء كان أكفأ رجالنا وأكثرهم قدرة وصلابة فى الجبال هم رفقاؤنا من الفلاحين وكان «جيرمو جارسيا» و«سيرو فرياس» يقطعان جبال السيرا ذهابا وإيابا بدوريتهما المكونة من الفلاحين ويعودان بالأخبار ويقومان بالاستطلاع وإحضار المأكولات خاصة أن دوريتهما كانت هى المقدمة الأساسية فى حركة طابورنا، وفى تلك الأيام وجدنا أنفسنا فى منطقة «نهر الجحيم» مرة ثانية، وهذه المنطقة قد شهدت إحدى معاركنا وأقبل الفلاحون يطلعون ويتابعون ما جرى من الأحداث المؤلمة كما أنهم قد أخبرونا باسم الرجل الذى تولى قيادة جنود الحرس الحكومى ليتعقبنا فى الحال كما زودونا بأسماء الرجال الذين سقطوا صرعى.. فضلا عن معلومات كثيرة ومختلفة..

على أية حال قدم لنا هؤلاء الخبراء المتمرسون فى فن إشاعة وبث ونشر الأخبار من الفم إلى الأذن كل التفاصيل عن حياة القطاع.

وكان (فيدل) فى تلك الأثناء يتطلع إلى الحصول على راديو وطلب واحد من أحد فلاحى المنطقة وجاء به فى الحال.. كان بمقدور هذا المناضل أن يحمل هذا الراديو الضخم فى حقيبته وقد استطعنا من خلال محطات هذا الراديو سماع الأخبار الواردة من هافانا مباشرة ولاحظنا أنهم بدءوا يتحدثون بحرية واسعة فى العاصمة هافانا بسبب إعادة الضمانات المزعومة.

وتنكر (جيرمو جارسيا) تنكرا بارعا فى ملابس كابورال فى جيش باتيستا وقد توجه مع اثنين آخرين من جنودنا الذين تنكروا للبحث عن الجاسوس الذى زود

العدو بمعلومات تتعلق بحركتنا، وعادوا به وذلك بضغط من الكولونيل فى صباح اليوم التالى وقد اقتفى الرجل أثرهم عن طيب خاطر دون أن يتسرب الشك إلى صدره بيد أنه أدرك مغبة مصيره حين وقعت عيناه على طلائع جيش المقاتلين . . . وبجراحة أو وقاحة شديدة راح يروى لنا التفاصيل الدقيقة التى رواها لجيش العدو عن حركتنا فى حديث طويل أسهب فيه دون توقف أو إبطاء، وأخبرنا أيضا هذا الحقير أنه أبلغ (كاسياس) أنه بمقدوره أن يجهز علينا بكل تأكيد وذلك بأن يصطحب قوات الجيش إلى هنا بعد أن يكون قد فضح موضوعنا . . . وبعد وقت قليل لفظ هذا الجاسوس أنفاسه الأخيرة على إحدى الروابى ووارت جثته التراب فى إحدى غابات جبال مايسترا .

وفى تلك الفترة الزمنية وصلت رسالة من (سيليا) تخبرنا بقدمها مع اثنين من الصحفيين القادمين من أمريكا الشمالية وذلك لإتمام رغبتهما فى إجراء لقاء صحفى مع (فيدل) فى مسألة الشباب الأمريكى الذين رويت حكايتهم من قبل وبعثت لنا سيليا بعض النقود التى جمعها أنصار الحركة .

وتقرر أن يقوم «الوساردينيا» بتوصيل الصحفيين الأمريكيين بواسطة طريقة منطقة «أسترداد بالما» التى يعرفها معرفة واسعة حيث كان فيما سبق يعمل فى مجالات التجارة بها .

وفى ذلك الوقت تحركنا لإجراء اتصالات مع الفلاحين الذين سوف يمارسون دور ضباط الارتباط ويحرصون على الحفاظ والحرص على معسكراتنا الدائمة والمستمرة . . . لقد أردنا فى الواقع أن نؤسس هناك المراكز الفعلية الحيوية للمنطقة التى نفرض سيطرتنا عليها وقد بدأت فى الاتساع يوما بعد الآخر .

ولذلك تعرفنا على هذه البيوت التى تمثل لنا نقاط إمداد وتموين حيوية لقواتنا لكى نبني فيها المخازن التى يمكن أن تنقل منها المأكولات وفقاً لحاجات القوات، وكانت

هذه المنازل تمثل أيضا تبديل لـ (سياراتنا) البشرية السريعة التي كانت تجوب السيرا في كل ناحية وتمضى بسرعة فى كل شبر من الجبل . .

وقد برهن هؤلاء الرجال الذين كانوا يقطعون جبل السيرا على قدرتهم الفذة فى قطع مسافات كبيرة فى زمن قياسى الأمر الذى جعلنا نحن أبناء المدن نقف دائما من معلوماتهم موقف التشكك .

بيد أن تلك المعلومات كانت تظهر سليمة لدى الفلاحين وبعد ثلاثة أيام مرت على تعيين «لالوساردنياس» تلقينا إشارة تفيد بأن نحو ستة أشخاص فى طريقهم للقمة الجبلية بواسطة قطاع «سانتود ومينجو» وهم يتألفون من اثنين فى أمريكا الشمالية هما الصحفيان ومرافقان نجعل هويتهم إلى جانب سيدتين ولكن البيانات الواردة إلينا تثير القلق حيث زعمت المعلومات أن جنود الحرس أحسوا بوجودهم عن طريق أحد العملاء الخونة وحاصروا البيت الذى يقيمون فيه وتذهب الأخبار وتعود فى طول السيرا وعرضها بسرعة مثيرة للدهشة، ولكنها أيضا نشوة .

وذهب كاميلو فى طليعة مجموعة من الرجال حاملا معه أمرا بإنقاذ الأمريكيين الصحفيين «وسيليا سانتشس» التى كنا نعرف أنها أحد الأشخاص الستة وقد وصل الجميع رغم ذلك فى صحة وسلام حيث كانت الإشارة الخاطئة التى تلقيناها تفيد بأن هناك حركة قام بها جنود حراسة الحكومة عقب صدور بعض الوشائيات التى كانت شائعة فى ذلك الوقت ورائجة بين الفلاحين .

وفى ٢٢ أبريل جاءنا الصحفى «بوب تابر» وبصحبه مصور سينمائى وكانت معهما رفيقتان «سيليا سانتشس» و(هايدة سانتا ماريا) ومبعوثا حركة السهل (ماركوس) أوينكارجوا وهو القومندان إيجليباس» وهو مسئول (لاس فيلاس) وكان حينئذ مكلفا بمهام خاصة فى منطقة «سانتياجو» و«مارسيلو فرناندس» منسق الحركة وقد حضر على اعتبار أنه مترجم للغة الإنجليزية وهو اليوم يشغل منصب نائب

رئيس البنك الوطنى ومضت الأمور بشكل بروتوكولى فى حين كنا نهدف إلى عرض قيوأتنا مع الحرص على تجنب كل سؤال لا نعرف ماهيته حيث كنا نجهل حقيقة هؤلاء الصحفيين وقد سمحنا لهم فى الالتقاء مع الأمريكيين الثلاثة الذين أدلوا بإجابات جيدة على جميع الأسئلة التى وجهها الصحفيون إليهم.

ولقد أفرزت الحياة الجافة والخشنة التى عاشوها معنا إلى خلق حالة نفسية جديدة ومغايرة عند الصحفيين.

وفى هذه المرحلة انخرط فى صفوفنا أحد أهم الوجوه وأكثرها مباركة وتأييدا لحركتنا النضالية ذلك هو «راعى الأبقار الصغير» ولقد جاءنا بصحبة رفيقة له فى يوم من الأيام الساطعة وكان بصدد البحث عنا منذ شهر بالتمام والكمال «إنه من منطقة «كاماجواى» ومن «مورون» على وجه التحديد...

وكما هو متبع فقد أمطروه بوابل من التساؤلات وزوده بحزمة من مبادئ التوجيه والإرشاد والتثقيف السياسى وقد توليت بدورى الإشراف على تلك المهمة طوال الوقت ولم تكن لدى (راعى الأبقار الصغير) أية فكرة سياسية وكان يظهر لنا كأنه طفل يتسم بالبهجة والمرح وموفور الصحة وأنه يعيش مغامرة رائعة ومثيرة.

لقد وصل إلينا وهو حافى القدمين فمنحته سيلييا «حذاء جلديا» من صنع المكسيك وكان من الصعب أن يتكيف قدمه مع أى حذاء خاصة أنه كان صغير القدمين، ومع الحذاء الجديد وقبعة الفلاح الكبيرة أصبحت له فعلا هيئة راعى أبقار مكسيكى ومن ثم أطلق عليه لقب راعى الأبقار الصغير.

ولم يتمكن الراعى الصغير من مشاهدة خاتمة الحرب الثورية حيث قد لفظ أنفاسه الأخيرة عشية السيطرة على (سانت كلارا) وهو فى مقدمة انتحارية من الطابور الثامن وأنا الآن نتذكر سعادته البالغة بالحياة وبهجته التى لا تتوقف وطريقته الخرافية التى كان يتمسك بها عند مواجهة الأخطار.

لقد كان (الراعى الصغير) يكذب بشكل مثير فما أن يفتح فمه حتى يرسم ألوان أخرى للحقيقة حتى تبدو لمن يسمع غير واضحة المعالم باختصار كان يجمع بين الحقيقة والخيال والصدق والكذب وقد شاء أن يعمل رسولا فى الأيام الأولى وجنديا بعد ذلك ثم رئيس فرقة انتحارية ومبدعا وصاحب أفكار وابتكارات وشجاعة لا مثيل لها لكنه لم يشهد حلاوة النصر الذى حققناه.

وفى يوم من الأيام بعد وقت قصير من انخراط (الراعى الصغير) إلى حركتنا كان أن طرح البعض علينا عدة أسئلة عقب جلسات القراءة الليلية التى كنا نعقدتها فى أثناء الطابور وراح الراعى الصغير يروى لنا قصة حياته ودون اهتمام انغمست فى إجراء بعض الحسابات مستخدما ورقة وقلم وعندما فرغ بعد أن ألقى العديد من النكات اللاذعة والقاسية والخارجة سئل كم هو يبلغ من العمر؟ ولم يكن قد بلغ العشرين ربيعا ولكن إذا أمكننا أن نجمع ما رواه من حكايات وأحداث مضت فيجب أن نعترف أنه بدأ يعمل أعمال شاقة منذ كان عمره لا يتجاوز خمس سنوات.

وأخبرنا الرفيق «تنكاراجوا» أن هناك شحنة من الأسلحة فى منطقة (سانتياجو) هى بقايا الهجوم على قصر الرئاسة وهى كما صرح لنا مكونة من عشرة رشاشات و ١١ بندقية من نوع جونسون و ٦ جدارات وكان هناك فى الواقع أكثر من ذلك لكن الرفقاء كانوا يعتزمون تأسيس جبهة أخرى فى منطقة مركز السكر فى ميراندا. . وقد رفض (فيدل كاسترو) هذا المشروع ولم يوافق على تخصيص إلا جزء بسيط من الأسلحة لهذه الجبهة الثانية فيما أعطى الأمر باستقدام كل ما يمكن استقدامه من المؤن والإمدادات إلى حركتنا.

وواصلنا السير لتجنب مجموعة مثيرة للاضطراب من جنود الحرس الحكومى الذين يجوبون المكان ولكن كنا قد قررنا فى السابق أن نصعد إلى قمة (توركينو)

وكان صعودنا إلى أعلى قمة من قمم جبالنا يتضمن عنصرا يشبه التصوف فضلا عن أنه قد مر علينا وقت غير قصير كنا نترجل فيه على طول وعرض قمة جبل (المايسترا) القريبة جدا من ذروكها.

وصعد الجميع «توركينو» وفي أعلى هذه القمة انتهت المقابلة مع بوب تابز وقد عاد منها غائما بفيلم وثائقي أذيع عبر شاشات تلفزيون الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت الذي كان الأمريكيون لا يشعرون بالخوف من حركتنا.

ووقع هنا حادث خطير حيث شاركنا فلاح أكد لنا أن كاسياس عرض عليه حوالي ٣٠٠ دولار وبقرة حلوبا إن تمكن من التخلص من فيدل ولم يكن هناك بالطبع غير الأمريكيين الذين أظهروا دهشتهم لثمن (فidel كاسترو) القائد الأعلى لحركتنا.

واعتمادا على جهاز بحوزتنا خاص بقياس الارتفاع كانت أعلى نقطة في قمة الجبل تشير إلى رقم ١٨٥٠ مترا فوق سطح البحر وهذا الرقم يختلف عن الأرقام الرسمية وجهازنا للعلم يعمل بكفاءة ودقة متناهية.

وبما أن إحدى فصائل جيش باتيستا كانت تتعقب آثارنا فقد بعث جيرمو مع عدد من الرفقاء لإرهاق هذه الفصيلة.

ولأنني كنت أعاني من نوبات الربو الشديدة فقد اضطررت أن أمشي في نهاية الطابور حيث لم أكن قادرا على بذل أى جهد استثنائي وحيث إنني لم أكن أستطيع إطلاق النار فقد تركت لهم الرشاش الذي كان بحوزتي وهو من طراز تومبسون ولم يعيدوه لي إلا بعد مرور ثلاثة أيام وهي من أصعب الأيام التي قضيتها في جبال (السييرا) حيث كنت أجدني أعزل من السلاح في وقت كان يمكن أن نواجه فيه العدو وجها لوجه.

وفى هذه المرحلة من شهر مايو ١٩٥٧ غادرنا الشبابان الأمريكان مع الصحافى (بوب تابير) الذى أنهى حوارہ الصحفى وعادوا سالمين غائمين إلى (جوانتنامو)^(١) وأنشأنا شبكة اتصالات واستكشفنا مناطق جديدة حاملين شعلة الثورة وأسطورة الجيش الملتحمة إلى قطاعات أخرى من السيرا وانتشرت فى الجبل روح جديدة فكان الفلاحون يأتون إلينا لإلقاء التحية علينا فى خوف ومن جانبنا لم نعد نخشى من وجودهم لأن قوتنا الصغيرة تضاعف عددها وأحسننا بأننا قد صرنا أكفأ وأقوى وأكثر استعدادا وتحسبا لوقوع أية مفاجأة قد نواجهها من جيش باتيستا فضلا عن أننا كنا أكثر ثقة بفلاحينا واطمئنانا إليهم.

* * * *

(١) هى القاعدة البحرية الأمريكية فى كوبا فى مقاطعة أوريانتي.

١٥ يوما سيرا على الأقدام

بدأنا السير منذ اليوم الأول لشهر مايو وحتى الخامس عشر منه دون أن نتوقف وذلك من أجل بلوغ هدفنا ثكنة «الأوفيرو» التي تتبع جيش باتيستا وفي أول أيام الشهر كنا جميعا عند مرتفع قمة المايسترا القريب من (بيك توركينو) واجتازنا قطاعات كانت بعد ذلك مسرحاً لأحداث عديدة أثناء الحرب الثورية.

واجتازنا أيضا «سانتا آنا وب «الأومبريتو» وبعد البيكو فردى» (القمة الخضراء) بلغنا منزل «أسكو ديرو» فى المايسترا ثم مضينا فى طريق السير إلى رابية الحمار.

وقد قمنا فى هذه المرحلة نحو جهة الشرق لكى نتسلم أسلحة قيل إنها كانت سوف تأتى من (سانتياجو) وتودع بالقرب من رابية الحمار قريبا من (أوردى جيسا) وفى إحدى الليالى التى مرت بنا فى خلال تلك الفترة انتحيت جانبا لكى أقضى حاجتى ثم أخطأت وضللت الطريق وبعد ثلاثة أيام نجحت فى الوصول إلى المجموعة فى مكان يسمى «الأومبريتو» وقد استطعت أن ألاحظ أننا نحمل على كاهلنا كل المواد الضرورية الكافية لحياتنا كالمالح والزيت وهما مادتان مهمتان للغاية وكالطعام المحفوظ فى العلب ومن بينها علب الحليب وكل ما يلزم لإشعال النيران والنوم والطهى وحين أدركت أنى ضللت الطريق فى الليلة المشؤومة أحضرت البوصلة واسترشدت بها فسرت يوما ونصف يوم لكى أكتشف فى النتيجة أنى مازلت أسير الضلال فاقتربت ساعتها من أحد الأكواخ وهناك وصفوا لى كيفية الوصول إلى طريق المعسكر الثائر... وعلى إثر ذلك تبين لى أن البوصلة إن كانت فى المناطق المتوترة مثل «سيرا ماسترا» يمكن عند الحاجة تحديد الهدف حيث أنها أخفقت فى الإشارة إلى طريق معين على وجه الدقة.

إن الطريق الذى ينبغى اتباعه يعتمد على المعرفة الدقيقة بالأرض كما حصل فيما بعد حينما جاء دورى بالضبط كى أقوم بعمليات فى قطاع «الأومبريتو».

وكان اللقاء مع الكابور شديد الإثارة بالفعل فبأى حفاوة استقبلنى بها الرفقاء.

فى تلك الأثناء التى وصلت فيها كانت هناك محاكمة شعبية برئاسة «كاميلو» قد تم انعقادها من أجل محاكمة ثلاثة جواسيس وقد وجد أحدهم نفسه - وكان يسمى «نايولس» - يواجه حكما بالإعدام.

وكان على فى ذلك الوقت أن أقوم بواجبى كطبيب وما كدنا نخط أمتعتنا فى قرية صغيرة حتى بدأت أتأمل أحوال سكانها وكان ذلك أمرا يبعث على الملل والضيق خاصة وأننى لم أكن حاملا أدوية لتوزيعها على هؤلاء البؤساء.

إن كل الحالات المرضية فى السيرا تشابه مع بعضها البعض إلى حد كبير فعلى سبيل المثال لا الحصر، هناك سيدات سقطت أسنانهن وقد بلغن مرحلة الشيوخ قبل أن يأتى الأوان لذلك، وهناك أيضا أطفال متفخة بطونهم إلى جانب أمراض جلدية وغو العظام بشكل غير طبيعى والافتقار إلى الفيتامين بوجه عام - هذه كانت أمراض «سيرا مايسترا» وما تزال منتشرة حتى تلك الساعة وإن كانت بصورة أقل بكثير.

إن أبناء هذه الأسرة يتوجهون الآن إلى المدينة للتعليم خاصة وأن الثورة أنشأت مدينة تعليمية تسمى «كاميلو (سينفو يجوس)» وقد أصبحوا الآن شباب يتمتع بالصحة والقوة والحيوية وتشع أعينهم ذكاء وعبقرية على عكس الأيام والسنوات التى مضت وعانى خلالها آباؤهم وأجدادهم من سوء الأحوال الصحية والاجتماعية والتعليمية.

أذكر أنه كانت هناك طفلة صغيرة ترأب الفحوصات التى كنت أجريها على السيدات وكانت هذه الأمهات يتقدمن ناحيتى على استحياء لسؤالى عن أسباب

آلامهن وحينما جاء دور والدته هذه الطفلة بعد فحص عدد غير قليل من النساء قبلها تعمدت أن أعتنى بهذه الأم عناية فائقة داخل الكوخ الذى اتخذته مقرا للعيادة وإذا بهذه الطفلة تهمس فى أذن والدتها بصوت مسموع «أماه إن هذا الطبيب يقول للجميع الشئ نفسه» «ولم يكن هناك أصح من تلك العبارة التى رددتها هذه الطفلة الذكية فربما لم أكن على علم عميق ولكن ما لا تعرفه هذه الطفلة أن جميع الفلاحات كن يقدمن اللوحة نفسها عند بدء الفحص السريرى وقد قصصن أمامى الحكاية المؤلمة نفسها دون أن يعلمن . .

الواقع أن الشكوى كانت تلخص فى الشعور العام بالإجهاد والإرهاق بسبب سوء التغذية لديهن جميعا، مع الوقت اختلطت المجموعة الثورية مع جموع الفلاحين وإن كنت لا أذكر كيف ومتى بدأ هذا التجانس والتآلف بين الفريقين رغم ما بينهما من مساحات شاسعة من حيث النشأة والطباع والأهداف والثقافة وإن كنت أنا شخصا بحكم عملى كطبيب قمت بإجراء فحوصات على جميع أهالى القرية فقد أدى . لك إلى توثيق الروابط بينى وبينهم ولعل ذلك هو البداية الحقيقية لهذا الامتزاج، ولإنصاف فقد كان لهؤلاء الأوفياء دور هائل وبالع ومؤثر فى تأسيس ايدولوجيتنا الثورية . فى هذا المكان نال (جيرموجارسيا) رتبة كابتن وأسند إليه بكافة المتطوعين الجدد من الفلاحين وما يدرينى فقد يكون الرفيق (جيرمو) قد نسى هذا التاريخ . . أما أنا فقد دونته فى صفحات مفكرة يومياتى الخاصة ١٦ أبريل ١٩٥٧ .

وفى السابع من مايو ذهبت «هايدة سانت ماريا» ومعها توجيهات صارمة من (فيدل) لتدشين اتصالات شديدة الأهمية ولكن فى اليوم التالى أخبرونا أن «ينكاراجوا» - وهو القومندان أيجلياس الذى تولى مهام إحضار الأسلحة قد تم إلقاء القبض عليه وقد أوقعنا ذلك فى مأزق إذ كيف ستصل إلينا شحنة الأسلحة؟

ورغم ذلك قررنا المضى قدما للوصول إلى هدفنا وبلغنا مكانا قريبا للغاية من «ينودل اجوا» وهو منحدر صغير تحفه بعض الأشجار المهجورة فى قلب جيل «سيرا

مايسترا» الجميل وفيه كوخان لا يقيم فيهما أحد على الإطلاق، وبالقرب من طريق رئيسى أوقفت إحدى دوريات حركتنا الشورية عريفاً فى الجيش وكان هذا العريف مشهوراً بجرائمه التى ارتكبها فى حق بعض أبناء الشعب فى ظل «ماتشادو» وبالطبع كنا جميعاً نتطلع إلى لحظة إعدامه حتى تهناً أنفسنا ولكن (فيدل) رفض أن يناله بسوء أو بأذى أو أن يمس شعرة واحدة من رأسه ومن ثم أصبح أسيراً لدينا فقط وأخذنا منه بندقيته وأنذرنا بأن أية محاولة للهرب سوف تكلفه حياته وواصلنا السير حتى نتأكد من وصول شحنة الأسلحة فى المكان الذى حددناه وحتى نفرغ من نقلها فى حال وصولها وكانت مسيرة طويلة للغاية وإن كنا قد شعرنا خلالها أننا نتمتع بخفة ورشاقة خاصة أننا قد تركنا حقائبنا وأمتعنا فى المعسكر بجوار العريف الأسير ولكن من أسف لم تكن الشحنة قد وصلت وقد أرجعنا ذلك إلى اعتقال (نيكاراجوا) واستطعنا شراء كمية بسيطة للغاية من الأطعمة من أحد الحوانيت وعدنا إلى مركز انطلاقنا بأحمال لم تكن متوقعة وذات طبيعة مغايرة ولكن ينبغى أن نعتزف أنه كان حملاً عزيزاً على نفس كل فرد فىنا.

وفى طريق العودة عدنا من نفس الطريق الذى جئنا منه وإن كانت العودة قد تميزت بخطاها الثقيلة البطيئة بجوار (سيرا مايسترا) قد عبرنا كل الأماكن المكشوفة بحذر بالغ لكن على غير المتوقع سمعنا أصوات رصاص تنطلق فى اتجاهنا وهو الأمر الذى أثار مخاوفنا لأن أحد رفقاتنا قد أسرع يلهث لكى يخبر من فى المعسكر فى أسرع وقت بقدر المستطاع وقد كان هذا الرفيق يدعى «جيرمو دومنغس» الملازم فى جيشنا وقد وصل مع الإمدادات من (سانيوجو) وأخذنا العدة لملاقاة أى احتمال وانطلقت دورية الاستطلاع..

وبعد مرور وقت فرضته علينا الحكمة عادت الدورية ومعها أحد الرفقاء الذى يدعى «فيابو» والمنضم إلينا حديثاً وهو أحد أعضاء مجموعة (كرستتيو) وقد أقبل

يسعى من معسكرنا الأساسى قائلا إن رفيقا من رفقاتنا قد سقط منا قتيلًا وإن اشتباكاً وقع مع جنود الحرس وقد انسحب الحرس فى اتجاه (بينودل أجوا) حيث توجد فصيلة أكبر كانت قد تمركزت على مسافة قريبة . . وتقدمنا متخذين كل الاحتياطات وحدث أن عثرنا على جثة قتيل وقد أوكلونى بمهمة كشف هوية صاحبها.

واتضح لى أن صاحب الجثة هو «جيرمو دومنجس» وكان صدره عارياً من أثر الرصاص الذى اخترقه إلى جانب طعنة حربة فى منطقة فكه الأيسر الأعلى وكان رأسه مهروسا على ما أظن من جراء طلق نارى انطلق من بندقيته .

وبتحليل غير تقليدى لكافة الأدلة التى توافرت لدينا تبين لنا أهمية سرعة بناء ما حدث حيث أن جنود العدو كانوا يتجولون بحثاً عن زميلهم العريف الذى وقع أسيراً وقد تناهى لسمعهم صوت (دومنجس) .

وكان قد سبقنا ماشياً غير حذر ظنا منه أنه يمشى فى المكان ذاته الذى مشينا فيه الليلة الماضية ومن ثم وقع أسيراً ولكن فرقة من رجال «كرستتيو» جاءوا فى اتجاه مغاير تماماً بهدف إجراء اتصال معنا (كل هذا جرى على قمة مرتفعات المايسترا) وحين فاجأوا جنود الحرس من الورا فاطلقوا النار مما اضطر هؤلاء للانسحاب وقبل أن يهرب قتلوا رفيقنا «دومنجس» .

(والبينودل أجوا) هى منشرة فى أعلى الجبل ، والطريقة التى سلكها جنود الحرس طريق قديم تستخدم فى نقل الخشب بالطنابر وكان علينا أن نعبرها بعد أن مشينا فيها نحو مائة متراً لكى نعود إلى ممرنا الضيق خلال الغابات التى تجاور خط الانقسام المائى، ولم يتخذ رفيقنا الاحتياطات الواجب اتخاذها فى مثل هذا الظرف فوجد نفسه لسوء الطالع وجها لوجه مع جنود الحرس ولقد استوعبنا درساً قاسياً من جراء قتله .

الفصل الثامن

ووصلت شحنة الأسلحة

«ووصلت شحنة الأسلحة ليلاً.. وكان وصولها في
تقديرى يمثل أجمل وأروع مشهد فى حياتى وقد بدت
الأسلحة الفتاكة كأنها فى معرض من معارض الأزياء
الحديثة اللامعة البراقة أو هكذا رأيتها أو تخيلتها».

الفصل الثامن

ووصلت شحنة الأسلحة

فى إحدى مناطق (السيرى مايسترا) القرية من منشرة «ينودل أجوا» قمنا بذبح الحصان الضخم الذى كان ملكا للعرىف الأسير فلم يكن هذا الحيوان يفيدنا فى الواقع للتقدم فى أماكن مليئة بالأشواك تماما كالتى نعرها. . ومن جانب آخر كنا فى أشد ما تكون لماكولات ومما يبعث على الضحك أن الرجل لم يتوقف عن توصيتنا بالحصان الذى كان قد استعاره من أحد أصدقائه وزودنا ببيانات هذا الصديق كى نرده له فى الوقت المناسب وفى تلك الأثناء كان يتذوق الطعام ويتناول الحساء المطبوخ بلحم الحصان. . وطبيعى أن يكون للحم قيمة كبرى تعد من أبرز سمات الرخاء والرفاهية لدينا منذ أن وطأت أقدامنا جبل «سيرى مايسترا».

فى ذلك النهار سمعنا عبر أثير الإذاعة أن حكما قد صدر للتو ضد رفاقنا فى (الجرانغا) وأنه وجد من جهة ثانية قاض، قاض واحد كان يتمتع بالشجاعة والجسارة معلنا اعتراضه ورفضه لهذا الحكم وكان هذا القاضى هو «أوروتيا» وهذا الموقف الرائع الشريف هو الذى دفعنا لدعوته إلى رئاسة الجمهورية المؤقتة لأن اتخاذ مثل هذا الموقف كان يبرهن على شجاعة نادرة ومن ثم وجب علينا تكريم الرجل ولكن هذا دعانا لتنصيب رئيس سئى عاجز عن إدراك واستيعاب التطورات السياسية كما أنه لا يستطيع إدراك المعانى العميقة للثورة التى لم تكن عقلية الرجعية على منوالها.

ولقد سبب مزاجه واستنكافه عن تحمل العبء الذى كان عليه أن يحمله اصطدامات هائلة حتى اقترب يوم الاحتفال بالسادس والعشرين من يوليو فأنتهى إلى تقديم الاستقالة من منصبه بوصفه رئيس الجمهورية بيد أن الشعب أبدى امتعاضه من الاستقالة ورفض قبولها بالإجماع.

وبعد مرور فترة قصيرة من الوقت جرى اتصال معنا فى (سانتيا جو) وكان القادم يسمى «أندريس» ويعلم من أحد المصادر العليا العليمة أن الأسلحة فى مكان آمن وأنها سوف يتم نقلها فى الأيام القليلة القادمة..

وقمنا بتعيين مكان اللقاء المرتقب بالقرب من الشاطئ فى ساحة خاصة بتجميع الأخشاب يستغلها الإخوان «بابون» وقد نجحنا فى توريد أسلحة متنوعة بفضل تعاون هؤلاء الذين تصوروا أنهم بذلك يؤدون خدمات جلية للثورة.

ومن المنطقى ملاحظة كيف كانت مجموعة كاملة من الناس تتطلع لتوظيف الثورة لمصالحها الخاصة وتقدم الخدمات الصغيرة والبسيطة من أجل مطالبة السلطة الجديدة فيما بعد بمزايا ومكاسب وامتيازات مختلفة، وفى هذا النموذج كان ما طالب به أفراد آل (بابون) امتيازاً يجعلهم ينفردون دون غيرهم بقطع أشجار جميع الغابات دون هوادة مع طرد جميع الفلاحين لتوسيع ممتلكاتهم.

فى أثناء تلك الفترة الزمنية لحق بنا صحفى أمريكى من عينة آل (بابون) وكان من أصول هنجارية ويسمى «أندروزسانت جورج» وعند وصوله كشف وجهها واحدا فقط من بين وجوهه المتعددة أقصد الوجه الأقل قسوة وجه الصحفى الأمريكى.

لقد كان هذا الصحفى الأمريكى يعمل لدى مكتب التحريات الاتحادى الأمريكى (F - B - I) ولأننى كنت الوحيد الذى يتحدث الفرنسية فى المجموعة (لم يكن أحد فى تلك الأثناء يتحدث الإنجليزية) فقد كان واجبى أن أعتنى به ولزاما على أن أعترف بفشلى فى كشف النقاب عن حقيقة شخصيته الشريرة فى المقابلة الأولى وإن كان وجهه القبيح قد افترض أمره فيما بعد من مقابلات.. وبمجرد أن نزع قناع الصحفى حتى بدت لنا شخصيته الحقيقية أعنى العميل السرى بكل حلاوته ومشينا على جانب «الينوا» لكى نصل إلى منابع نهر «بيلاديرو».

وواصلنا السير فى أرض مرتفعة جدا وعلى ظهورنا أحمال ثقال وعلى هذا النهر اتجهنا رأسا إلى أحد روافده هو جدول يدعى «أنديو» واحتشدنا فى الجوار يومين أو ثلاثة وحصلنا على بعض المأكولات وتولينا عملية نقل الأسلحة التى تلقيناها . . وفى القرى الصغيرة من القطاع الذى عبرناه أسسنا قاعدة من قواعد السلطة الثورية غير الشرعية وراح عدد من أنصارنا يطلعوننا على كافة الأشياء بما فى ذلك خطط تحركات العدو . . كنا فى ذلك الوقت نقضى أيامنا فى أحراش الجبال وأثناء الليل كنا نعثر على حزمة من البيوت العشوائية وكان بعضنا يستفيد من ذلك ليمتدد بين أربعة جدران ولكن أغلب الفرقة كانت تتولى حماية البرية .

على أية حال كنا أثناء ساعات النهار نشعر بالأمان خاصة حين تبتهج الدنيا فى عيوننا بأوراق الشجر التى تفتحت على فروع الأشجار الاستوائية التى بشرت بقدوم فصل الربيع . .

فى ذلك الوقت كنا نصاب بالرعب من حشرة حقيرة تسمى «الماكواجيرا» وقد أطلق هذا الاسم عليها لأنها تولد على فرع من فروع شجرة «الماكاجوا» ثم سرعان ما تعود إليها مرة أخرى لتضع عليها بيضها . . وهذه الحشرة اللعينة تتكاثر فى بعض أيام العام تكاثراً كثيفاً فى الغابات وهى تسبب ألماً شديداً للجلد البشرى المكشوف ومن ثم كنا لا نتوقف عن حك وهرش جلودنا طوال وجود هذه الحشرة خاصة وأن أجسامنا التى اتسخت من العرق والتراب والرمال والعمل الشاق وفقدان الاستحمام أصبحت أكثر ضعفاً أمام أية لدغة من لدغات تلك الحشرة وعلى إثرها تتحول جلودنا إلى بقع حمراء اللون حتى بدت أجسامنا المكشوفة مختومة بختم هذه الحشرة كبرهان على أنها قد ترددت علينا .

وفى الثانى عشر من مايو - وصلتنا أخبار عن شحنة الأسلحة وقد راجت الأنباء فى قلب المعسكر الذى تناثرت فيه الأقاويل والشائعات على الفور حيث كان جميع

الثوار يعلمون باليوم الذى سيحملون فيه أسلحة جديدة متطورة بدلا من تلك الأسلحة المتهالكة التى يحملونها ويرغبون فى التخلص منها ووصلتنا أخبار جديدة تدور حول الفيلم القصير ذلك الذى سجله الصحفى الأمريكى (بوب تاير) جبل (سيرا ماىسترا) وقد حقق نجاحا ساحقا على شاشات التلفاز الأمريكى وقد ذكر الجميع هذا الخبر باستثناء (أندروزسانت جورج) وكنا قد شعرنا بالغىظ من عمالته لمكتب التحريرات الاتحادى الأمريكى ومن جنبه الصحفى أيضا ولهذا شعرنا بالصدمة المروعة من جراء عدم مشاركته الابتهاج بهذا النبأ ومنذ اليوم التالى غادر منطقة آل (بابون) على متن أحد اليخوت المتجهة إلى (سانتياجو كوبا).

وفى ذلك اليوم نفسه الذى علمنا فيه بمخبا الأسلحة أكتشفنا أن أحد رجالنا قد هرب وكان بالطبع تصرفا مشينا يدعو للحذر ووجوب اتخاذ الاحتياطات اللازمة حيث كان جميع رجال المعسكر على دراية باقتراب وصول شحنة الأسلحة وأوفدنا فى التو دوريات تقفنى أثره حتى أننا قد علمنا أنه تمكن من ركوب قارب يحمله إلى (سانتياجو) وكان الاستتاج الطبيعى والمألوف أنه توجه على الفور لإبلاغ سلطات العدو ولكن عاد وتبين بعد ذلك أنه لم يكن متحملا المتاعب والصعوبات والتقلبات التى نواجهها من ساعة لأخرى ولكن على أية حال تطلب الأمر منا اتخاذ اللازم من الاحتياطات الواجبة..

وكان علينا أيضا أن نناضل التمرد الذى يحتاج رجالنا واحداً بعد الآخر إما يأساً وإما ضعفاً وإن كانت المحصلة لم تكن كما نصبو إليها حيث طلب بعض الرجال الحصول على إذن بالعودة إلى ديارهم لأسباب ساذجة وتافهة وإذا رفضنا الإذن بعودتهم سيلجئون للهرب كالعادة ويجب ألا ننسى أن عقوبة الهرب هى الموت وهى عقوبة تقع فى نفس المكان الذى يلقي القبض عليه بداخله.

ووصلت شحنة الأسلحة ليلا وكان وصولها فى تقديرى يمثل أجمل وأروع مشهد فى حياتى، وقد بدت الأسلحة الفتاكة كأنها فى معرض من معارض للأزياء الحديثة اللامعة البراقة أو هكذا رأيتها أو تخيلتها.

وكانت عبارة عن ثلاثة رشاشات ذات قوائم، وثلاث بنادق رشاشة من طراز مادزن ونحو تسع بنادق (م. ا) وعشر بنادق أوتوماتيكية من طراز جونسون و٦ آلاف رصاصة لجميع هذه الأسلحة، ورغم أن البنادق من طراز (م. ا) لم يكن لكل منها أكثر من ٤٥ رصاصة حيث جرت عملية توزيع الرصاصات عملاً بالكفاءة التي يتمتع بها كل رفيق ومناقبه فضلاً عن الأخذ في الاعتبار عنصر الأقدامية، وقد أخذ القومندان (راميرو فالديس) إحدى هذه البنادق من طراز (م. ا) وكانت هذه البندقية تبدو متألقة بين جميع البنادق. وحصل جنود المقدمة التي يترأسها «كاميلو» على بندقيتين فيما تم تخصيص البنادق الأربع المتبقية من أجل الدفاع عن الرشاشات. وحصلت فصيلة الكابتن (خورخي سوتوس) على إحدى البنادق الرشاشة وحصلت الفصيلة الثانية التي يقودها «أليدا» على بندقية واحدة أيضاً وأما الثالثة فقد ذهبت لهيئة أركان حرب الحركة وكنت أنا المسئول عن حملها واستخدامها.

أما الرشاشات فقد تسلم (راوول) واحداً وتسلم (جيرمو جارسيا) واحداً والثالث تسلمه «كرستيتو بيريز» ومن هنا. من هذه اللحظة في هذا المكان صرت مقاتلاً دائماً مع ضرورة عملي كطبيب للمجموعة ومن خلال هذا الحدث شعرت بتطور هائل في حياتي كلها في جبل (سيرا مايسرا).

لن تفارق ذاكرتي تلك اللحظة التي تسلمت فيها سلاحى الرشاش صحيح أنها كانت بندقية قديمة ورديئة للغاية ولكن وجدت فيها قيمة لا نظير لها) لقد عينا أربعة رجال من أجل الحفاظ على هذه البندقية الرشاشة وقد انتهج هؤلاء الحراس طرقاً مختلفة فيما بعد حيث أعدمت الثورة اثنين منهم رمياً بالرصاص وهما الأخوان (يويو) (مانولو بياتون) لقيامهما بقتل القومندان «كريستيتو نارانخو» (كان أحد الفلاحين قد ألقى القبض عليهما وهما يتسلقان الجبال في أورنيتى) أما الحارس

الثالث فقد كان صبيّاً لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره وكان دوره يتلخص فى حمل علب التلقيم الثقيلة الوزن للبندقية الرشاشة وذلك طوال الوقت وكان هذا الفتى الصغير يدعى «خويل ايجليسياس» وهو الآن يشغل منصب رئيس الثوار الشباب) ويحمل على كتفيه رتبة قومندان فى جيشنا والرابع الآن بدرجة ملازم ويدعى «أونيأتى» ولكننا كنا ندلله بلقب «كانتيفلاس»^(١) ولم يضع وصول شحنة الأسلحة نهاية لمغامرتنا فقد كان على الفرقة أن تضاعف من حيث القوة العقائدية لدى رجالها وأن يتصاعد حماسها للقتال وبعد بضعة أيام فى ٢٣ مايو أصدر (فيدل) أوامره بتسريح عدد من الرجال بلغ عددهم فصيلة كاملة وهكذا وجدنا أن عدد رجالنا يتراجع إلى حوالى ١٢٧ رجلاً أغلبهم مسلح بل كان منهم ٨٠ رجلاً يحمل سلاحاً بالفعل أما الفرقة التى أمر فيدل بتسريحها بقى منها رجل واحد يسمى «كروستيو» هذا الرجل قد طوقه فيدل بعطفه عليه وكان هذا الرجل شاعراً من شعراء الطبيعة وكانت له مناقشات وحوارات لا تنتهى مع شاعر المدينة «كليستو مورالس» من رفقاء الجرائم الذى سعى نفسه «عندليب الجبال».

ولقد أجاد هذا الرفيق نظم أروع القصائد التى روت تاريخ الثورة فى عشرينات صاغها وأبدعها وهو غارق فى تدخين الغليون أثناء ساعات الراحة ولأننا كنا فى أشد الحاجة للورق فى جبل السيرا فقد كان يحفظ قصائده عن ظهر قلب كلما نظم واحدة منها.

وفى نفس هذا اليوم الذى وضعت فيه رصاصة لإنهاء حياته خلال معركة «بينودل أجوا» اختفت معه قصائده وأناشيده إلى الأبد كنا فى قلب منطقة المنشرات نعتمد على دعم ومساندة أنريكة لوييس التى لا تقدر وهو رجل يتحلى بالشجاعة

(١) شخصية كوميدية فى السينما الأمريكية.

وكان (فيدل) وراوول يعرفونه منذ سنوات الطفولة وكان أثناء تلك الفترة يعمل فى خدمة وطاعة (آل بابون) وكان يدعمنا ويساندنا فى تأمين الأغذية وفى تنقلاتنا أيضا حيث كان على علم تام بالمنطقة.. وهذا القطاع تشقه الطرق التى تقطعها شاحنات الجيش.. وكثيرا ما نصبنا شراكا فى محاولة للاستيلاء والسيطرة على بعض السيارات دون أن نتمكن من تحقيق ما نصبو إليه.. وربما كان ذلك أفضل لنجاح العملية التى كنا بصدد القيام بها وقد كانت من أهم وأخطر العمليات على الصعيد المعنوى فى تاريخ الحرب الثورية أقصد «معركة الأوفيرو».

وفى الخامس والعشرين من مايو وردت لدينا معلومات تفيد أن عددا من الجنود يترأسهم (كاليستو سانتشس) جاءوا من خارج كوبا من ناحية (مايارى) وهبطوا على الشاطئ بواسطة مركب «كورنيتا» وعلمنا بعد مرور بضعة أيام المصير المفجع الذى واجهته تلك الحملة.. فقد كان يريو^(١) يرسل رجاله دائما إلى الموت دون أن يصطحبهم ولو مرة واحدة وحين وصلنا خبر نزول هذه الحملة إلى البر اكتشفنا أن علينا أن نشغل قوات العدو مهما كلف الأمر على أن تتمكن الحملة من الوصول إلى مكان أمين يمكن من خلاله إعادة تنظيم نفسها وتبدأ نشاطها مرة أخرى.. وقد قمنا بكل هذا برغبة عارمة فى التضامن والتعاون والتوحد بين المناضلين الثوار رغم أننا لم نكن على دراية بمضمون وهدف هذه الحملة.

كانت هناك عدة مناقشات قد جرت بيننا كان ركنها الرئيسيان فيدل كاسترو وكاتب هذه المذكرات وكنت من أنصار الرأى الذى يؤكد بما لا يدع مجالا للشك - أننا لا يمكننا أن نترك مثل تلك الفرص الرائعة تتسرب من بين أيدينا دون أن نلقى بكل ثقلنا على شاحنة واحدة ثم علينا أن نطارد الشاحنات على الطرقات التى تتحرك فى كافة الاتجاهات بكل اطمئنان.

(١) يريوسوكاراس: هو زعيم الحزب الاصلى ورئيس جمهورية كوبا فى الفترة من ١٩٤٨/ ١٩٥٢ عام انقلاب باتيستا.

أما (فيدل) فكانت فكرته تتصل بعملية الاشتباك في الأوفيرو وكان يرى أهمية النجاح في السيطرة على مركز «الأوفيرو» الذى سوف يكون بالغ الدلالة والمغزى.. فمثل هذا الاستيلاء سوف يكون له أثر حاسم وخطير وسوف يؤدي بالضرورة إلى إحداث صدمة معنوية حقيقية تمتد آثارها إلى جميع أرجاء البلاد وهو ما لا يتحقق فى الهجوم على شاحنة.. ففى مثل هذا الهجوم التقليدى يمكن للعدو أن يذيع نبأ سقوط شاحنة لانقلابها ومصرع من كانوا على متنها دون الإشارة إلى أى عملية عسكرية وحتى لو ارتاب الناس فى أمر الحادث فالواقع أنه لا يتوافر لديهم الدليل المادى الدال على دور حركتنا فى ضرب وملاحقة الشاحنات وأضاف فيدل أننا لا ينبغي أن نتخلى عن ضرب الشاحنات لكن لا يجوز أيضا أن نتخذها محورا ومركزا لجميع تحركاتنا.

والآن بعد أن مرت سنوات عديدة على هذه المناقشات التى وضع فيدل من خلالها النقاط فوق الحروف ينبغي أن أقر وأعترف أن تقدير (فيدل) كان صائبا وأنى كنت على خطأ حيث إن هجوما منعزلا على إحدى الدوريات التى تتجول بالشاحنات لم يكن ذا جدوى لحركتنا الثورية لأننا كنا فى هذه الأيام نتحرق شوقا إلى القتال بعد أن فاض بنا الصبر أو بمعنى أدق سئمنا منه وربما لأننا لم نكن نتمتع بتلك الرؤية التى تميز بها فيدل عنا جميعا.

على أية حال فقد كنا فى آخر مرحلة من مراحل الاستعداد لمعركة «الأوفيرو».

* * * *

الفصل التاسع

معركة الأوفيرو

عصابتنا نضجت واستوت

«كان الفجر قد اخترق دياجير الظلام ونحن مازلنا نتحدث عن أهوال المعركة وتداعياتها وطار النوم من جفوننا جميعا وكان من بيننا من يقاوم النعاس لكى يستمتع بما لذ وطاب من أشهى الحكايات الرائعة».

الفصل التاسع

معركة الأوفيرو

عصابتنا نضجت واستوت

بما أننا أخذنا نقطة الهجوم فلا يبقى لدينا سوى رسم الخطة التى سوف نتبع تفاصيلها خطوة خطوة. ومن ثم وجب علينا ضرورة الحصول على بيانات ومعلومات تتسم بالأهمية وفى طليعة هذه البيانات التى ينبغى توافرها لدينا هى: على سبيل المثال لا الحصر عدد جنود العدو وكم عدد المراكز التى يتجمعون بها ونوعية التخابر والاستكشاف وقواعده وأدواته فضلا عن كيفية الوصول إليهم وأى الطرق تتصف بالأمان والسلام وماذا عن ظروف وملابس السكان المدنيين وخريطة توزيعهم وغير ذلك..

وفى الإجابة على كل هذه التساؤلات قدم لنا الرفيق «كالديرو» (الذى أصبح اليوم برتبة قومندان) مساعدة كبرى وثمينة فى هذا الأمر وكانت لدينا قناعة راسخة بأن جيش العدو على يقين بوجودنا فى القطاع ولقد اعتقلنا فى الواقع جاسوسين يحملان وثائق واعترفا الرجلان بأن (كاسياس) أرسلهما للاستعلام عن مكان معسكرنا ونقاط تمرركزنا المعتاد وكان مشهد هذين الرجلين يتوسلان طالبين الرحمة يثير الضيق والسخط والرثاء أيضا ولكن من الصعب علينا خلال هذه الساعات العصيبة أن نرعى قبضتنا فى تفعيل قوانين ولوائح الحرب المعمول بها ومن ثم قمنا بتنفيذ حكم الإعدام على الرجلين دون هوادة.

وفى هذا اليوم نفسه الموافق السابع والعشرين من مايو اجتمعت هيئة الأركان العامة بجميع أعضائها وراح (فيدل كاسترو) يعلن أن الثمانى والأربعين ساعة

القادمة سوف تندلع شرارة المعركة خلالها وأنه يجب علينا أن نتحلى بالحيلة والحذر ونستعد للمواجهة على قدم وساق لملاقاة العدو بكامل عتادنا وخططنا وأسلحتنا وتجهيزاتنا ولم يقدم إلينا أية إشارات في ذلك الوقت. . وأعلن أن كالديرو سوف يكون هو مرشدنا حيث إنه يعرف مركز «الأوفيرو» بمدخله ومنافذه ومخارجه ومسالكه معرفة جيدة للغاية، وحين أقبل الليل يجر وراءه الظلام الدامس بدأنا في السير الذى بلغ نحو ١٦ كيلو مترا ولكن كان معظمه سيرا فى مهبط على طرق شيدتها شركة «بابون» لخدمة أعمال منشآتها ورغم ذلك مضينا نحو ثمانى ساعات وقد توقفنا مرات عديدة كتدبير احترازى ضربته الضرورة خصوصا عند اقترابنا من المنطقة الخطرة. . وفى آخر الأمر أصدرت أوامر الهجوم وكانت تتسم بالبساطة.

لقد كان علينا أن نسيطر ونستولى على مراكز الجنود ويخترق رصاصنا أبنيتهم الخشبية المخصصة لهم.

وكنا نعلم أن الدفاع عن الثكنة ضعيف إلى حد ما وكانت المراكز التى يحتشد فى كل منها ثلاثة أو أربعة جنود فى أماكن إستراتيجية على حافة الثكنة تمثل النقاط القوية. . وتشرف على البناء رابية تقف فى مواجهتها وهى مكان رائع يمكن لأركان الحرب أن يديروا المعركة من خلاله دون مشقة أو عناء، وكان يمكن دون أذى كبير الاقتراب إلى عدة أمتار من البناء مرورا فى وسط المتشر فى البرية القريبة.

وتسلمنا تعليمات حاسمة تدعونا بتجنب إطلاق النار على القرية الصغيرة مهما كان الأمر مكلفا حرصا على النساء والأطفال (وكانت من بينهم زوجة المدير التى تسرب إليها نبأ الهجوم بيد أنها أثبت أن تخرج لمغادرة المكان حتى لا تكون محل شك من قبل قوات العدو) وفى حين كنا نتوجه للتمركز فى أماكن الهجوم. . كنا فى أشد الحرص على ألا نمس شعرة من رؤوس الأهالى.

وكانت ثكنة «الأوفيرو» تقع على ساحل البحر بحيث إنه كان يكفى للسيطرة عليها ضربها والانقضاض عليها من ثلاث جهات ومن ثم اتجهنا صوب النقطة التى

رأى جنودها على طريق «بيلاديرو» (وهو طريق جمركي) الفرقيتين اللتين يقودهما «خورخي سوتوس» و«جيرمو جارسيا» وأسند إلى أليدا بتصفية نقطة تقع أمام الجبل في جهة الشمال. أما «فيدل» فقد تركز على الراية التي تسيطر على الثكنة فيما تغلغل «راوول» بفرقته في الناحية الرئيسية، وأسندت إلى نقطة متوسطة مع بندقيتي الرشاشة والرجال الذين يعنون بها. وكان على كاميلو و«أميغراس» أن يتقدما بين مركزي ومركز راوول في الواقع بيد أنهما انحرفا في اتجاه مغاير بتأثير الظلام الدامس.

وحيثما وقع الاشتباك وجد أنهما إلى يساري بدلا من أن يكونا إلى يميني. . أما زمرة (كرستيو) فكانت مهمتها احتلال الطريق الذي يتجه عند مخرج (الأوفيرو) إلى (تشيقيريكو) ومنع وصول أى مساعدات غذائية أو تسليحية أو خططية إلى الثكنة.

وكنا نظن أن العملية سوف تتم في لحظة خاطفة من الوقت ربما لا تذكر نظرا لعنصر المفاجأة ورغم ذلك مضت الدقائق وتبين أن وجود الرجال في أماكنهم أصعب مما كان متوقعا وفقا لتقارير المرشد «كالديرو» ومرشد آخر معه من المنطقة هو «أليخو مندوسا» وكان النهار قد بدأ يقترب طلوعه وأشرق هذا الشعاع الغامض الذي يسبق ميلاد الفجر ولم نكن دائما في مكان يساعدنا على إطلاق مفاجأة للحرس كما ورد في أذهاننا في اللحظة الأولى. . وأخبرنا «خورخي سوتوس» أنه لا يستطيع من موقعه قهر النقطة التي عهد بها إليه» ولكن لم يبق هناك وقت لإعادة تحريك قواتنا. .

وحيثما فتح فيدل النار ببندقيته ذات المنظار التلسكوبي فاكشفنا الثكنة على ضوء الطلقات النارية. . بدورنا قمنا بواجبنا في الحال تقريبا، وكنت شخصا متخذًا من تل صغير مركزاً لي حيث كنت أشرف من خلاله إشرافا تاما على الثكنة التي كنت مع ذلك بعيدا عنها مسافة كبيرة وتقدمنا للأمام طمعا في السيطرة على مراكز أفضل.

وتقدم الجميع. تقدم «أليدا» صوب النقطة التى تحمى مدخل الثكنة الصغيرة من جانبها - إلى يسارى شاهدت قبة «كاميلو» تتدلى منها على رقبتها قطعة من القماش تشبه قعة «الفرقة الأجنبية» وإن كانت تحمل رموز (الحركة) ومضينا نتقدم ناحية الأمام رغم إطلاق النار من حولنا.

وانضم إلى الفرقة الصغيرة بعض الجنود الذين فقدوا سبل الوصول إلى وحداتهم فانضم إلى مجموعتنا رفيق يدعى «بومبا» والرفيقان «ماريو ليال» و«أكوبينا» وأضحت على الفور وحدة صغيرة من وحدات القتال، وبلغنا المنطقة المسطحة والمجردة التى يستحيل فيها التقدم وإن اتخذنا ألف احتياط حيث إن نيران العدو كانت مستمرة ومتواصلة ولم تتوقف على الدوام.

ومن موقعى على بعد حوالى ٥٠ أو ٦٠ مترا من نقطة العدو المتقدم رأيت جنديين يخرجان معا من خندق محفور أمام النقطة ويجريان بأقصى ما يستطيعون من سرعة فأطلقت عليهما النار بيد أنهما احتميا ببيوت القرية الصغيرة التى كانت محرمة علينا.

وتقدمنا أيضا. . ولم يبق أمامنا إلا قطعة أرض صغيرة قاحلة ليس فيها أية أعشاب يختبأ وراءها. . والرصاص يتساقط من حولنا بشكل عشوائى خطير. . فى تلك اللحظات المثيرة ترمى لأسماعنا أصوات مختلطة بين الأنين والصرخات وظننت فى البدء أنها تنبعث من قلب جندى جريح ينزف دما فتقدمت منه زحفا لكى أجبره على الاستسلام ولكن كان الرجل فى واقع الحال رفيقنا «ليال» وقد شاهدت الدماء تنزف من رأسه، وعلى الفور تفحصت رأسه فحصى دقيقا للغاية وبسرعة فائقة أيضا اكتشفت أن الرصاصة اخترقت عظام الجمجمة من جانب وخرجت من الجانب الآخر ولاحظت أن «ليال» بدأ يفقد وعيه فيما كانت أعضاء جانب من جسده بدأت تصاب بالشلل شيئا فشيئا وكان بحورتى رباطات ورقية

وضعتها على جروحه وراح «خويل إيجليسياس» يتحمل بمفرده مهمة العودة بالرفيق الجريح (ليال) ثم واصلنا نحن هجومنا وبعد قليل سقط الرفيق «أكيونا» جريحا أيضا ودون أن نتقدم خطوة أخرى بدأنا نطلق النيران على أحد الخنادق التي أجاد العدو تشييدها ومن ثم كان من بداخله يحسن تصويب نيرانه نحونا الأمر الذى دفعنا لإنهاء وتدمير هذا الخندق الخطير، وكنا نستجمع قوانا ونوحد شجاعتنا لهذا الهدف حتى نستطيع السيطرة على الثكنة رغم أننى رويت حكاية المعركة فى ثلاث دقائق فقط فالمعركة استغرقت فى أرض الميدان نحو ساعتين وحوالى خمس وأربعين دقيقة منذ بدء إطلاق أول رصاصة حتى لحظة سيطرتنا الكاملة على الثكنة.

كان بجوارى من جهة اليسار رفيقان أو ربما ثلاثة من رجال المقدمة ومنهم (فيكتور مورا) على ما أعتقد يتفرغون لمحاصرة الجنود الذين رفضوا الاستسلام طواعية. . وفى الخندق الذى كان قد غطته جذوع الشجر وأماننا خرج أحد الجنود وراح يلقي بسلاحه لنا ومن جميع الجهات بدأت تتعالى صيحات الخنوع والاستسلام وعلى الفور اقتحمنا الثكنة التى صدرت عنها آخر أعيرة نارية وفى أثناء تلك اللحظة حصدت إحدى هذه الرصاصات رفيقنا الملازم (دياس) عدنا إلى القرية الصغيرة المجاورة بصحبة أربعة من أسرى العدو وكان بينهم طبيب شاحب اللون هادئ الطباع، لا أدري هل انضم بعد ذلك إلى الثورة أم لا؟ وقد تبادلت معه أطراف الحديث حول سنة تخرجه وهل التحق بالعمل الطبى الميدانى أم لا وأدركت خلال أجوبته أنه لم يكن قد تفرغ بعد للعمل الطبى ومن ثم فهو على وشك أن يفقد ما لديه من حصيلة معلوماتية تتعلق بالطب وأشهد أنه نصحنى بالآأ أهمل هذا الأمر وإلا سوف أنسى كل ما درسته فى كلية الطب وأتوقع أنه كان صادقا فى نصيحته لأننى كنت أشعر بأننى على وشك ذلك فعلاً لولا بعض مساهمتى فى تضييد جراح جنودنا المصابين.

كانت المعركة من أشرس المعارك التي خضناها وأكثرها نزيفا في الدماء والأرواح والرصاصات التي أمطرنا بها العدو أمطرناه أيضا بغيرها وحجم النيران المتبادلة والجرحى الذين سقطوا والأسرى الذين تقيدوا بسلاسلنا وأغلالنا . . . لقد اشتعلت أرض الميدان عقب إطلاق فيدل أمر البدء وبدأت المقاومة العنيفة من كلا الفريقين وكان من العسير الوصول إلى أهدافنا ببساطة وسهولة حيث كان الأمر يستدعى بذل مزيد من الجهد والعرق بعد مرور عدة دقائق سقط «خولينو دياس» بجوار (فيدل) من جراء رصاصة استقرت في رأسه وحاول رفيقنا (أليدا) فتح عمرات لكى نخترق الثكنة مهما كلفنا الأمر فيما كانت قوات (راوول) لا تكف عن دك الثكنة برصاصاتها التي انهمرت على العدو دون توقف أو انقطاع .

أذكر أن الرفقاء روى بعضهم لنا كيف أخذ (أليوخيو مندوسا) بندقيته وألقى بنفسه فى أتون المعركة وكان رجلا مثيراً للدهشة حيث يؤمن بالخرافات ويحرص على أن يحمل معه (صورة مقدسة) لحمايته وحينما كان الرفاق يحذرونه من مغبة تصرفاته الطائشة كان يجيب فى إباء وشمم أن قديسه يتولى حمايته من أى سوء وبعد دقيقتين أو ثلاثة سقط صريعا برصاصة اخترقت صدره ومن جانبها أجادت قوات العدو الرد علينا من خلال حصونها القوية ولم يكن فى حسابنا اختراق الثكنة من المنطقة الوسطى وفى قطاع طريق «بيلاديرو» حاول «خورخى سوتوس» أن يدعم الموقف من الجناح مع رقيب يدعى «لوفليك» وقد سقط (لوفليك) برصاص العدو فى الحال، أما سوتوس فقد ألقى بنفسه فى البحر لعله بذلك ينجو من ضربات العدو العنيفة وكانت هذه اللحظة هى آخر مشاركة له فى ميدان المعركة .

وحاول أعضاء آخرون فى فرقته أن يتقدموا للأمام ولكن سرعان ما أرغمتهم النيران على التراجع والانكماش، وفى أثناء هذه المحاولة سقط أحد الرفقاء صريعا وكاد من أبناء الفلاحين ويدعى «فيجا» على ما أتذكر أما مانالس فقد اخترقت

رصاصة رثته فى حين أصيب (كويكى أسكالونا) بنحو ثلاثة جروح أحدهما فى ذراعه وثنائيهما فى أليته وثنائيهما فى يده فيما كان يحاول أن يتقدم للأمام.

وكان عند نقطة العدو الحصينة وراء حطام من الخشب يسترها ويحميها حماية مؤثرة بندقية رشاشة وبنادق نصف أتوماتيكية ومن ثم أرعت خسائر كثيرة فى صفوف رجالنا.

وعلى إثر تلك الخسائر أصدر (أليدا) أوامره بشن هجوم عنيف على الأعداء وأدى ذلك إلى إصابة «سيروس ماسيوا» و(هرمس لايفسا) و(ينيا) بجروح كما أن أليدا نفسه قد تعرض لإصابة فى كتفه الأيسر وساقه اليسرى وقتل الرفيق «مول» ورغم هذا كله فقد استطاع هذا الهجوم أن يجعلنا نسيطر على النقطة واخترق طريق جديد للوصول من خلاله إلى الثكنة. . من ناحية أخرى كانت طلقات رشاش «جيرمو جارسيا» الصائبة والفائقة قد أسقطت نحو ثلاثة من المدافعين فيما كان الرابع راح يجرى بسرعة فسقط صريعا أثناء هروبه.

وراح راوول يتقدم جنوده الذين انقسموا إلى قسمين نحو الثكنة وكان أداء الكابتن (جيرمو جارسيا) «وأليدا» هو الذى قرر مستقبل ونهاية المعركة حيث كان الرجلان قد أنجزا المهام الموكولة إليهما على جناح السرعة الأمر الذى أدى إلى تسهيل مهمة الهجوم النهائى، وجدير بالذكر موقف (لويس كرسبو) الذى جاء من رابية هيئة الأركان لينخرط فى صفوف رجال «جيرمو» ويشارك فى الهجوم.

وفى الوقت الذى تكسرت وتهشمت وتبعثرت فيه قوات مقاومة العدو وتأهبنا للسيطرة على الثكنة التى ظهر منها منديل أبيض يرفرف عاليا انطلقت رصاصة من صفوفنا فقبولت بعاصفة من نيران العدو وعلى إثر ذلك تعرض «نانودياس» لطلق نارى فى رأسه بعد أن حصد ببندقيته أعداداً هائلة من رجال العدو ولم يشترك «كرستيتو» فى القتال حيث أصيبت بندقيته بعطب واضطر إزاء ذلك إلى القيام برصد طريق «تشيفريكو» لكى يمسك بالعديد من جنود العدو الفارين من الميدان.

والواقع أنه رغم أن المعركة استمرت نحو ساعتين وخمس وأربعين دقيقة لكنها لم تحصد بشظاياها أى مدنى على الإطلاق امتثالا لأوامر فيدل كاسترو المشددة..

وحين تفرغنا لحصد ثمار المعركة وجدنا أن نحو ستة من الرفقاء قتلوا فى الساحة وهم: مول، وفيجا، ولوفليك، وخوليتو دياس، وأليخيو مندوسا، نانودياس، فيما قد تعرض ليل، وستيبروس لإصابات بالغة الخطورة فضلا عن جرحى آخرين كانت درجات الإصابة لديهم متفاوتة بين البسيطة والخرجة وهم ماسيو الذى تعرض لطلق نارى فى كفه وهرمس ليفا الذى جرح برصاصة اخترقت جلد صدره وأصيب ألميدا فى ساقه وذراعه وكويكى أسكالونا فى ذراعه اليمنى وساقه اليمنى ومانالس فى رثته وكانت إصابته بسيطة فيما تعرض، نينا لطلق نارى فى ركبته ومانويل أكوينا فى ذراعه اليمنى وأصبح مجموع الرفقاء الذين أصبحوا خارج ساحة القتال ينزفون الدماء حوالى ١٥ رفيقا. أما العدو فقد سقط له ١٤ قتيلًا و١٤ أسيرا و١٩ مصابا وهروب ٩ ومن ثم كان مجموع ذلك حوالى ٥٣ رجلا وكانوا تحت قيادة ملازم ثان تولى عملية رفع العلم الأبيض بعد أن سقط جريحا.

وإذا افترضنا أننا كنا حوالى ٨٠ مقاتلاً وأن الأعداء كانوا ٥٣ جنديا فالمجموع ١٣٣ رجلا أصبح منهم خارج المعركة ٣٨ رجلا أى أكثر من الربع تقريبا وقد استمرت المعركة نحو ساعتين ونصف الساعة بل أكثر من ذلك بقليل.. وقد شن هذا الهجوم رجال تقدموا بصورة جلية ضد رجال آخرين يدافعون دون أية إمكانيات وقائية وينبغى أن نعترف أن كلا الجانبين أظهر شجاعة رائعة.. لكن بالنسبة لنا فقد توج هذا الانتصار عصابتنا بأنها استوت ونضجت وترعرعت ورفع معنوياتها عاليا ومن ثم عقدنا العزم بعدها على الانتصار دائما، ورغم أن الأشهر التالية أظهرت لنا تجارب عيفة فقد أصبحنا نملك سر الانتصار على العدو وقد دقت تلك المعركة ناقوس الخطر لثكنات العدو الصغيرة التى تبعد عن المدن الكبرى ومن ثم سرعان ما أخلى العدو فى فترة زمنية العديد من تلك الثكنات إيثاراً للسلامة.

وقد أبادت إحدى الطلقات جهاز الهاتف الأمر الذى أدى إلى انقطاع الاتصال مع (سانتياجو) ولم تكن طائرة واحدة تحلق إلا وتخفى ولا يظهر لها أثر.

على أية حال بدأت فى رعاية الرفيق (سيروس) حيث كانت حالته خطيرة إثر اختراق رصاصة لذرعه اليمنى والرئة لتستقر فى الصمود الفقرى وعلى خلفية هذا الاختراق شلت ساقيه معا وكانت حالته تدعو للرثاء وللعطف واليأس معا ولم أستطع أن أصنع شيئا سوى أن أزوده ببعض المسكنات ولف صدره ببعض الأربطة حتى يتمكن من التنفس بشكل طبيعى ولم نكن على استعداد لحمله معنا إلى جانب الجنود الأسرى فكان يجب أن نتركه فى أيدي جنود العدو هو والرفيق ليال لرعايته طيبا وكانت هذه هى المحاولة الوحيدة لإنقاذه وحينما أبلغت (سبيروس) بما ننوى صنعه أكد أنه فقد الأمل فى العودة للحياة مرة أخرى ولم يبال بتركه بين يدي العدو..

كنت راغباً فى أن أطبع على جبينه قبلة الوداع بيد أن مثل هذا التصرف قد يعنى له حكما بالإعدام والفراق الأبدى ومن ثم وجدتنى أستاذنى للانصراف لكنهما صرخا معا وقد أعلننا أنهما يرغبان فى الموت بين أيادينا وهو أهون من الموت بين يدي العدو ولكننا رفضنا حرصا على حياتهما لعلهما يتمثلان للشفاء وها هو ما حدث على الأقل بالنسبة للرفيق ليال الذى تعافى وأصبح ضمن عداد الأسرى فيما لفظ سيروس أنفاسه الأخيرة بعد وصول قوات العدو..

بعد أن حملنا على إحدى شاحنات آل «بابون» كميات هائلة وضخمة من الحقائب ولاسيما الأدوية كنا آخر من رحل إلى الجبهة مراكزنا الجبلية وقد بلغناها فى الوقت الملائم للعناية بالجرحى ودفن القتلى الذين وارى جثمانهم التراب فى إحدى منحنيات الطريق..

وتوقعنا أن تكون ردود الأفعال الانتقامية من جهة الحكومة بالغة العنف هذه المرة ردا على معركتنا الظافرة.. وكنا قد قررنا أن يبقى الجرحى فى حوزتى على أن

يقف رجالنا الذين خرجوا من المعركة سالمين فى مسافات بعيدة تفصل بينهم وبين الحرس الحكومى، وتلقى (أنريكى لويتى) تكليفا بتدبير وسيلة مناسبة لى للنقل والاختباء كما يدبر لى بعض المساعدات من أجل نقل الجرحى ويؤسس كل الاتصالات التى تسمح بتلقى الأدوية والاهتمام الفائق برفقائنا.

كان الفجر قد اخترق دياجير الظلام ونحن مازلنا نتحدث عن أهوال المعركة وتداعياتها وطار النوم من جفوننا جميعا وكان من بيننا من يقاوم النعاس لكى يستمتع بما لذ وطاب من أشهى الحكايات الرائعة..

ولأننى أتمتع عن غيرى بفضول إحصائى قمت على الفور بتدوين وتسجيل جميع جنود العدو الذين قتلوا على يد رجالنا فإذا بعدد هؤلاء القتلى المزعومين يفوق عدد المقاتلين الأعداء فى الشكنة لقد صاغ كل متحدث أعماله وبطولاته وفقا لأمانيه وأحلامه وخيالاته وتبين لنا بوضوح فى تلك المناسبة وفى مناسبات أخرى مشابهة أن كل عمل ينبغى لكى يتم الاعتراف به أن يقره ويباركه ويؤيده، أكثر من شاهد بل طلبنا أدلة على مصرع كل جندى قبل أن نعتبره بالفعل فى صفوف ضحايا العدو.

والواقع أن الحرص على المعلومات الدقيقة كان دائما أمرا بالغ الأهمية لعصابتنا وكان يجب بكل ثمن الإيحاء إلى الرفقاء بضرورة احترام الحقيقة احتراما بالغاً ودفعهم لإدراك أهمية تقديمها على أى اعتبار شخصى.

وفى الصباح شهدنا رحيل قواتنا المنتصرة القاهرة للعدو وقد ودعنا توديعا مشوبا بالحزن والأسى وظل معى مساعدى «خويل» وأويناتى ورجل يدعى (سبينسيو تورس) (وفيلوا كوين) الذى حرص على أن يبقى معنا للمداوة ومرافقة عمه المصاب.

جيش الجرحى الصغير

فى اليوم التالى من معركة «الأوفىرو» حلقت طائرات العدو منذ ساعات الفجر الأولى فى سماء المنطقة وكنا بعد أن فرغنا من توديع الطابور الذى واصل سيره قد انكبنا على إزالة أى أثر لدخولنا فى أرض المقاومة واحتشد رجالنا على بعد بضعة مئات من الأمتار لا أكثر، من بين إحدى الطرق السالكة ننتظر قدوم «أنريكى لوبيتر» الذى كان قد حمل على كاهله تدبير ملجأ لنا ونقل الجرحى إليه .

ومن بين الجرحى كان «الميدا» و«ميننا» غير قادرين على الترحل ولم يكن (كويكى أسكالونا) أكثر حيوية ونشاطا وكان (مانالس) محظورا عليه الترحل بسبب إصابة رتته بجرح بالغ إثر اختراق إحدى الرصاصات وكان (مانويل أكوينا) (وهرمس ليفا) و(ماسيو) بمفردهم يستطيعون الترحل بأدواتهم الخاصة بهم . . ومن أجل الدفاع عن تلك المجموعة الصغيرة من المعاقين كان هناك بجوارى «فيلوا كويننا، وسينييو تورس» وخويل إيجليسيا (والىخاندرو أويناتى) وبعد أن أقبلت تبشائر الصباح جاء أحدهم يخبرنا أن (أنريكى لوبيز) قد لا يمكنه دعمنا حيث إن أحد أبنائه اجتاحتته نوبة مرضية مباغطة فاضطر للذهاب إلى سانتياجو وقد بذل جهده لكى يبعث لنا متطوعين لمساعدتنا ولكننا حتى هذه اللحظة كنا ننتظر وصول هؤلاء المتطوعين الجدد .

وكنا - للإنصاف - فى موقف بالغ السوء إذ أن جراح كويكى أسكالونا قد بدت تفوح منها رائحة عفنة وكان من المتعذر علينا تقدير درجة خطورة جراح «هانالس» تقديرا دقيقا وكنا نغامر فى الترحل على الطرقات دون أن نقف وجه لوجه مع قوات العدو . . ومن ثم قررنا أن ننقل الجرحى إلى كوخ يقع على بعد ٣ أو ٤ كيلو مترات من المكان وهو كوخ هجره صاحبه ولكن فيه عددا كبيرا من الدجاج .

وفى اليوم الأول من هذه الأيام قدم لنا عاملان من عمال المنشرات بعض المساعدات فلم يكن من السهل نقل الجرحى فى أرجوحاتهم ..

وفى الصباح الباكر بعد أن التهمنا بعض الدجاجات تركنا المكان على الفور وقد تأخرنا كثيرا عن الطرق التى من الممكن أن يجوبها العدو بحثا عنا وكنا فى آخر إحدى هذه الطرقات التى شيدتها شركة (آل بابون) لاستثمار الغابات وأرسلنا بعض رجالنا الأشداء الأكفاء حملة تتسم بالخطورة والصعوبة وهى تتطلب منهم الهبوط على شاطئ الجدول الصغير، (دل أنديو) ثم يصعدوا بعدها فى عمر ضيق حتى يبلغوا كوخا مغطى بورق الشجر إذ يقيم فلاح اسمه «إسرائيل» مع زوجته وعديله ولقد كان الأمر بالغ الصعوبة بالفعل حيث إن عملية نقل رفقاتنا الجرحى فى قطاع منحدر كهذا القطاع وكلنا نجحنا فى ذلك أخيرا.

وقدم لنا الفلاحون حتى أسرتهن الزوجية لكى ينام عليها الجرحى وخبأنا حيث أقمنا مخيمنا الأول عدداً من الأسلحة التى أضحت فى حالة شديدة السوء ومن ثم عجزنا عن أن نحملها معنا كما أننا تركنا العديد من الأغراض والأدوات من الغنائم فى عرض الطريق كلما شعرنا بثقل وزن الجرحى.

كنا فى تلك الأثناء نتصف بالغباء حيث إن هذه الأشياء التى تركناها على الطريق ترشد العدو لطريقنا ومركزنا ومن ثم بعد أن فطنت لهذه الجريمة الغبية عدت أدراجى برفقة بعض الرجال لتحرق الطريق والتخلص من الأشياء التى من الممكن أن تتحول إلى مخبر أو مرشد يقود العدو لطريقنا وذلك إثارا للسلامة وحرصا على أرواحنا بعد قليل أئذنا أكوينا (وخويل إيجليسياس) بأنهما قد سمعا أصواتا غير معروفة صادرة من الجهة الأخرى وظننا أن الساعة قد أوشكت للقتال دفاعا عن أنفسنا حتى الرمح الأخير، كما يفرض علينا الواجب. عن الجرحى الأعزاء الذين تحملنا مسئولية سلامتهم أو مضيئنا فى طريقنا كى يقع الاشتباك أبعد ما يكون عن

الكوخ، وفي المرر شاهدنا آثار أقدام حافية (وكان هذا مشيراً للغربة) تدل على أن أصحابها قد اجتازوا الطريق من هناك واقتربنا ونحن على حذرنا الشديد ونجحنا في التنصت على حوار يدور حول الموضة وأعددت بسنديتى وتقدمت نحو الذين يتحاورون معتمداً على تغطية (فيلو) و«خويل» فإذا بهم أسرى الأوفيرو الذين أطلق فيدل سراحهم وكانوا على إثر ذلك يدورون فى حلقة مفرغة فى محاولة للخروج من القطاع دون أن يتمكنوا من ذلك، كان بعضهم يترجل حافى القدمين وأعرب (عريف) مسن بصوت متحشرج بفعل الربو عن امتنانه وإعجابه بأدائنا وبمعرفتنا الدقيقة للبرية.

كان هؤلاء الأسرى يسرون بغير هدى وكل ما كان فى حوزتهم كان تصريح مرور موقع بتوقيع (فidel كاسترو) وانتهزنا الفرصة التى أتاحها لنا الموقف ونصحناهم ألا يتوغلوا أكثر من ذلك حتى لا يضلوا الطريق وكنا نعرف أنهم لا يتحملون صعب الجبال بوصفهم من أبناء المدن ومن ثم أرشدناهم إلى الطريق لكى يصلوا إلى الشاطئ دون أن نغفل عن أن نكشف لهم للمرة الثانية أننا من البرية البعيدة ورغم ذلك نشعر كأننا هنا فى أرضنا وبيتنا (وأن دوريتنا) مكلفة بإبلاغ قواتنا حال العثور على أى غريب وبعد أن أبلغناهم بذلك رأينا من الأهمية بمكان أن نغادر المكان على جناح السرعة دون إبطاء.

قضينا تلك الليلة فى الكوخ المضيف ولكن حين تسلفت خيوط الفجر عدنا مرة أخرى إلى البرية راجين أصحاب البيت أن يذهبوا ويأتون ببعض الدجاجات للجرحى، وقضينا أغلب النهار نتظر عودة الزوجين دون نتيجة ولهذا علمنا أنهما اختفيا فى حظيرة الدجاج، وأن جنود الأعداء - فضلاً عن ذلك - فى اليوم التالى لذهابنا قاموا بالقبض عليهما بوصفهما مرشدين بعد أن اجتازوا المكان الذى كنا نقيم فيه مخيمنا فى الليلة السابقة.

وبلغنا فى ذروة اليقظة انتظارا لما هو آت وبدا لنا أن حدوث هجوم مفاجئ أمر مستحيل، لكن عند وقوع مثل هذا الهجوم فنتيجة المعركة التى ستندلع فى مثل تلك الأحوال لم تكن تحتل الشك وعند الغسق عاد (سينيسيو) يصطحبه ثلاثة متطوعين منهم: كهل يدعى فيلسيانو وآخران انضمّا فيما بعد إلى صفوف الجيش الثائر، أحدهما «بانديراس» (وقد قتل وهو على درجة ملازم فى معركة نيجوى) والثانى كان يدعى «إسرائيل ياردو» (وهو الابن الأكبر لعائلة كبيرة من المقاتلين وهو الآن بدرجة كابتن) وقد ساعدنا هؤلاء الرفقاء فى عمليات نقل الجرحى إلى أحد الأكواخ الذى يقع إلى الجانب الآخر من المنطقة الخطيرة ثم بقينا أنا وسينيسيو حتى مجئ الظلام نتظر وصول الزوجين مع الأطعمة ولم يكن بمقدورهما العودة إلينا لأنهما كانا قد أصبحا فى عداد الأسرى).

وخوفا من حدوث خيانة جديدة قررنا على الفور إخلاء المكان فى الغد الباكر.. وتناولنا عشاء خفيفا كنا قد صنعناه من بعض المؤن التى عثرنا عليها فى جوار الكوخ.. وفى اليوم التالى وهو بداية الشهر السادس بعد أن نزلنا على الشاطئ من (الجرانما) مضينا نترجل بعد أن أشرقت الشمس وكان السير شاقا وقصيرا للغاية بالنسبة لمن اعتاد على اجتياز مسافات فى الجبل.. وفى الجبل التقدم يصيب بالإرهاق الشديد فضلا عن مسئولية حمل الجرحى فى أرجوحة مربوطة بأحد الأغصان وهو يحز أكتاف الذين حملوا وقد كانوا جميعا لا يقدرّون على السير أكثر من عشر دقائق.

ورافقنا ألميدا الذى كان تارة يتمهل وتارة يتوكأ على ذراع أحدنا ومن ثم تجاوزنا عدة كيلو مترات ثم سرعان ما شق لنا «إسرائيل» طريقا فى الغابة وأقبل الحمالون يهتمون برفيقنا.

بعد ذلك أمطرت علينا السماء الأمر الذى حال دون وصولنا إلى منزل (آل ياردو) وإن كنا قد وصلنا إليه عقب توقف المطر وكان ذلك عندما بدأ الظلام يجتاح

الوجود صحيح أننا قطعنا نحو اثنتى عشرة ساعة كاملة من أجل أربعة كيلو مترات فقط لكننا وصلنا فى نهاية المطاف .

وخلال هذه المرحلة كان (سينيسيو) مبعوث العناية الإلهية لإنقاذنا إذ كان يعرف الناس والطريق ، وقد أسدى لنا خدمات جلية فى كل لحظة إذ وهو الذى كان له الفضل فى أن نبعث «مانالس» إلى «سانتياجو» وكان ينبغى أيضا تنظيم إرسال «كويكى أسكالونا» الذى كانت حالته قد ساءت إلى حد خطير . كانت تلك الأيام مليئة بالأخبار المتناقضة فقد وقعت سيليا فى شباك الأسر أو ربما هى قتلت وراجت شائعات أخرى كشائعة اعتقال فصيلة من الجيش رفيقنا «هرمس كالديرو» فهل يجب علينا أن نثق أو ألا نثق بهذه الشائعات التى تحمل النذر؟ لقد كانت سيليا مثلاً أداة اتصالنا الوحيد الذى نوليه كل ما لدينا من ثقة حيث إن اعتقالها يعز علينا ولحسن الطالع أن كافة الأخبار التى كانت ترد عنها لم تكن على أساس سليم بل كانت عارية من الصحة لكن خبر رفيقنا (هرمس) كان صحيحا وسوف تكون معجزة أن يخرج هذا الرفيق حيا من سرايب الظلم .

وعلى ضفاف نهر «بيلا ديرو» كان يعيش مدير عامل لمصلحة أحد أصحاب المزارع وكان يدعى (دافيد) وهذا الرجل كان قد ساعدنا كثيرا حتى أنه قد قام بذبح بقرة من أجلنا وأسرعت بدورى أبعث الرفاق واحداً بعد الآخر لكى يحملوا اللحم الذى استخلصه الرجل ونجح جنودنا فى تنفيذ المهام الموكولة إليهم باستثناء (بانديراس) الذى كان يتصف بالبلادة واللامبالاة كعاداته حتى كاد ينكشف أمره ويفضح وجودنا وهو ما دفعنى لنصحه بضرورة أن يكون نصيرا عاديا للثورة دون أن يتحمل مهامها قد تعرقل طريقنا كان هو بسيطا يتصف بالسذاجة ومقداما ذا عقل راجح وشجاعا وصاحب أفق واسع . وكان له ولدان وزوجة ويهتم بزراعة الأراضى واستصلاحها بيد أنه قد سئم تلك الحياة وطاق إلى الخلاص منها والترحال وإلى

عالم أرحب من أجل أن يحصل على أجر يواجه به أعباء الحياة والبحث عن ولديه
الذين تركا البيت منذ سنوات هربا من الفقر وشقاء الزراعة .

أما دافيد فقد كان نموذجاً صادق الولاء فهو مدير نموذجي يتسم بالولاء لسيده
مؤمناً بالعنصرية وقد اعتقله الجيش حينما تسربت أنباء علاقته بنا وتعرض لعمليات
تعذيب دموية بشعة ورهيبة وكان همه الأول عندما أفرجوا عنه أن يؤكد لنا أنه لم
يدل بأى سر من أسرارنا أبداً وأنا لا أعلم هل مازال ديفيد فى كوبا أم أنه مازال
يعمل ضمن أسياده الذين جردتهم الثورة من أملاكهم ونفوذهم . . لقد كان يتمنى
أن تتغير أحوال البلاد لكنه أدرك كم هو يحتاج إلى جهد وشقاء هذا الذى يتطلع
إليه .

إن ثورتنا قد صنعها رجال أفذاذ مثل دافيد وبانديراس هؤلاء الذين سقطوا من
أجل أن ينبلج فجر الحرية وتولد خيوط الصباح الجديد وتشرق شمس الكرامة على
الكوبيين جميعاً . . علينا إذن نحن صناع الثورة أن نتذكر دوما هؤلاء الذين قدموا
أعلى التضحيات فداء لهذه الأمة .

* * * *

الفصل العاشر

ليديا

«ولا أزال أذكر أقوال أحد هؤلاء وقد اختلط فيها
المدح بالقدح حيث قال «إن هذه السيدة معها أكثر
من ماسيو ولكن ينبغي أن يكون المرء مجنوناً حتى
يفعل ما تفعله فكأنها تتسلى».

الفصل العاشر

ليديا

عندما وقعت عيني للمرة الأولى على ليديا لم يكن قد مر على غمر الثورة أكثر من ستة أشهر وكنت في ذلك الوقت توليت مهام قائد الطابور الرابع. وقد عرفت ليديا خلال نزول فرقتنا من الجبل بشكل سريع من أجل الحصول على الإمدادات التموينية.

في ذلك اليوم وقع اختيارنا على قرية «سان يابلودي ياو» الصغيرة القريبة من (بايامو) على جبال سيرا مايسترا» وكان أحد المنازل الواقعة في أول البلدة يخص أسرة معروفة من الخبازين وكانت ليديا بالطبع من أعضاء تلك الأسرة ومنذ اللحظة الأولى نذرت هذه المرأة نفسها قلباً وقلباً هي وابنها للثورة بحماس ووطنية كانت متأججة بداخلها حتى أنك لا تكاد تصدق أن هذه المرأة الثورية المندفعة ابنة الخمسة والأربعين عاماً..

كانت هذه السيدة العظيمة توحى إلى بأشياء عظيمة ورائعة خاصة إذا ما ذكرت اسمها ذات مرة وكانت هي في واقع الأمر شديدة الارتباط بى بشكل خاص وترغب في أن تعمل تحت قيادتي مهما كانت نوعية المهام المكلفة بها وصعابها ومتاعبها.

والواقع أنني لا أستطيع أن أرصد كم عدد المرات التي تدخلت فيها ليديا على اعتبار أنها رسول خاصة أو رسول الحركة فمن (سانياجو كوبا) إلى (لاهافانا) كانت تتولى نقل أهم الأوراق وجميع المذكرات التي تخص فرقتنا ومخابراتها وهي كانت أوراق تتصف بالأهمية القصوى والخطورة الشديدة فضلاً عن أننا كنا نوكل إليها مهام توزيع جريدة «الكويي الحر» وغير ذلك.

وكانت تأتي بالأدوية والورق وبكل ما كنا نتطلع إليه إذا دعت الضرورة وكانت شجاعتها تفوق حدود الغير حتى كان هؤلاء الغير يتجنبون مرافقتها ولا أزال أذكر أقوال أحد هؤلاء وقد اختلط فيها المدح بالقدح حيث قال «إن هذه السيدة معها أكثر من (ماسيو) ولكن ينبغي أن يكون المرء مجنوناً حتى يفعل ما تفعله فكأنها تتسلى» كل هذا وليديا رابطة الجأش تواصل مهام عملها وتذهب وتعود من خلال خطوط العدو ومسالكه مرات عديدة ونقلت إلى منطقة «لامينادل تربو» فى «لاس فيجاس خيباكاو».

وكان هذا كافياً لكى تقرر مغادرة المعسكر الإضافى الذى كانت تقوده فترة من الزمن والرجال الذين تقسو عليهم. بل بشكل لا أغالى إذا قلت إنه كان يشبه الطغيان) وهو ما كان يتعارض مع طبائع الكوبيين الذين كانوا لا يميلون إلى الجنوح تحت سلطة أية امرأة . . وكانت هذه النقطة هى أكثر النقاط تقدماً وتقع فى مكان يسمى «لاكويفا» (المغارة) بين «ياو» و«بايامو» ومن ثم وجدتنى أسحب منها قيادتها حيث كان الموقع معرضاً للخطر للغاية والحقيقة أنه عندما شوهدت ليديا اضطرت فى مرات عدة لإتاحة الفرصة لها للخروج من المكان أن يفتحوا لها طريقاً من خلال أعقاب البنادق وكم حاولت وبذلت قصارى جهدى مع ليديا لكى أسحبها من هذا المكان بيد أنها أبت وأصرت على إقتفاء أثرى فى جبهة القتال وإنى أذكر حادثة تكشف ما طبعت عليه ليديا من خلق وكان ذلك يوم أن مات أحد أبرز رجالنا الثوار (ولم يكن قد نبت لحيته) ويدعى خيلين وأصله من كارديناس وكان قد انضم إلى نقطتنا المتقدمة فى المرحلة التى كانت ليديا موجودة فيها .

وحين كانت فى طريقها إليه عائدة من مهمة رأت بعينيها جنود الحرس الحكومى يترجلون بخطى حذرة وبطيئة ناحية النقطة يحذر الذئاب فى أعقاب وشاية من بعض الجواسيس بكل تأكيد، وكان رد الفعل لدى ليديا عاجلاً وفورياً ومن ثم أشهرت

مسدسها الصغير عيار ٣٢ لتلوح لنا بالإنداز وذلك بإطلاق عيارين نارين فى الهواء بيد أن أيدى الأصدقاء قد منعتهما فى الوقت المناسب حيث أن هذا التصرف كان جديرا بتصفية حياتهم جميعا . . وواصل الجنود تقدمهم ووصلوا فجأة إلى مكان حارس المعسكر، وراح (جبر موخيلين) يدافع عن نفسه بشجاعة ثم سرعان ما تعرض للإصابة ولو كان يدرى أنه سيقع أسيرا بين يدى الحرس الحكومى لكان قد أطلق النار على نفسه . . والتقيت بليديا فى اليوم التالى فكان يمكن أن يقرأ المرء على وجهها الألم العميق لموت مقاتل جسور وأشد السخط على من منعها من إطلاق النار لإنذارنا وصاحت تقول «لقد كان يمكن أن يقتلوني ولكن كان ممكنا انقاذ حياة الشاب الجسور فأنا أصبحت عجوزا أما هو فقد كان فى ريعان الشباب فهو ابن العشرين ربيعا» وكان حديثها يتعلق بتلك المسألة ولذلك بدا عليها استخفافها بالموت ولا أدري أكان زهدا أم كانت شجاعة وجسارة أم كليهما معا؟

كانت ليديا تعرف أننى محبا لاقتناء الكلاب فكانت تعدنى كلما رأتنى أن تحضر لى كلبا من (هافانا) وكان هذا وعدا يتعذر عليها تطبيقه عمليا ومع ذلك فقد أوفت بوعدها فى فترة الهجوم الكبير وكانت تذهب وتعود بين جبال السيرا مايسترا والسهل تأخذ وثائق سرية وتعود بأوراق خطيرة ذات أهمية وكانت هى وسيلة الاتصال الآمنة لنا بالعالم الخارجى كانت تعمل وتناضل دائما برفقة مقاتلة أخرى من طبيعتها لا أذكر اليوم سوى اسمها وكان جميع الرفقاء يذكرون اسمها ويحملون لها فى قلوبهم محبة واحتراما وتقديرا عميقا . . إنها «كلو دو ميرا» وأمست «ليديا» و«كلودوميرا» لا ينفصلان فى مواجهة الأخطار ولذلك كان يذهبان ويعودان دائما معا من طرف لآخر .

وتلقت ليديا الأمر بأن تتصل بى حال وصولى إلى «لاس فيجاس» بعد الغزو وكان عليها فى واقع الأمر أن توفر سبل الأمان للاتصال مع (هافانا) وأركان الحرب

العامة فى (السيرا مايسترا) وبعد وقت قصير من وصولى دفعت عنى على كلمة صغيرة بخط يدها تعلن لى أنها تمكنت من الحصول على كلب صغير ترغب فى إهدائه لى وأنها سوف تحمله معها فى الرحلة القادمة.

بيد أن ليديا وكلود ميرا لم تقوما بهذه الرحلة القادمة أبدا إذ تسبب ضعف أحد الرجال الذى كان أقل منها من حيث الجسارة والشجاعة وكمقاتل وكثورى وإنسان فقد استطاع جيش باتيستا من أن يكشف مكان فئة من رجالنا الذين كانت ليديا تتردد عليهم بصحبة (كلود ميرا) واستبسل رجالنا فى المقاومة حتى الموت وكانت ليديا قد تعرضت للإصابة فى رأسها فضلا عن وقوعها أسيرة فى شباك العدو حتى لفظت أنفاسها الأخيرة هى ورفيقتها (كلود ميرا) كنموذج يصعب على الوجود أن يأتى بمثله كعشاق للحرية وشهداء فى سبيلها ولا نعرف أين جسد ليديا ورفيقتها وقد نتمكن من العثور فى أحد الأيام على رفاتهما فى أحد الحقول فى تلك المقبرة الكبرى التى كانت فى يوم من الأيام جزيرة كوبا بأسرها.

ورغم ذلك إن هؤلاء الذين قاتلوا فى جيشنا الثائر وضحوا فى الأيام المؤلمة سيحفظون إلى الأبد ذكرى هاتين المرأتين ولا شك أن ليديا تحتل المقام الأول عندنا عند رجال الجبهة رقم واحد وعندى أنا على وجه الخصوص من أجل هذا أمنح هذه الوردة على قبرها المجهول.

* * * *

العودة

تفرغنا طوال شهر يونيو ١٩٥٧ لتضميد جراح رفقاتنا الذين كانوا قد أصيبوا بطلقات نارية خطيرة ومؤثرة أثناء معركة «الأوفرو» ولتنظيم القوة الصغيرة التي ستندمج إلى طابور فيدل لتجعله أكبر وأقوى. كانت الاتصالات التي تجرى مع الجهات الخارجية تتم عبر «دافيد» وقد ساهم هذا الرجل بنصائحه ومعلوماته وتبرعاته الغذائية التي كان يبعثها لنا من أجل مكافحة الجوع وتحسين معيشتنا. وفي تلك الأيام الأولى لم نكن نستطيع الاعتماد على دعم ومساندة «بانتشو تامايو» التي لا تقدر «وقد قتل على أيدي البياتون في السنوات التي أعقبت الحرب» حيث لم يتصل بنا «بانتشو تامايو» وهو فلاح شيخ من فلاحى المنطقة إلا بعد مرور فترة قصيرة، وقد عمل لنا هو أيضا كأداة اتصال.

وراح (سينيسيو) الذى انحرف عن القيم والمبادئ الثورية ونهب أموال الحركة لكى يتعاطى الخمر بها وقد شوهه كثيرا وهو غارق فى ملذاته حتى الثمالة فضلا عن العبارات الخطيرة والخرجة التي كان يتفوه بها دون أن يتحلى بالحدز ولكن كيف نطلب من الذى يفقد عقله وصوابه أن يتحلى بالحدز؟! ثم إن (سينيسيو) لم يكن ينفذ الأوامر التي يتلقاها وعند عودته مرة من إحدى جولاته جاءنا بأحد عشر رفيقا عزلا من السلاح كليا.

وكانت التعليمات الصارمة تقضى بضرورة رفض تطوع الرجال غير المسلحين ولكن فى عصابتنا الفتية كان الانخراط فى صفوفها يجرى وفقا لحسابات المنطق السليم إذ كان الفلاحون الذين يطلعون على موضع معسكرنا يحضرون إلينا بصحبة الرفقاء الجدد الذين أظهروا رغبتهم فى التطوع والانضمام لحركتنا وكان قد انضم حوالى أربعين رجلاً إلى طابورنا الصغير ولكن من جهة ثانية كم كان هناك فرار

سواء بموافقتنا أو دون رغبتنا حيث كانت قواتنا الصغيرة تضم فى الواقع أكثر من عدد يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ رجلا ثابتا فى أى وقت .

وفى هذه الأيام تصاعدت حدة الربو الذى أشكو منه ولم يكن معى أى مهدئ ومن ثم وجدتنى أشبه بالجرحى ولكى أخفف ثورة الاختناق التى تجتاحنى من حين لآخر بدأت أدخن أوراق الشجر الجافة وهو العلاج الذى كنت أتناوله قسراً فى «السير» على أمل وصول الأدوية المتحضرة . . بعد ذلك أحسست بضغط شديد بغية الرحيل الذى كنا نحاول إرجاءه من يوم لآخر، وأخيرا كلفنا دورية بالذهاب لإحضار جميع الأسلحة التى كنا وضعناها جانباً على أساس انتهاء صلاحيتها بعد الهجوم الحاسم على «الأوفيرو» فمنها سنسلح الرجال، وفى تلك الأحوال كانت جميع هذه البنادق القديمة التى تعطلت ومنها البندقية عيار ٣٠ تمثل ما يمكن أن يتحول إلى كنز ومضى الليل فى إخراج هذه الأسلحة من مخابئها السرية وفى نهاية المطاف حددنا فجر ٢٤ يونيو موعداً للرحيل .

كانت قواتنا تتكون فى ذلك الوقت مما يلى ٥ من الجرحى يتمثلون للشفاء وه من المرافقين و ١٠ من المتطوعين الجدد من (بايامو) ومتطوعين جديدين (يعملان وفقا لأهوائهما) و ٤ رجال من المنطقة وهكذا يصبح المجموع الكلى نحو ٢٦ رجلا وكان «فيلو أكونيا» فى المقدمة يليه «أركان الحرب» التى كنت أتولى إدارتها (وكان أليدا فى الواقع قد شفى من جرحه فى فخذه ولكن الترجل ولو لبضع خطوات كان يترتب عليه آلام مبرحة ومتاعب لا تنتهى) .

وفى المؤخرة فصليتان صغيرتان بأمرة (بينا وماسيو) وتكاثر الحوادث ولم نرحل كما كان محدد فى الرابع والعشرين من يونيو حيث كان يعلن عن وصول أحد الأدلاء برفقته متطوع جديد أو الإعلان عن قدوم وصول كمية جديدة من الأدوية والأطعمة المعلبة التى ينبغى علينا أن نتظر قدومها . ولم ينقطع «تامايو» الفلاح

العجوز عن الذهاب والعودة حاملا معه فى كل مرة الأنباء وعلب الأطعمة الملابس والأوراق. . وفى وقت من الأوقات استدعت الضرورة أن نبث عن مغارة نضع فيها قسما من الأطعمة حيث كانت الاتصالات مع سانتياجو قد استقرت فى نهاية الأمر ونقل إلينا (دافيد) حملا ضخما لم نكن نحلم بنقله معنا بالنظر إلى أحوال وملابس قوتنا المكونة من الجرحى والمتطوعين الجدد خاصة الذين يعملون على هواهم أو وفقا لرغبتهم.

وفى ٢٦ يونيو بدأت أولى أعمالى كطبيب أسنان وينبغى أن أقرها أن المرض الذين ترددوا علىّ لمعالجتهم فى جبل (السيرا مايسترا) أطلقوا على لقب « خالغ الأضراس» البسيط وكان (إسرائيل يادرو) أول ضحية لى وقد قمت بإجراء عملية الخلع وفقا للقواعد تقريبا.

بينما كان «خويل إيجليسيا» هو الضحية الثانية التى ذهبت أمامه كل جهودى أدراج الرياح ولم يعد لدى أى وسيلة أخرى لخلع نابه العنيد إلا بوضع كمية من الديناميت فى الناب لنسفه وفى نهاية الحرب اكتشفت أن أنياب (خويل) مازالت مستقرة ثابتة عنيدة فى مكانها. . لقد كنت أفقد الخبرة وكان ينقصنى البنج الذى كنت أحاول أن أدخره للجراح الخطيرة.

وإن كنت قد استخدمت البنج النفسى فى تهدئة روع مرضاى إذا تعالت صيحاتهم وصراخاتهم وأنينهم أو عند لهفتهم فى الشكوى وحين أعطينا المجموعة إشارة البدء فى الرحيل حتى هدأت ثورة حماس بعض الرجال الذين تركونا وحل مكانهم لحسن الحظ رجال متطوعون جدد إذ أقبل (تامايو) بأربعة من الرجال كان على رأسهم «فيلكس ماندوسا» الذى أتى حاملا بندقية وشرح لنا كيف باغته هو وزميله فصيلة من جيش العدو وقد وقع زميله فى قبضة الأسر وألقى هو بنفسه خلف صخور الشاطئ وأطلق ساقه للريح دون أن يلحظه أحد من أفراد الجيش

وعلمنا بعد ذلك أن الجيش لم يكن سوى دورية يترأسها «لا لوسرديناس». ونتيجة ذلك وجد زميل «فليكس» نفسه فى جيش فيدل . . ثم كان هناك أحد المتطوعين الجدد ويدعى «أيفيليو سابوريت» .

ومع انضمام «فيلكس ماندوسا» وزملائه إلينا أصبح عددنا ٣٦ رجلا على أن ثلاثة تركونا فى اليوم التالى ثم سرعان ما التحق بنا آخرون وأصبح عددنا ٣٥ رجلا . . ولكن عندما بدأ التراجع العدد مرة أخرى وبدأنا فى تسلق جبل «بيلاديرو» على فترات زمنية قصيرة ولقد وضع الراديو أمام أعيننا صورة شاملة للعنف الذى كان قد امتد إلى كوبا من شمالها إلى جنوبها . . وفى أول يوليو تلقينا خبر وفاة «خوسيه ياييس» شقيق «فرانك» وعدد آخر من الرفقاء الذين لقوا جميعا مصرعهم فى المعركة الدائرة التى اندلعت فى «سانتياجو» وبينما كنا نهبط من على رابية «بوتيا» مررنا على منزل «بنيتو مورا» وقد احتفى بنا فى بيته البسيط الذى يبدو وكأنه معلق على إحدى المنحدرات الصخرية فى هذا الجزء من السيرا» وقبل وصولنا إلى المبيت بوقت قصير جمعت الرجال (وكانت المعنويات منخفضة للغاية) وألقيت على مسامعهم كلمة موجزة قلت فيها «إننا سوف نشهد ساعات على قدر كبير وبالغ من الأهمية وأنا نتقدم فى طليعة جيش حقيقى وقد نضطر لأن نتخلى عن الطعام عدة أيام على أن نستمر فى سيرنا أياما متواصلة دون انقطاع فإذا كان فيكم من لا يثق فى صبره وأعصابه وصحته فليخبرنا بذلك من الآن» وكان لدى بعض الرجال قدر كبير من الصراحة والشجاعة فى التعبير عن قلقهم وهواجسهم ومخاوفهم وانصرافهم عنا . . ولكن تشيكو اكتشف كلمات رائعة تعبر فى الواقع عن إرادة فولاذية ليؤكد نيابة عن جماعته أنهم من جانبهم سوف يستمرون معنا حتى آخر رصاصة أو آخر نبضة قلب بيد أن المفاجأة كانت كبيرة بعد مرورنا ببيت «بنيتو مورا» وفى ذلك الوقت الذى كنا ندق فيه أعمدة خيامنا على شاطئ جدول

صغير لكى نستسلم للنوم فى تلك الليلة كم كانت المفاجأة كبيرة للغاية لمشاهدتنا هذه الجماعة نفسها تأتى لتخبرنا أنها توصلت لقرار نهائى لارجعة فيه يقضى بمغادرة الحركة وبالطبع وكما هو مألوف فى مثل هذه المواقف تركناهم يرحلون وعلى سبيل الدعابة أطلقنا على المكان اسم «نهر الموت» لأن الإرادة الفولاذية التى أظهرها لنا (تشيكو) ورفقاؤه نفذ صبرها هنا فى هذا المكان وعلى ضفاف هذا الجدول وفى بداية دخول الظلام على الكون . . ولم يكن لهذا الجدول أى اسم آخر طوال فترة الحرب.

وظللنا نحو ٢٨ رجلا ولكن حين رحلنا فى الصباح الباكر انخرط فى صفوفنا متطوعان جديدان هما «جيليرتو كابوتى» (ونيكولاس) وهما عسكريان فى السابق وجاءا معا إلى السيرا للنضال والكفاح فى سبيل الحرية وقد اصطحبهما «أرستيدس جيرا» أحد الذين يتولون مهام الاتصالات فى المنطقة وقد صار بعد ذلك كنزا حقيقياً لحركتنا وخلعنا عليه لقب «ملك الطعام» ولقد أبلى (ملك الطعام) بلاء حسنا فى كل مراحل الحرب رغم المخاطر التى حاصرتة من كل جانب (ومن بين انجازاته أنه تمكن فى قلب منطقة بايامو من تغيير خط سير قطع من البغال بهدف وصولها إلى قواتنا وهو ما حدث بالفعل).

وفيما كنا نغضى على فترات قصيرة واكتشفنا أنه الوقت الملائم لكى ندرّب المتطوعين الجدد على أصول وقواعد وفنون القتال وأسندنا تلك المهام إلى العسكريين القدامى خاصة الذين كانوا ضمن صفوف جيش العدو لما لديهم من معلومات وبيانات وقدرة على التعليم والتلقين . . لكن لسوء الحظ ما كادت الدروس تبدأ حتى انطلق من أحد المعلمين عيار نارى ومن ثم أعلننا تخلينا عن خدماته وقد أبدينا قدرا لا بأس به من الحذر والحيلة . . ولكن بدت على وجهه ملامح الدهشة والاستغراب إذ أننا لم نتخيل أنها حيلة وخدعة إلا إذا اعتبرنا أن للرجل قدرة هائلة

على المراهنة وأخيرا لم يتمكن العسكريان السابقان من تحمل مشقات السير... فذهبا يرافقهما «أرستيدس» ورغم ذلك فقد عاد إلينا «جيلبرتو من كابوتى».

ومات كالأبطال بل كان بالفعل بطلا وكان آنذاك برتبة ملازم وغادرنا موضع مخيمنا وبيت «يولوتورس» على «الميسا» وقد كان بعد ذلك هو أحد أهم مراكز عملياتنا واستأنفنا السير يتقدمنا الآن فلاح يسمى «توتو ألميدا» وكانت مهمتنا وصول (نيفادا) والوصول فيما بعد بواسطة السفوح الشمالية لجبال «توركينو» إلى الموضع الذى يوجد فيه «فيدل كاسترو»، وكنا نتمضى فى هذا الاتجاه حين شاهدنا عن بعد رجلين من الفلاحين وعندما اقتربنا منهما حاولا أن يهربا وكان حريا بنا أن نتبعهما لتوقيفهما فإذا بنا نكتشف أنهما فتاتان سوداوان تحملان اسم (موبا) وتتبعان مذهب «الأدفنتست» وعلى الرغم من أن المعتقدات الدينية التى تعسقها الفتاتان تفرض عليهما مقاومة ومكافحة أى مظهر من مظاهر العنف والوحشية وقد ساعدناهما دون أى تحفظ وعلى الفور وأثناء فترة الحرب وحتى نهايتها.

واستعدنا حيويتنا وطاقتنا وعند الرحيل نحو (مارفردى) (فقد كان يجب أن نسلك طريق مارفردى لوصول نيفادا) وجاء من يخبرنا أن القطاع ملئ بقوات باتيستا. وبعد تداول سريع بين الذين يرشدوننا وأركان حربنا المصغرة قررنا أن نعود كما كنا ونسلك الطريق المباشر مروراً بتوركينو وهو طريق أصعب بغير شك ولكنه أقل خطورة.

والتقطنا من خلال جهاز راديو صغير ترانزستور أبناء مزعجة فقد قالوا إن معارك خطيرة اندلعت فى منطقة «أسترايالا» وأن (راوول) أصيب بجراح خطيرة (ولست متأكدا الآن بعد مرور الزمن أن كان جهاز الراديو هو الذى نقل إلينا هذا الخبر، ولم نستطع إلا أن نتأمل وندقق فى هذه الأنباء، وقد علمنا الاختبار أن نكتشف فيها طابع الكذب... وعلى أية حال فقد حاولنا أن نضاعف من سرعة

خطواتنا لكي نصل إلى المكان الذي يوجد فيه فيدل وكنا قد بدأنا السير مساء وقضينا الليل في منزل فلاح منعزل يدعى سيكاينو ، كان يعيش هناك على جوانب توركينو . كان يعيش وحده في كوخ صغير وكان أصدقاؤه الوحيدون بعض الكتب الماركسية يحتفظ بها بعناية في حفرة تحت حجر غير بعيد من كوخه ، وقال لنا (سيكاينو) بكيريا أنه كان مناضلا ماركسيا . . وقد أرشدنا هذا الفلاح على الطريق الذي كان يجب علينا أن نسلكه ورأى (سينيسيو) أننا نبتعد أكثر فأكثر عن مركز عملياتنا وأضحى هذا الأمر مثيرا للقلق وهو صاحب روح متواضعة أقصد روح الفلاح الذي لا يلتزم غالبا بالقيود واللوائح وفي يوم من الأيام التي تجلت فيها الشمس وأشرقت على الكون كنا متوقفين كان متطوع يدعى «كويرفو» يقوم بالحراسة (وكنا قد زدناه ببندقية من طراز (رومنجتون» نظرا لحسن سلوكه وذهب «سينيسيو نورس» ليلتحق به في نقطته حاملا بدوره ببندقية وعندما أخبروني بالأمر بعد نصف ساعة تقريبا ذهبت للبحث عنه حيث لم تكن بداخلي ثقة كبيرة (بسينيسيو) وكانت البنادق غالية ونادرة في ذلك الوقت ولكنني وجدت الاثنين معا قد فرا وذهب بانديراس (وإسرائيل ياردو) في البحث عنهما وهما على يقين من عدم فعالية مسدسيهما التعيسين بالنسبة لأسلحة الهارين الطويلة لكننا لم نعثر هذه المرة على أثر للهارين .

لقد كان شاقا على النفس كيفية الحفاظ على معنويات هذه القوة المسلحة تسليحا ضعيفا والتي حرمت من إجراء الاتصال المباشر مع قائد الثورة لقد كنا نتقدم دون أن ندري إلى أين نحن ذاهبون ، ودون أية خبرات يحاصرنا الأعداء الذين أصبح لهم في أذهان الفلاحين ونواديرهم أعداد كثيرة وهائلة .

وأصبحت مقاومة هؤلاء الضعيفة تعزز المؤسسات بين الرجال ، وجرت محاولة هروب قام بها رجل يدعى «المكسيكي» الذي كان قد حصل على رتبة كابتن وهو الآن موجود في ميامي عميل وخائن للثورة وكان (هرمس ليفسا) ابن خال «خويل

أيجليسيا» هو الذى أطلعنى على المحاولة فأعددت تحقيقا لمعرفة الأمر بوضوح واعترف المكسيكى بأنه فكر فى تأسيس عصابة مستقلة ولكنه أقسم أن ذلك لم يكن بهدف الهروب . . لقد كان يعتزم بناء وتكوين عصابة صغيرة تهدف إلى شن هجمات على أوكار الجواسيس والتخلص منهم . يقتلهم إذ أن صفوفنا تحتاج إلى شيء من النشاط . . . والواقع أنه كان يعتزم فعلا الانصراف إلى مطاردة الجواسيس ورصد تحركاتهم وذلك بهدف ابتزاز أموالهم وهو نوع من أعمال البلطجة .

وفى معركة «الؤميرتيو» التى اندلعت بعد هذه الواقعة كان (هرمس) هو فقيدنا الوحيد ولم نستطع أن نتحاشى الظن بأن وراء مقتله عملية ثأر من طرف المكسيكى حيث إن هرمس كان هو الذى أفسى سره ورغم كل هذا فأنا لست على يقين أو قناعة بمثل هذه المسألة .

وظل المكسيكى فى الطابور وأعلن على الملأ قسم الولاء والشرف بوصفه رجلا مناضلا وثوريا وأقسم أنه لن يذهب ولن يفكر إطلاقا فى الهرب ولن يحرض أى شخص على أن يلوذ بالفراار .

وبعد عدد لا بأس به من فترات ومراحل السير القصيرة استطعنا الوصول إلى منطقة «يالما موتشا» على الجانب الغربى من «توركينو» فى منطقة المغارات وهنا احتفى بقدمونا الفلاحون بشكل رائع وبخصوص مهنتى الجديدة أقصد - مهنة - خالع الأضراس - فقد كنت أمارسها بحماس وحب واحترام ومن ثم أسسنا اتصالا مباشرا وبعد عشاء طيب وراحة قصيرة اقتفينا أثر خط مستقيم على «يالما موتشا» وقطاع الجحيم حيث كان لنا أصدقاء قدامى . . ووصلنا فى ١٥ يونيو وأبلغنا أميليو كاريرا» أحد فلاحى المنطقة أن «لالوساردينياس» قد سقط فى كمين هو ورفقاؤه بالقرب منا، وشكا لى أمره لأن لالو عرض بيته للخطر (إذ أسس مخيما قريبا منه) فى حال قيام دورية العدو بالهجوم .

وفى ١٦ يونيو تم اللقاء الذى جمع بين قوتنا الصغيرة ومجموعة من طابور فيدل يترأسه «لالوسار دينياس» وقد روى هذا الأخير كيف وجد نفسه مرغما على الدخول قسراً فى صفوف الثورة.. لقد كان تاجراً بذل جهده لكى يأتينا إلى الجبل حاملاً أطعمة معلبة ومأكولات طازجة من السهل... وفى يوم من الأيام كان (لالو) قد تلقى توجيهات تفيده بأهمية الانتظار والتريث فى هذا الموضوع تقدم طواير «سانتشى موسكيرا» إذن فقد دخل سانتش موسكيرا بكل ما يحمله فى عتاد. فى أرضنا مرة أخرى من قطاع «يالما موتشا» وكاد أن يصبح محاصراً من جانب طابور فيدل بيد أنه استطاع أن يحبط محاولة الحصار وذلك بعبوره منطقة «توركينو» من خلال التمرجل على فترات متباعدة الأمر الذى أدى به للوصول إلى المنحدر الآخر للجبل لكن من جانبنا نحن فقد كنا نعرف جيداً أن فى الجوار القريب توجد قوات العدو مرابطة حيث كنا فى ليلة أمس عند وصولنا أحد الأكواخ قد رأينا بأعيننا خنادق غادرها الجنود من وقت قصير.

ولكننا لم نتصور أن هذه الشواهد والبراهين الجلية تدل على هجوم قد تشنه علينا قوات العدو ولم تكن سوى علامات هرب الطابور الحكومى فى واقع الحال. وكان هذا خطأ فاصلاً فى العمليات ومفترق طرق على أرض الميدان فى جبال (السيرو مايسترا) وقد أمسى لدينا منذ ذلك الوقت قوات تكفى لتطويق ومحاصرة طواير العدو وإرغامه على الفرار تحت وطأة الإبادة الجماعية.

لقد استوعب العدو الدرس وأدركه إدراكاً رائعاً ومن ثم لم يعد يشن غارات جوية على مراحل فى منطقة السيرو ماسيرا لكن القائد الذى استوعب عظات وعبر هذا الدرس مباشرة فهو من أصلب وأقوى وأشرس قوات جيش باتيستا وأكثرهم عناداً وكبرياءً و صلفاً وغروراً، فضلاً عن شهرته كمقاتل غبى دموى يشتهر بتعطشه لسيول الدماء المتدفقة.. أقصد بقولى هذا «سانتشس موسكيرا» الذى جاء ذكره فى

هذا الكتاب من قبل وقد رقى من رتبة ملازم فى عام ١٩٥٧ حتى أصبح كولونيل
وهى رتبة تدرج إليها بعد هزيمة قوات الديكتاتور التى اشتركت فى شن هجوم أخير
علينا فى شهر يونيو من العام التالى . . وإنها حياة عسكرية عسيرة على النفس حيث
كثيرا ما مارست قوات العدو أبشع صور الظلم على الفلاحين المساكين الذين كانوا
يتعرضون للسلب والسرقة والنهب والابتزاز دون أن يجرؤ أحد على أن يبدى ضيقا
أو يظهر سخطا.

* * * *

الفصل الحادى عشر

خيانة

«إن بعض التهديدات التى وردت فى صلب هذه الوثيقة لم تفِ بها الثورة بنصها الحرفى ويجب القول إن الخصم هو الذى قام بخرق الاتفاق فى البيان وذلك برفضه الاعتراف بسلطة السيرا وببذله أقصى الجهد لتقييد الحكومة الثورية».

الفصل الحادى عشر

خيانة

كم كانت فرحتنا عظيمة عند لقائنا مع الرفاق القدامى وكم كان استقبالهم لنا أحسن ما يكون وكم سعدنا أيضا عند رؤيتنا جيش الثورة فى كامل رجاله إذ كان يضم نحو ٢٠٠ رجل على وجه التحديد.

وكان هذا الجيش يتسم بالنظام والدقة والروح العالية وبين يديه عدد لا بأس به من قطع سلاح جديدة ولم يكن هناك أى شك فالتغير النوعى الذى سبق أن تكلمنا عنه كان يحدث بالفعل فى جبل السيرا مايسترا ونحن الآن نكبر وننتقل فى أرض حرة... ولم يعد هناك ذريعة لاتخاذ كثير من الاحتياطات اللازمة بل كنا نتمتع بشئ من الحرية من أجل التداول فى الليل وحتى يتمدد الواحد منا فى أرجوحته ولو مجرد ساعة وأصبحنا لا نمنع أحداً منا من التوجه والتردد على زيارة السكان فى السيرا أو دخول بيوتهم الأمر الذى أدى إلى توثيق روابط متينة فى العلاقات بيننا.

ولكن النجمين اللامعين فى هذه المرحلة كانا هما فيليب ياسوس، وراوول تشيباس وهما شخصيتان لم تكن بينهما أية صفات مشتركة إذ أن راوول تشيباس كان يتفاخر بمكانة شقيقه (فيدل) - وهو بالطبع رمز يجسد عهدا كاملا فى كوبا - دون أن يكون له شئ من مزاياه وخصائصه كالجود والفكر والذكاء وكان اعتداله فى كل مناسبة هو الذى جعله الأبرز والألمع لحزب الاستقامة أما معنا نحن فقد كان قليل الكلام ولم تكن له إلا فكرة واحدة هى ضرورة أن نترك جبال (السيرا مايسترا) فى أقرب وقت إذا أمكن.

فيما كان فيليب باسوس ذا مكانة اقتصادية كبيرة وصاحب سمعة كريمة وطنية حيث كان قد اتصف بطهارة اليد التى لم تمتد إلى خزينة الدولة حينما كان يشغل

منصب (رئيس البنك الوطنى) فى عهد حكومة السلب والنهب والغش والرشوة والسرقة فى كل مكان أقصد حكومة الرئيس (بريوس سوكاراس) ولعل القارئ يقول إنه فضل غير قليل أن يبقى المرء نظيف اليدين أثناء هذه السنوات وقد يكون هذا ميزة للموظف الذى يواصل عمله الإدارى دون أن يهتم بمشاكل البلاد الخطيرة . .

لكن كيف يمكن أن تتصوروا رجلا ثوريا يمكن أن يبقى صامتا يوما بعد يوم أمام المظالم التى مارسها هذا العهد تلك التى لا يمكن أن يتخيلها العقل؟ لقد تحلى (فيليب باسوس) بالشجاعة كى لا يتفوه بكلمة ويغادر منصبه دون أن يثير أية مشكلة ويترك منصبه بوصفه رئيسا (لبنك كوبا الوطنى) بعد انقلاب (باتيستا) مكللا بأكبر مظاهر الاحترام والود والتقدير والمكانة بأمانته وطهارته وعفته ونزاهته ومواهبه وذكائه وقدراته البارعة وإذ لم يعد يهمه الأمر فقد مضى فى طريقه إلى جبال (السييرا) على أمل أن يمسك زمام الموقف بقبضة يديه وكان فى مخيلته كمكيا فيلى صغيرا يعتبر نفسه الرجل المختار الذى تلقى دعوة كريمة لكى يتسلم مقدرات وثروات البلاد وربما كان قد راح يحتضن فكرة خيانة الحركة وربما تكون هذه الفكرة قد تأسست وتكونت لديه فيما بعد ومهما يكن من أمر فإنه لم يكن يتحلى أبدا بالصراحة .

وقد احتفى (فيليب باسوس) وراء التصريح المشترك (الذى سوف نفسره تفسيرا دقيقا فيما بعد) حتى يعلن تنصيب نفسه مندوبا لحركة ٢٦ يوليو فى ميامى والهدف كان الرئاسة المؤقتة للجمهورية . .

وكان هذا أداة حسنة لكى يضمن يربوس وجود رجل موثوق على رأس الحكومة المؤقتة .

وكنا فى أشد الحاجة لتجاذب أطراف الحديث والنقاش فى ذلك الوقت بيد أن فيدل قد حكى لى قصة الجهود التى كان عليه أن يبذلها بهدف تكريس وثيقة نضالية ترسى الأسس والقواعد الصحيحة فقد كانت مهمة شاقة اصطدمت بعدم تفهم هذين الرجلين ذوى العقليتين الرجعيتين غير المتحمستين لبناء النضال الشعبى .

وقد أكد البيان^(١) قبل كل شيء على ضرورة قيام جبهة وطنية ثورية تضم كافة أحزاب المعارضة السياسية وكافة المؤسسات الوطنية وجميع القوى الثورية» وقدم عددا من الاقتراحات كتأسيس (جبهة مشتركة) للنضال انطلاقا من الجبهة الشعبية «وتحديد شخصية تدعى لقيادة الحكومة الثورية» وتضمن البيان تصريحاً عاجلاً ومباشراً بأن الجبهة ترفض أن تطلب أو تقبل أن تتوسط دولة أجنبية في الشأن الداخلى لكوبا كما أنه انطوى على رفض أى مشروع يلزم (بتسليم الجمهورية ولو بصورة مؤقتة إلى كتلة عسكرية مهما كانت دوافعها) والعمل على منع إقحام الجيش فى العمل السياسى بشكل نهائى مع ضرورة توفير ضمان بعدم المساس بأية مؤسسة عسكرية وأيضاً توفير الإجراءات اللازمة لانتخابات حرة بعد مرور عام واحد أما البرنامج الذى ينبغى أن تتبعه الحكومة المؤقتة فكان يتضمن الإفراج عن جميع السجناء السياسيين مدنيين وعسكريين ونشر الأخبار ضماناً كاملاً للصحافة مطبوعة كانت أو صوتية على اعتبار أن جميع الحقوق السياسية والشخصية مكفولة بمقتضى الدستور. وتضمن البرنامج أيضاً تعيين عُمَد بشكل مؤقت فى كافة المديريات بعد استشارة المؤسسات الأهلية فى المديرية ووعدهم بالإضافة إلى ذلك بإنهاء صور السرقة من أموال الدولة بكافة أشكالها وألوانها. . وتهدف الاحتياطات اللازمة إلى تفعيل الطهارة فى جميع أجهزة الدولة فضلاً عن إرساء قواعد التوظيف فى القطاعات الإدارية أضف إلى ذلك تحرير النقابات العمالية من خلال إجراء انتخابات حرة فى جميع الاتحادات والنقابات العمالية.

كما أن البرنامج قد تعهد بتدشين حملة شعواء مباشرة ضد الأمية مصحوبة بحملة أخرى للتعليم الذى تتعاضم فيه حقوق المواطن وواجباته نحو المجتمع والوطن. ويقول البرنامج أخيراً: إنه «ينبغى إرساء القواعد من أجل إصلاح زراعى يهدف إلى

(١) البيان: هو بيان شهير باسم بيان السيرا وقد صدر فى ١٢ يوليو ١٩٥٧.

توزيع الأراضي غير المنزرعة وتحويل الفلاحين الشركاء فى الأراضي والمزارع إلى ملاك على رأس قطع محدودة من الأراضي سواء كانت هذه الأراضي تخص الدولة أو يمتلكها الأفراد وذلك بعد دفع التعويض المناسب للملاك السابقين كما يجب بناء سياسة مالية سليمة كفيلة بتأمين استقرار النقد كما يجب استثمار أموال الدولة فى أعمال تعود بالربح والفائدة على العملية التصنيعية وتدير وخلق فرص عمل ووظائف جديدة.

إلى كل هذا يمكننا أن نضيف نقطتين واضحتين:

أولاهما: أهمية تعيين الشخص الذى يتلقى دعوة لرئاسة حكومة الجمهورية المؤقتة فى الحال حتى نبرهن للعالم أن الشعب الكوبى قادر على الاتحاد والالتفاف وراء كلمة الحرية الجامعة وعلى مساندة الرجل الذى يبدى قدراته على تجسيد هذه الكلمة جامعاً فى شخصه النزاهة والكرامة والحياد ولا ينقص كوبا أصحاب المكانة والقيمة الذين يستحقون أن يتبوأ أى منهم منصب رئاسة الجمهورية (كان فيليب باسوس أحد الموقعين على هذا البيان وكان يقول فى نفسه إنه لا يوجد غيره يستحق هذا المنصب).

النقطة الثانية: هى التى تؤكد أن هذا الشخص يجب أن يعينه معظم المؤسسات الأهلية باعتبارها منظمات لا علاقة لها بالسياسة ومباركتها للرئيس المؤقت يحرره على هذا النحو من كل التزام حزبي ويفتح الساحة لانتخابات حيادية كل الحياد ولا شائبة فيها».

ويستطرد البيان أن «لا حاجة ملحة إلى الصعود لجبال السيرا من أجل التداول إذ نستطيع أن نوفد ممثلين إلى هافانا أو إلى المكسيك أو إلى أى مكان تتطلبه الضرورة».

ولقد بذل (فيدل) قصارى جهده لتعديل بعض التصريحات المتعلقة بالإصلاح الزراعى كى تأتى أكثر عمقا، ولكن يبدو أن من العسير كسر الجبهة الموحدة التى كان يمثلها الرجعيان المذكوران.. ولهذا وجدت جريدة «دياريو دى لامارينا»^(١) نوع الاحتياطات التى تستطيع أن تتقبلها فيما أعلن البيان من «إرساء القواعد بهدف إصلاح زراعى من أجل توزيع الأراضي غير المزروعة» وقد اختتم البيان هذه الفقرة مؤكداً أن التوزيع يجرى بعد سداد التعويضات على الملاك السابقين.

إن بعض التهديدات التى وردت فى صلب هذه الوثيقة لم تف بها الثورة بنصها الحرفى.. ويجب القول إن الخصم هو الذى قام بخرق الاتفاق فى البيان وذلك برفضه الاعتراف بسلطة السيرا.. وببذله أقصى الجهد لتقييد الحكومة الثورية المقبلة مسبقا.. ولم تؤد هذه التسوية إلى ارتياحنا ولكنها كانت ضرورية حيث كانت خطوة إلى الأمام فى ظروف وأحوال هذه المرحلة.

وما كان يمكن أن تمضى إلى ما بعد اللحظة التى أصبحت فيها تمثل حائلا لتطور مراحل الثورة ولكننا كنا على استعداد من أجل التقيد بها، والعدو بخيائته هو الذى ساعدنا على تحطيم تلك القيود والكشف عن نواياه الحقيقية للشعب.

ولقد كنا نعرف أن ذلك البيان لا يعد سوى نواة برنامج، برنامج يقلص من جهودنا، ولكن لم يكن يغيب عن بالنا أننا لا نملك الوسائل التى تساعدنا على طرح إرادتنا من مرتفعات (السيرا مايسترا) فكان يجب إذن الانتظار ردحا آخر من الزمن مع فصيلة كاملة من الأصدقاء الذين كانوا يحاولون توظيف قوتنا العسكرية والثقة العظمى التى وضعها الشعب فى شخص (فيدل كاسترو) وذلك بهدف الحفاظ على مخططاتهم وسيطرة الاستعمار على كوبا بواسطة البرجوازية الواردة من أسياى الشمال.

(١) جريدة يومية واجهت انهماما بالرجعية تحولت إلى جريدة شيوعية بعد نجاح الثورة الكوبية.

كان للبيان نقاط مضيئة حيث وردت فيه السيراء مايسترا مثلاً بهذه التعابير المقصودة. . لا ينخدع أحد بالدعاية الرسمية التى تتصل بالأحوال فى جبال (سيراء مايسترا).

إن (السيراء مايسترا) هى منذ الآن قلعة من القلاع التى لا تقهر وتأصلت جذورها فى أعماق جميع مواطنينا.

* * * *

معركة الأمبريتو

قبل أن يمضى شهر على طابورنا كنا قد بدأنا نشعر بوطأة أخطار حياة القعود التى نعيشها فى السيراء.

وكنا نعيش فى وادى «الأمبريتو» (الرجل الصغير) الذى أطلق عليه هذا الاسم بسبب حجرين كبيرين ذوى مساحات شديدة التسطیح على قمة المايسترا حتى يتصور الناظر إليهما من أسفل أنه يرى شبحاً فى صورة قزم من الأقزام.

ولم نكن بعد إلا مجموعة من المتطوعين الجدد فلم يكن الرجال مستعدين لمواجهة محن مؤلة وعنيفة، ورغم ذلك فقد كانت احتياجات حربنا الثورية تدفعنا قسراً إلى أن نواجه احتمال اندلاع معركة فى أية لحظة فقد كان واجبا تصفية حساب الطواير التى قد تدخل هذا الجزء من (السيراء مايسترا) التى يمكن أن نعتبرها منذ مدة أرض كوبا الحرة.

وفى ٢٩ أغسطس أو بالأحرى فى ليلة ٢٩ أغسطس أقبل إلينا فلاح ليخبرنا أن جيشا كبيرا يستعد للصعود إلى قمة المايسترا بواسطة طريق «الأمبريتو» الذى ينحدر إلى الوادى أو يستمر ناحية مرتفع (الكورادو) ليخترق (المايسترا) وكان من شأن هذه الأنباء الخاطئة التى أذاعها علينا هذا الرجل أن خلقت بداخلنا حصانة ومناعة ضد كافة أنواع الرعب ووجدتنى أضعه فى حوزتنا كرهينة لإرغامه على أن يقول الحقيقة وهددته بعقوبات قاسية وعنيفة إن عاود لرواية الأنباء المغلوطة بيد أنه أقسم بأغلظ الأيمان على أن ينطق بالحق وأن جنود الحرس الحكومى احتشدوا فى مزرعة «خوليو زاياتيرو» على بعد كيلو مترين قبل المايسترا.

وانتظرنا الليل لتوجه إلى المكان لنحدد نقاط الحركة وكان على فصيلة «لالوسردينياس» أن تسيطر على الجهة الشرقية من الموقع فى غابة من شجيرات

الختشار الجافة وأن تصب نيرانها على الطابور حينما ينطبق على الطوق وكان على «راميرو فالديس ومجموعة الرجال المسلحين تسليحا أخف أن يشنوا من الجانب الغربى (الهجوم الصوتى) لنشر حالة من الرعب فى قلوب رجالنا.

وعلى الرغم من ضعف قوة النار التى لديه لم يكن فى مرمى الخطر على وجه الإطلاق لأنه هوة عميقة كانت تشكل عاملا فاصلا بينه وبين الحرس وينبغى على هؤلاء أن يجتازوها قبل أن يصلوا إليه.. وكان المر الذى وجب عليهم أن يعبروه لكى يصعدوا بقع على جانب الجبل من الجهة التى نصب فيها (لالو) كمينه وخيتئذ سيهاجمهم «سيرو» جانبا وأما أنا فقد كنت مكلفا مع مجموعة صغيرة من الرماة المسلحين على أعلى مستوى من التسليح أن أعطى الأمر بإطلاق النار وذلك بإطلاق الرصاصة الأولى. ووقع الاختيار على أكفأ مجموعة من فصيلة (راميرو) وكانت بإمرة الملازم «راوول مركادر» حتى تصبح قوة الصدام لحصد ثمار النصر. وكانت الخطة من أسهل الخطط وهى تشير إلى جعل نحو ١٢ جنديا من جنود العدو يمرون على مفترق طريق صغير يتعرج فيه الطريق بزاوية تصل إلى ٩٠ درجة تقريبا لتدور حول صخرة كبيرة وبأن أطلق النار على آخرهم فى نفس اللحظة التى يعبر فيها الصخرة حيث ينعرج الطريق بحيث يتعد هؤلاء عن بقية الطابور.. أما الآخرون فسوف ينقض عليهم رماتنا لتصفيتهم على جناح السرعة وتتقدم مجموعة (راوول مركادر) لكى تسيطر على أسلحة الجنود الصرعى.

بعد ذلك انسحب بسرعة على أن تسترنا وتغطي لنا نيران مجموعة المؤخرة برئاسة الملازم «فيلوا كرينا» وعند الفجر كنا بالفعل محتشدين فى مزرعة لأشجار البن على الموقع المحدد «لراميرو فالديس» وكانت عيوننا جميعاً شاخصة أبصارها على بيت «خوليو زاباتيرو» من خلال مستوى منخفض على جانب الجبل.

ومنذ أن أشرقت الشمس بدأ كل شىء يتحرك واستطعنا أن نشاهد حركة الرجال الذين يخرجون ويدخلون ويذهبون ويعودون فى عملية الاستيقاظ المبكر..

وبعد قليل نصب بعضهم القبعات على رؤوسهم وهكذا كانت تأكيدات الفلاح صحيحة حيث أن طابور العدو يحتشد بالفعل هناك وكان رجالنا جميعا يتأهبون لمواجهة في نقاط القتال المعدة لهم غير أنني عدت قاصدا مركزى .

وكنا نرى صعود مقدمة الطابور الشاق . . وبدا لى أن الانتظار لا نهاية له وراحت أصبغى ترقص وتلعب على زناد سلاحى الجديد بندقية (براوننج) الرشاشة . . المستعدة للدخول فى العمل للمرة الأولى ضد العدو . . وفى نهاية الأمر انتشر وراج خبر يشير إلى أن جنود العدو بدورهم يتقدمون ويقتربون بل كنا نسمع أصواتهم العالية وصيحاتهم المدوية .

والنف الجندى الأول حول الصخرة الكبيرة وتبعه الثانى والثالث ولكنهم كانوا لسوء الطالع يسيرون فى حلقات متباعدة . ولهذا بدا واضحا أننا لا نستطيع أن نترك مجموعة منهم يمرون علينا مرور الكرام كما كان متوقعا وما أن عدت الجندى السادس حتى سمعت استغرابا من المقدمة ورفع أحد الجنود رأسه وكأنه فوجئ بشيء . . عندئذ أطلقت النار فسقط الجندى السادس صريعا فى الحال وفى لمح البصر ساد إطلاق النار، وفى المجموعة الثانية من طلقات البندقية الأتوماتيكية كان الجنود الستة قد اختفوا تماما .

وأصدرت أمرا بالهجوم فقامت قوات (راوول مركادر) ومعها مجموعة أخرى من المتطوعين الجدد كانوا قد تأهبوا وارتقبوا تلك اللحظة ومن الجهتين وقع العدو تحت نيراننا الكثيفة عليه .

وتقدم (ألفونسو زاياس) و«ألسيبيادس برمودس» (ورود ولفوفاسكس) والملازم أورستش وهم من جنود المقدمة كما تقدم (راوول مركادر) نفسه ومن عند الصخرة المرتفعة بدأت قواتنا فى إطلاق النار على طابور العدو المكون من سرية واحدة بقيادة القومندان «ميروب سوسا» وانتزع (رودلفو فاسكس) سلاح الجندى الذى أصبته بطلق نارى .

فى الواقع يجب الإقرار أننا تعرضنا لصدمة بالغة حيثئذ حيث تبين لنا أنه كان ممرضا يحمل مسدسا بسيطا من طراز ٤٥ من مسدسات الحرس الريفى ومعه ١٠ أو ١٢ رصاصة . أما الجنود الخمسة الآخرون فقد نجوا جميعا من قبضتنا وقد تركوا الطريق واتجهوا إلى أقصى اليمين بأقصى سرعة وقد هربوا عبر مجرى أحد الجداول القريبة .

وبعد قليل تعالت أصوات طلقات البازوس الأولى وقد أطلقها العدو بعد أن أفاق من صدمة المفاجأة وهو الأمر الذى لم يرد فى خاطره حين بدأ المسير فكرة لمواجهة قوات الثورة .

ولم تعمل البندقية «مكسيم» وهى قطعة السلاح الوحيدة الثقيلة التى كنا نملكها باستثناء بندقيتى الرشاشة ولم يستطع «خوليو بيريز» من إصلاحها أما من جهة «راميرو فالديس» فقد هاجم إسرائيل يادرو وخويل إيجليسياس للعدو بأسلحة تبدو كلعب الأطفال .

وأثناء ذلك كان رصاص البنادق ينطلق من جهتى اليمين واليسار وقد أثار عاصفة هائلة من الضوضاء أصابت جنود الحرس بحالة من الرعب والهلع وأصدرت الأمر بالتراجع لفصيلتى الجناحين، وعندما بدأنا فى الانكفاء فعلنا نحن مثلهما تاركين لمجموعة المؤخرة مهمة مواصلة إطلاق النار حتى مرور فصيلة «لالوسرد نيناس» لأن خطأ ثانيا للمقاومة كان مستدركا وفى الوقت الذى كنا نتقهقر فيه التحق بنا (فيلو أكويئا) بعد أن قام بأداء مهمته وأبلغنا ساعتها بمقتل «هرمس ليفا» ابن خالة (خويل إيجليسياس) وفى طريق عودتنا شاهدنا فصيلة قادمة إلينا كان فيدل قد رأى أنه من المناسب أن يبعث إلينا ويدورى كنت قد أطلعت على قرب وقوع اشتباك مع قوات تتفوق علينا من حيث العدد .

وكان على رأس الفصيلة الكابتن «إيحناسيو بيريز» ومشينا حوالى كيلو متر على ما أظن . . وعلى هذه المسافة من مكان المعركة أقمنا كميننا الجديد على أمل وصول

رجال الحرس . . وتجمع هؤلاء عند المرتفع الصغير الذى كان ساحة للمعركة وقد أضرمو النيران فى جنة «هرمس ليفا» أمام أعيننا لكى يطفئوا نار غليلهم ويشبعوا شهوة انتقامهم.

وقد رأينا هذا المنظر الفظيع والنار كانت تغلى فى عروقنا لعجزنا عن القيام بأى رد انتقامى على هذه الصفاقة والخسة وإن كنا قد أطلقنا عدة طلقات من بنادقنا ويضع رصاصات من رشاشاتنا لكنهم أجابونا بطلقات مروعة من طلقات البازوكة.

وفى تلك اللحظة فقد ذكرت كلمة التعجب التى صدرت عن جندى الحرس الذى سبب إطلاقى النار على جناح السرعة «شيئا لذيذا» لقد قال ذلك ولاشك أنه أراد أن يعرب عن سعادته وبهيجته ببلوغ قمة الجبل!!

وقد أوضحت لنا هذه المعركة إلى أى مدى كان استعداد قوتنا للقتال ناقصا فلم نكن حتى نملك القدرة على اطلاق النار بدقة على الأعداء الذين كانوا يمشون على مسافات قريبة جدا.

والواقع أنه لم يكن بين مراكزنا وبين مقدمة رتل العدو أكثر من ١٠ أو ٢٠ مترا) وعلى الرغم من كل شيء فقد كانت تلك المعركة بالنسبة إلينا انتصارا ضخما وهائلا ورائعاً . . حيث كنا قد أوقفنا زحف رتل «ميروب سوسا» الذى كان عند قدوم الظلام يتراجع وأحرزنا نصرا صغيرا على العدو حصلنا منه على مكافأة صغيرة جدا كانت عبارة عن قطعة سلاح قصيرة كلفتنا رغم ذلك حياة مقاتل شجاع من خيرة مقاتلينا . . وبقبضة من الأسلحة المتوسطة الفعالية واجهنا مجموعة كاملة لا يقل عدد أفرادها عن ١٤٠ رجلا مسلحين بكل ما تتطلبه الحرب الحديثة . . وقد دكوا مواقعنا بالبازوكا وإيما بمدافع الهاون أيضا وأطلقوا النار على رجالنا بغزارة كثيفة ولكن دون ضبط أكثر مما كانت قواتنا تصنع على المرتفع الذى تسيطر عليه المقدمة وبعد هذه المعركة أجريت ترقيات فرقى (الفونسوزياس) إلى رتبة

ملازم لشجاعته فى القتال . . وكانت هناك تنويهات وإشارات أخرى لأتذكرها الآن، وفى تلك أو فى اليوم التالى عقب تراجع قوات الحرس وانسحابها روى لنا (فيدل) وهو سعيد بل كان فى ذروة سعادته كيف أنه هاجم قوات باتيستا فى منطقة «لاس كويباس» (المغارات) وقد روى أيضا أن رفقاءه كلهم تميزوا بالجسارة والشجاعة سقطوا قتلى فى هذا الهجوم وهم «خوفتنيو» الأركون من «مانزانو» (وهو من أوائل المقاتلين) وباستور و«بايوكاستيو وأوليفر» وهو ابن ملازم فى الجيش الديكتاتورى ومقاتل كبير وشاب صلب عنيد وقوى مثل سائر الآخرين.

وكانت المعركة التى خاض فيدل غمارها أوسع نطاقا من معركتنا نحن فلم يكن الأمر مجرد كمين عادى كما كان حالنا ولكنه كان بالفعل هجوما واسع النطاق على أعلى مستوى على معسكر مجهز تجهيزا قويا وصلبا كالصخور للدفاع والمقاومة ورغم أنه لم يستطع تدمير قوات العدو بيد أنه سبب لها خسائر كبرى جعلتها تخلقى الموقع فى اليوم التالى . . وكان أحد أبطال ذلك اليوم «الزنجى ييلون» المعروف بخبز السكر وهو رفيق كله شجاعة وبسالة.

وروى لنا أنه وصل أحد الأكواخ الذى كان فيه كمية من الأنابيب الغريبة وإلى جوارها صناديق صغيرة ولاشك أنها بازوكات كان العدو قد تركها . . ولكن فيلكس الزنجى ييلون) كان يجهل كل شئ عن هذا السلاح (ولم نكن بدورنا نعرف أكثر منه) فترك هناك كل قطع الحديد ثم اضطر أن ينسحب وقد أصيب فى ساقه وهكذا بددت عصابتنا فرصة كانت رائعة للسيطرة والاستيلاء على تلك الذخائر البالغة الفعالية فى الهجوم على تحصينات العدو الصغيرة.

وكان لمعركتنا تداعيات جديدة فبعد يوم أو يومين علمنا بتقرير خطى للجيش يعلن عن وقوع ٥ أو ٦ قتلى ثم علمنا أنه بالإضافة إلى رفيقنا الذى أضرموا فى جسته النيران قتل العدو أيضا ٤ أو ٥ فلاحين كانوا كما يزعم المجرم «ميروب

سوسا» مسئولين عن الكمين لأنهم لم يعلموا الجيش بوجود قواتنا فى الجوار ولعلى أذكر أسماءهم هنا وهم «أبيجايل، كاليستو، يابليتي لوبون، (وهو بالمناسبة من أصل هايتى) وجونسولا جونسالين» وجميعهم غرباء عن نضالنا وكفاحنا .

وإذا كانوا على علم بوجودنا فى القطاع أو لو كانوا يؤيدون قضيتنا كجموع الفلاحين فإنهم أبرياء على كل حال أبرياء كلياً من المناورة التى كنا نجهزها . . ولعلمنا حق العلم بالأسلوب المتبع من قبل قادة جيش باتيستا كان من طبيعتنا أن نخفى نوايانا عن الفلاحين وإذا وقع أن مر واحد منهم بمكان كمين لنا أبقيناه فيما بيننا حتى يقع الاشتباك وقد حدث أن قام جيش باتيستا بقتل أربعة من الفلاحين المساكين الذين كانوا يعيشون فى أكوأخهم وقد أشعل الجيش النيران فى تلك الأكوأخ .

لقد أكدت لنا هذه المعركة كم هو يسير فى مثل هذه الملابس الهجوم على رتل يتقدم ويزحف من أرتال العدو . . أضف إلى ذلك أننا أحسننا وتأكد لدينا أننا قد صنعنا مخططاً تكتيكياً على أعلى مستوى من الذكاء والخبرة حيث كان هذا التكتيك يقضى بأن يطلق النار دائماً على مقدمة الجيش السائر فى محاولة لقتل الجندى الأول أو أحد الجنود الأولين كى يرفض جميع الرجال الباقين التقدم .

على هذا المنوال واصلنا طريقنا لتجميد العدو، وقد تصاعدت حدة هذا التكتيك رويدا رويدا وانتهى بأن صرنا نفتقى أثره بدقة متناهية بحيث اضطر جيش العدو إلى التخلي بكل بساطة عن الدخول إلى منطقة سيرا مايسترا ولم يعد أحد من جنود هذا الجيش يقبل أن يكون من جنود المقدمة وأحدثت حركات التمرد الناشئة فضائح متعددة ولكننا لم نكن قد وصلنا هذه المرحلة بعد حين نشبت المعركة التى نتحدث عنها هنا .

ولقد تحدثنا (فيدل وأنا) عن الأعمال الصغيرة التى جرت فى المعركة بكل حذافيرها تلك الأعمال التى كانت رغم ذلك كبيرة نظراً للفتاوت الكبير بين جنودنا

المسلحين تسليحا فقيرا وقوات القمع والقهر الديكتاتورى التى لم يكن ينقصها أى شىء.

ومنذ ذلك الوقت بالتحديد هجرت قوات باتيستا (السييرا) بشكل نهائى والقائد الوحيد الذى دخلها بعد ذلك مرات نادرة على أية حال بعلامات ومظاهرة شجاعة وجسورة كان (سانتس موسكيرا) أشجع قواد (باتيستا) العسكريين وأكثرهم تعطشا للدماء والصوصية.

* * * *

الفصل الثاني عشر

معركة بينودل أجوا

الفصل الثانى عشر

معركة بينودل أجوا

بعد أن التقينا مع فيدل فى ٢٩ أغسطس مشينا عدة أيام تارة فى حشد وطابور واحد وتارة أخرى تباعدت بيننا المسافات وكنا قد قصدنا بذلك المرور معا بمنشرة «بيتودل أجوا» صنوبر الماء ..

وكنا قد أبلغنا أنه لم تكن هناك فى تلك الأثناء قوة للعدو أو لم يكن هناك إلا قوة صغيرة على الأكثر.

وكان مخطط (فيدل) يتلخص فيما يلى: أن نقوم بأسر القوة الصغيرة فى حال وجودها وإذا لم تكن موجودة أثبتنا نحن وجودنا على أن يتوجه هو وجيشه باتجاه قطاع «تشفيريكو» فيمابقى نحن مختفين فى انتظار جيش باتيستا الذى سوف يأتى فى مثل هذه الحال دون أى تكاسل ليظهر قوته ويبدد النتائج الثورية التى يخلفها مرورنا فى نفوس الفلاحين وفى خلال الأيام التى سبقت معركة «بينو دل أجوا» أيام كنا نسير فى مسافات طويلة قادتنا من (دوس براسوس دل جوايابو) (ذراعا القوافة) إلى مكان المعركة .. وقعت حوادث مختلفة لعب أبطالها الرئيسيون فيما بعد دورا فى تاريخ الثورة.

لقد كان واجبا أن نواجه هروب فلاحين اثنين من أبناء المنطقة هما «مانوول ويويوياتون» اللذين كانا قد انخرطا فى صفوف المقاومة قبل وقت قصير من معركة الأوفيرو.

وكانا رفيقينا فى القتال فى هذا اليوم أما الآن فقد غادرا معسكرنا وبعد ذلك عاد هذا الشخصان إلينا فكشف فيدل عن خيانتهم ولكنهما لم يرتفعا فوق

مستواهما على الإطلاق فقد كانا شقيين نصف بدوين ولسبب شخصى اغتال مانولو القومندان (كريستينونارانخو) بعد نجاح الثورة ونجح فى الهرب من قلعة كاباينا حيث اعتقل ثم شكل عصابة صغيرة فى المكان نفسه الذى كان قد قاتل فيه فى السيرا مايسترا.

وفى تلك الأثناء اغتال (باتشوتو تامايو) رفيقنا المقدام الذى انخرط فى صفوفنا منذ بواكير الثورة الأولى.. وأخيرا اعتقلت جماعة من الفلاحين «ماناوا» وشقيقة (يويو) واعدم الاثنان رميا بالرصاص فى سانتياجو.

ووقع حادث مؤسف آخر حيث جرد الرفيق «روبوتورودريجس» من سلاحه لعصيانه الأوامر الصادرة إليه، وكان يتصف بالفوضى الشديدة فأخذ منه ملازم مجموعة سلاحه كحق من الحقوق النظامية فما كان من روبرتو إلا أن أخذ مسدس أحد الرفقاء وأطلق الرصاص على نفسه ووقع سوء فهم بسيط للغاية فى شأنه حيث أبدت معارضتى فى الواقع من حيث تقديم مراسم عسكرية لتكريمه فيما اعتبره الرفاق المقاتلون أنه قتل آخر ضمن قتلهم.. ولكنى بينت لهم أن الانتحار فى ظروف مماثلة هو عمل قبيح يورط صاحبه ويدينه مهما كانت مزاياه وانتهى الأمر بالرجال إلى التحلى بالهدوء حتى أنهم قد اكتفوا بالسهر على الجثمان بدلا من تقديم مراسم عسكرية لتكريمه وقبل يوم أو يومين كان (روبرتو) قد روى جزءا من تاريخه

لقد كان دون ريب شابا شديد الحساسية وبذل جهدا كبيرا فى محاولات للتوافق والتكيف مع الحياة التى تعيشها عصابتنا خاصة ما يتعلق بالنظام الذى يجد فيه كل ما يتعارض مع ضعف بنيته الجسدية وغريزته بوصفه نائرا.

وبعد مرور يومين بعشنا مجموعة صغيرة إلى «لاس ميناس دى بويستون» لتستعرض بها قوتها حيث كان اليوم هو الرابع من سبتمبر وكان يرأس هذه الفرقة

الكابتن «سيرو ردوندو» فعاد إلينا بأسير يدعى (ليوناردو بارو) وقد لعب هذا الأسير دورا هاما فى صفوف أعداء الثورة وظل أسيرا لدينا وقتا طويلا وفى أحد الأيام روى لنا حكاية مؤثرة وحزينة تتعلق بمرض والدته وقد كان صادقا فى أقواله وحاولت رغم ذلك أن أجعل لإطلاق سراحه تداعيات سياسية واقترحت عليه أن يأخذ باصا لكى يرى والدته فى (لاهافانا) ثم بعد ذلك يطلب اللجوء السياسى إلى أى سفارة معلنا رغبته فى التوقف عن العمل المسلح ضدنا على أن يشجب النظام الحاكم أقصد نظام باتيستا) ولكنه رفض أن يشجب النظام متذعرا بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك خوفا على أشقائه من مطاردة النظام لهم وتصفيتهم جسديا . . وكان أن توصلنا لاتفاق نهائى وهو أن يكتفى بالتصريح وهو يطلب اللجوء بأنه لم تعد لديه الرغبة فى مواصلة القتال وبعثناه مع أربعة رفقاء . وأعطى هؤلاء أمرا مقصودا بمنعه من أن يرى أيا كان فى الطريق رغم أنه كان يعرف عددا من الفلاحين الذين أقبلوا لرؤيتنا فى المعسكر . . يضاف إلى كل ذلك أن على الرفقاء الأربعة المكلفين بمرافقته أن يترجلوا معه المسافة كلها سيرا على الأقدام حتى مداخل (بايامو) حيث يستطيعون أن يتركوه ثم يعودوا إلينا من خلال طريق آخر مغاير للطريق الذى سلكوه .

لكن هؤلاء الرفقاء الأربعة لم يستجيبوا لأوامرنا وتعليماتنا وتركوا عددا كبيرا من الناس يرونهم بل إنهم عقدوا اجتماعا شعبيا حضره (يارو) على اعتبار أنه مؤيدا ومباركا للثورة ثم أخذوا السيارة الجيب واتجهوا بها إلى «بايامو» وفى أثناء ذلك تعرضت لهم قوات باتيستا وقتلوا الرفقاء الأربعة ولم نعرف أبدا هل كان «بارو» قد غمس يديه أو لم يحدث ذلك فى هذه الحادثة البشعة لكنه ظل يعيش بشكل متواصل فى (لاس ميناس دى بريستيو) وقد وضع نفسه تحت إمرة السفاح «سانتشس موسكيرا» وراح يميز من بين هؤلاء الذين جاءوا لشراء حاجاتهم . . الفلاحين الذين كانوا على اتصال بمجموعتنا ويرشد إليهم جيش الطغيان .

ومن هنا كلف الخطأ الذى ارتكبته شعبة كوبا ضحايا لا تعد ولا تحصى وبعد أن انتصرت الثورة بعدة أيام تم اعتقال بارو وصدر ضده حكم بالإعدام ونفذ على الفور.

وعلى إثر ذلك نزلنا (سان يابلو دى باو) فاستقبلنا الأهالى بحفاوة بالغة واحتلنا القرية الصغيرة عدة ساعات دون حاجة إلى القتال (إذ لم تكن هناك أية قوة للعدو) وأقمنا الاتصالات. . . وتعرفنا بشكل إيجابى على أشخاص مختلفين من أبناء الموقع. . . ووضعنا كل ما استطعنا أن نحشد من أمتعة وبضائع فى شاحنات جاء بها التجار إلينا وقد باعوا لنا البضاعة بالدين حيث كنا آنذاك ندفع المال من خلال إيصالات مؤقتة (وهذه هى المناسبة التى عرفنا فيها ليدىادوس التى أوحى إلى ذكرها ما أشرت إليه فى فصل سابق من هذا الكتاب وتولينا بأنفسنا قسرا نقل البضائع وبالطبع كان هذا عسيرا على أنفسنا حيث إن الطريق التى نصعده من (سان يابلودى باو) إلى (بيكوفردى) (القمة الخضراء شديدة الانحدار ولا تتمكن من تسلقها إلا الشاحنات الخفيفة الأحمال والمزودة بدافرنسيل^(١) مزدوج أما شاحناتنا فقد توقفت فى الطريق ومن ثم كان علينا أن نحمل المؤن على ظهور البغال وظهور الرجال أيضا إن هذه الأيام قد شهدت عددا من تدابير الفصل حيث طرد من العصابة من المقاتلين الممتازين لأنه تزنج من أثر الكحوليات أثناء الحملة فى (ياو) مما تسبب فى تعريض رفاقه للخطر الجسيم. وترك آخر هو «صورفى سوتوس» مركزه بصفته رئيس فصيلة وانطلق متجها إلى ميامى حاملا رسالة توصية من (فيدل).

والواقع أن سوتوس لم يتمكن - بحال من الأحوال - من الانسجام مع السيرا ولم يكن رجاله يحملون له الحب بسبب عصيته واستبداده وقد كانت سيرته تتأرجح بين الفشل والنجاح.

(١) الديفرانسيل هو جهاز ينقل قوة المحرك إلى دولاب السيارة الخلفية وذلك لحفظ توازنها.

وفى ميامى كان موقفا مترددا على الأقل ثم سرعان ما عاد مرة أخرى إلى صفوفنا ومن ثم منحناه عفوا وغفرنا له أخطاءه التى ارتكبها سابقا ثم خان فى عهد (هوبرت ماتوس) وصدر ضده حكم بالسجن لمدة عشرين عاما بيد أنه نجح فى الهرب بالاتفاق مع أحد الحراس واتجه إلى ميامى وكان يقوم بإعداد وتجهيز الخطوات الأخيرة والنهائية لغارة من غارات القرصنة فى الأرض الكويتية عندما لقي مصرعه إثر صعقة كهربائية فى حادث أليم.

ومن بين الرفقاء الذين غادروا معسكرنا فى ذلك الوقت نذكر أيضا «مرسيليو فرناديس» الذى كان يقوم بتنظيم وإعداد وترتيب الحركة فى المدن وقد عاد إلى السهل بعد أن عاش بيننا فترة طويلة ..

وبلغنا (بينودل أجوا) فى العاشرة من سبتمبر وهى قرية صغيرة شيدت مبانيها حول مشرة فى قلب الغاب فى المايسترا.

وفى ذلك الحين كان على إدارتها رجل أسباني الأصل وهى تضم حفنة من العمال ولا يوجد فيها جندي واحد، وقد احتلنا القرية وكشف فيدل لأهلها عن خط سيره على اعتبار أنه لابد أن يكون هناك واحد منهم سيذهب لنقل حديثه إلى الجيش وقمنا بإجراء مناورة صغيرة من أجل الخداع والتمويه فيما كان رتل (فidel) يواصل تقدمه ناحية (سانتياجو) يعلم الجميع وأمام أنظار الكل تعرجنا أثناء ساعات الليل واحشدنا فى كمين نصبناه بانتظار جيش العدو.

ووزعنا الرجال بشكل يمكننا معه أن نرصد جميع شاحنات العدو ووسعنا نطاق المراقبة حتى الطريق الذى ينتهى من (ياو) إلى البيكو ثردى) - القمة الخضراء - على بعد عدة أميال قبل بينودل أجوا دون أن نهمل الطريق الأكثر سهولة الذى يصعد إلى المايسترا ولا يمكن أن تسلكه الشاحنات وكانت السرية التى تركزت على القمة الخضراء صغيرة جدا مسلحة ببنادق الصيد ولديها أوامر بإصدار إنذار عند

الضرورة.. حيث كانت تلك وسيلة رائعة للتراجع والانسحاب كنا ننوى فى الواقع أن نتبعها عقب انتهاء العملية وأسند إلى «إينخينيو، ميخيراس» برصد إحدى الطرق الخلفية التى تأتى هى أيضا من قطاع القمة الخضراء وبقي «لالوسردينياس» وفصيلته فى منطقة (زاياتو) لحراسة عدد من الطرقات المفتوحة من أجل توظيف الغابات وتنتهى على ضفة «البيلاوير» ولكن هذه الاحتياطات كانت غير ضرورية حيث كان العدو لكى يصل لهذه الطرقات أن يقوم بمواصلة السير الطويل فى قلب الجبل.

أضف إلى ذلك أنه لم يكن من عادات العدو أن يمشى فى رتل جنديا وراء الآخر من خلال الغابة وكلف «سيرو رندو» مع فصيلة بكامل أسلحتها بالدفاع عن مدخل سبيرا».

وانتظرنا الجيش على طول الطريق الصاعد من (جيزا) فى غاب على منحدر الجبل لكى نتمكن من مباغته الشاحنات ونركز عليها طلقات نيراننا وكان الوضع الذى وقع اختيارنا عليه يساعدنا على رؤية الشاحنات القادمة من مسافة.

وكانت الخطة بسيطة.. فسنطلق على العدو النار من الجانبين فنقوم بتجميد الشاحنة الأولى عند أحد المنعطفات ونطلق النار على كافة الشاحنات الأخرى حتى نوقف تقدمها والفصيلة التى تقوم بالعمل لابد أن تملك فى حوزتها أكفا وأحدث الأسلحة وقد أقبل بعض رجال الكابتن (راوول كاسترو مركادر) لتعزيزها.

وبقينا سبعة أيام تقريبا فى الكمين نتحلى خلالها بالصبر والتريث دون أن يتضح لنا أى شئ وفى اليوم السابع جاء من ينذر بأن العدو يقترب وبما أن الطرقات الصاعدة تتصف بالانحدارات الشديدة فقد ترمى لمسامعنا ضجيج الشاحنات التى كانت فى طريقها لشق الطريق الجبلى.. وقبل وقوع الاشتباك بحوالى عشرين دقيقة انهمرت الأمطار الشديدة وقد بللتنا بالماء ورغم ذلك فقد كان جنود العدو يتقدمون مهتمين بالمطر أكثر من اهتمامهم بإمكان وقوع هجوم عليهم وكان الرفيق الذى

كلفناه بفتح النار حاملا بندقية من طراز (تومسون) وقد فتح النار بالفعل لكن دون أن يصاب أحد.

وساد إطلاق النار وإذا بجنود الشاحنة الأولى قد أخذتهم الدهشة حيث باغتهم نيراننا وتملكهم الهلع بسبب هجومنا وراح كل منهم ينجو بنفسه ويلقى بكل جسده من الشاحنة على الطريق ويختفون وراء الصخور بعد أن قتلوا مقاتلا من كبار مقاتلينا هو شاعر طابورنا ويدعى «خوسيه دى لاكروس» «يوسف الصليب وكنا نسمة «كروستيو» الصليب الصغير.

واختفى جندى من جنود العدو تحت إحدى الشاحنات عند المنعطف ولم ينشأ أن نرفع رأسنا بسببه..

وكانت قد مضت دقيقة أو دقيقتان على بدء اندلاع المعركة حينما بلغت ساحة القتال فوجدت أن كثيرا من الرجال يقوم بعملية انسحاب فى تنفيذ أمر خاطيء، الأمر الذى يكثر وقوعه أثناء المعارك وعلى إثر ذلك تعرض أركيموس فونسيكا لإصابة فى يده عندما كان يتناول البندقية الرشاشة التى تولى عنها خادماها.

كان يجب أن نصدر أوامرنا وتعليماتنا بأن يعود الجميع إلى مراكز القتال وكان لابد أن نطلب من قوات «لالوسردينياس» (وافيخينيو أمينخيراس) أن تتعاون معنا.

وكان يوجد على الطريق مقاتل يدعى تاتين فعندما كنت أهبط هذا الطريق قال لى بصوت ينطوى على لهجة عنيفة إنه هناك تحت الشاحنة فلنذهب.. فلنذهب، «استجمعت شجاعتي وقد أصبت بصدمة قوية بسبب صرخاته الجبانة هذه ولكن حين حاولنا أن نقرب من جندى العدو الذى يطلق النار من تحت الشاحنة أدركنا أننا سوف ندفع ثمن شجاعتنا غاليا وبسبب تهورنا واستعجالنا.

وكان عدد شاحنات الجيش خمسا وهى تقل سرية واحدة وقد نفذت المجموعة التى يأمرها «أنطونيو لوبيز» التعليمات المعطاة لها بالألا تترك أى أحد يمر بعد اندلاع

القتال أحسن تنفيذ ورغم ذلك فقد تمكن عدد من الجنود بمقاومتها القوية من أن يحولوا دون تقدمنا.

ووصل (لالو) (وافيخينيو) لتشجيع وتعزيز قوتنا فاقحما الشاحنات وأزالا بؤرة المقاومة، وأخذ الجنود يهربون إلى المنحدر... بعضهم تشتت وبدا في حالة من الفوضى وبعضهم في شاحنتين أنقذوهما متخليين عن كافة الذخائر.

وبفضل «جيلرتوكالديرو» تمكنا أن نحصل على معلومات حول بعض خطط الأعداء وكان هذا الرفيق قد وقع أسيرا خلال مهمة استكشافية في قطاع آخر.

وظل معتقلا بعض الوقت وجاء به العدو إلى هناك ليقوم بتسميم فيدل وكان يكفى أن يصب كمية من السم في طعام قائد الثورة وحين سمع كالديرو الطلقات النارية نزل من الشاحنة مثل باقي الجنود ولكن بدلا من أن يهرب من النار راح يقدم نفسه إلينا في الحال وعاد إلى صفوفنا.

وعندما تحررنا الشاحنة الأولى وجدنا قتيلين ومصابا واحدا كان لا يزال يقوم بحركات مقاومة عندما بدأ في الاحتضار فأجهز عليه أحد رجالنا بكل برود.

وكان المسئول عن هذا العمل الوحشى مقاتلا أباد جيش باتيستا أفراد عائلته كلها.. فوجهت إليه تائيبا عنيفا دون أن أشعر بأن أقوالى يسمعها جندى جريح آخر كان يختفى تحت عدد من المعاطف وبقي فى داخل الشاحنة دون أن يحرك ساكنا فشجعته بأقوالى وبأننى لن أمس شعرة منه فإذا به يكشف عن وجهه القناع ويتوسل إلينا ألا نقتله.

وكانت ساقه مكسورة وكلما اقترب منه أحد مقاتلينا صرخ بأعلى صوته: لا تقتلوني... لا تقتلوني.

إن تشى يقول أنكم لا تقتلون الأسرى» وعندما انتهت المعركة قمنا بنقله إلى المنشرة وأوليناہ رعايتنا الطيبة أما فى الشاحنة الثانية فلم تنزل بالعدو إلا خسائر طفيفة ولكننا ربحتنا منها كمية كبيرة من الأسلحة.

هاك المغانم الختامية للمعركة: بندقية أتوماتيكية وخمس بنادق من طراز «جاراند» ورشاش ذو قواعد مع ذخائره وبندقية أخرى من طراز «جاراند» أيضاً اعتبر أفينخيو الذى كان يمثل مع رجاله جزءاً من رتل فيدل أن مساهمة فصيلته فى القتال كانت مساهمة حاسمة وأن له حقاً فى بعض الأسلحة التى ربحناها كغنائم.

ولكن فيدل ترك لى رئاسة هذه الفصيلة لمجرد رغبته فى أن يدعم سلطتنا وهكذا عمدت وبالرغم من جميع اجتماعات رجال أفينخيو إلى توزيع المغانم على رجال رتلى باستثناء بندقية جاراندا التى كان قد أخذها أفينجيو.

وأعطى الرشاش من طراز «براوننج» لانطونيو لوبيز لأدائه الرائع فى المعركة ووزعنا بنادق جاراندا على الملازم خويل أيجليسياس وفير يلس وأوفيانى ومقاتلين آخرين لا أذكر أسميهما وأشعلنا النيران فى الشاحنات الثلاث حيث كان يتعذر علينا استخدامها.

وفيما كنا نجتمع راحت الطائرات الحكومية تحلق وقد بلغها خبر الهجوم ولكن بضعة رشقات باتجاهها أجبرتها على الابتعاد وكان منجولو أحد الإخوة «ياردو» قد ذهب يبلغ (فيدل) باقترب الحرس الحكومى، ولكننا قررنا أن نبعث إليه موفداً آخر يحمل له نتائج المعركة.

وبعثنا إلى (سيرو) نقول له إن واجبه أن ينسحب من موقعه وكلف بهذه المهمة «مونجو مارتينس».

وبعد لحظات قليلة سمعنا طلقات نارية حيث اكتشف عدد من رجالنا المسلحين بمجموعة من بنادق الصيد جندياً يتقدم متخفياً فطلبوا منه أن يتوقف بيد أنه حاول أن يقاوم فأطلقوا نحوه النار فهرب تاركاً بندقيته وحمل إلينا الرجال البندقية وهى من طراز «سبرنجفيلد» للتدليل على عملهم ويقتطعهم..

وقد استغربنا أن لا يزال هناك جنود مشتبون فى القطاع ورغم ذلك دخلت البندقية فى حسابنا وبعد يومين اثنين رأنا «مونجو مارتينس» يعود وروى لنا أن جنود

الأعداء باغثوه وأطلقوا عليه النار ببنادق صيد وأنه اضطر للهرب لأنه تعرض للإصابة وكانت تبدو على ملامحه آثار الفزع.

وإذن علمنا من أين جاءت بندقية (سيرنجفيلد) التي غنمها رفاقنا من بين أنياب العدو.

كانت النتيجة أن رفيقنا الجريح ظن جنود الحرس قد اقتربوا منه فسلك طريقا أخرى وتوارى فى البرية دون أن يتمكن من إبلاغ «سيرو ردوندو» بمعركتنا ودون أن ينقل إليه الأمر بالانسحاب وفى اليوم التالى أرسل إلينا (سيرو) برسول فكررنا عليه الأمر.

* * * *

وفيما كانت الطائرات من طراز «ب ٢٦» تحلق فوق المنشرة على ارتفاع منخفض للبحث عن الضحايا كنا نحن نتناول إفطار الصباح بكل هدوء.

لقد جلسنا فى اتجاهات مختلفة من المبنى نشرب الشوكولاتة الساخنة التى تقدمها إلينا سيدة المنزل المضطربة وتحلق الطائرات لايتهى وانتهى الأمر بالطائرات إلى الاختفاء وكنا على وشك أن نرحل بشكل هادئ للغاية عندما شاهدنا على طريق سيريرا وهى التى كان سيرو يراقبها قبل بضع ساعات، أربع شاحنات مليئة بالجنود وكان هؤلاء مجموعة أخرى جاءت فى الاتجاه المعاكس تنضم إلى المجموعة الأولى.

وكان بمقدورنا أن ننقض عليهم بكمين مشابه ولكن الوقت داهمنا حيث كان عدد كبير من رجالنا قد عاد إلى مواقع أكثر سلامة وأمنا فأطلقنا النار مرتين فى الهواء.. وكانت هذه علامة للانسحاب - ومن ثم رحلنا فى هدوء تام وفى هذه المعركة الهامة بما كان لها من أصداء وتداعيات سقط ثلاثة قتلى وجرح واحد فى

صفوف العدو وأسروا بالإضافة إلى ذلك جنديا واحدا اعتقلته فصيلة «أفيخينيو» في اليوم التالي عندما فتشنا المنطقة تفتيشا متناهي الدقة للمرة الأخيرة.

وكان هذا الأسير العريف «أليخاندرى» الذى بقى معنا حتى نهاية الحرب بوصفه طباحا.

وفى المكان نفسه دفنا «كروستيو» وسط الحزن الشديد والعام الذى سيطر على جميع الرجال الذين فقدوا فيه رفيقا ممتازا كما فقدوا فيه شاعرهم الفلاح.

وفى هذه المعركة ينبغى أن نشير إلى ما قام به «أفيخينيو أميخيراس» و«ولالو سردينياس» والكابتن (فيكتورمورا) والملازم (أنطونيو لونيز) ومجموعته ودرميرو أسكالونا وأركميدس فونيكاس ولهذا الأخير سلمنا الرشاش ذا القواعد ليستعمله بعد أن تشفى يده.

أما من جانبنا فقد فقدنا قتيلا وأصيب أحدنا بجرح طفيف كما أصيب بعضنا برضوض وخدوش دون أن ننسى الحروق التى أصابت مونجو المسكين.

وغادرنا «بينو دل أجوا» بعد أن اتبعنا خطوط سير مختلفة وكان علينا أن نجتمع فى جهة القمة الخضراء ونعيد هناك تنظيم أنفسنا بانتظار وصول الرفيق فيدل.

وقد أظهر لنا تحليل المعركة أنها لم تكن تخلو من أخطاء كبرى ارتكبت وإن كانت قد أحرزت نصرا سياسيا وعسكريا كبيرا فقد كان يتوجب استغلال عنصر المفاجأة بشكل واسع من أجل إبادة جنود الشاحنات الثلاث الأولى نهائيا أضف إلى هذا وذاك أن أمرا بالانسحاب كان خاطئا صدر بعد بدء القتال الأمر الذى أدى إلى إضعاف السيطرة على الرجال وخفف حميتهم وحماسهم للقتال. . . ولاحظنا فتورا فى الاندفاع للسيطرة على الشاحنات التى لم يكن يدافع عنها من جنود العدو إلا عددا قليلا.

يضاف إلى ذلك أيضا أننا عرضنا أنفسنا للخطر بحرق إذ قضينا ليلة كاملة في
المنشأة وأن انسحابنا الأخير حدث بفوضى عارمة وعشوائية شديدة.
وكل هذا أوضح لنا مدى الضرورة الملحة والرغبة العارمة من أجل تطوير
وتحديث نظام قواتنا وإعدادها إعدادا أفضل للقتال - وهي المهمة التي وهبنا لها
أنفسنا في الأيام التالية.

* * * *

كاسترو رئيسا للوزراء

كانت حركة السهل كلها تتخذ العدة بشكل محموم لإعلان إضراب ثورى عام. وتشكلت هيئة هى الجبهة العمالية الوطنية تديرها وتوجهها من بعيد حركة ٢٦ يوليو وقد وقعت فى بواكيرها فريسة مرض الفتوية.

ومن جانبهم أظهر العمال شيئا من الملل نحو تلك المنظمة الوليدة التى تلونت بألوان (٢٦ يوليو) والتى كانت أهدافها ومراميها راديكالية بشكل حاد وعنيف وهو ما لا يتواءم مع ظروف وأحوال تلك المرحلة.

وقبل ٩ إبريل ببضعة أيام أصدر فيدل كاسترو بيانا أخيرا وجه فيه تهديدات إلى جميع الذين لم يتخذوا طريق الثورة . . . وبعد وقت قصير أتبعه بيان آخر وجهه إلى عمال كوبا جميعا يحثهم من خلاله على الوحدة فى قلب الجبهة الوطنية أو خارجها ذلك أن فيدل تنبه إلى أن الجبهة هى فقط التى سوف تبقى دوما لا تقوى على إعلان الحرب.

واتجهت قواتنا إلى الميدان ونزل الكابتن (كاميلو سينفويجوس) قائد الطابور الرابع آنذاك . . إلى سهول أورنيتى من ناحية (بايامو) حيث أسرع فى فرض ونشر الاضطرابات والقلق والموت بين صفوف الأعداء.

ومع ذلك جاء (٩ أبريل) وأصبح نضالنا كله دون ثمار.

حيث إن الإدارة الوطنية للحركة ارتكبت خطأ جسيما فى مبادئ وقيم ومنظومة الكفاح الشعبى ومن ثم حاولت أن تبدأ فى تفعيل إضراب دون أن نعلن عنه فى السابق بشكل مفاجئ بواسطة إطلاق طلقات نارية.

وكما كان متوقعا رفض العمال المشاركة، ومات عدد هائل من كبار رفقائنا دون مقابل فى طول البلاد وعرضها . . لقد كان يوم ٩ أبريل نموذجا للفشل الذريع حيث

أخفقتنا فى أن نزعزع أركان النظام لحظة واحدة وبعد ذلك اليوم الرهيب استطاعت أن تسحب قواتها وتحشدتها بالتدريج فى أورنىتى من أجل نشر الدمار حتى فى السيرا .

فكان من واجبنا تعزيز دفاعنا باستمرار لكى نتوغل أكثر عمقا فى الغابات وضاعفت الحكومة بدورها عدد الفصائل التى وضعتها فى حالة تأهب قصوى لمواجهةنا حتى أصبح تحت إمرتها ١٠ آلاف جندى فى المنطقة . فى ذلك الوقت بدأ هجوم ٢٥ مايو فى قرية (لاس مرسيدس) التى كانت نقطتنا الأمامية وكان ضعف مواردنا وقلة إمكاناتنا حيث كنا نملك ٢٠٠ بندقية فى حالة جيدة للقتال ضد ١٠ آلاف سلاح من كل نوع . . فما أوسع الفرق، ومن جهة أخرى كان يمكن بهذه المناسبة قياس معدل الملل الذى كان يديه جيش باتيستا فى القتال لقد كان رفقاؤنا يقاتلون كالأسود خلال يومين متواصلين بنسبة تعادل واحد إلى خمسة عشر واضطر العدو إلى استخدام الدبابات والمدافع والطيران لإجبارهم على ترك القرية وكان رجالنا القليلو العدد بقيادة الكابتن «أنجيل فرديسيا» الذى قتل بعد شهرين فى قلب ميدان القتال .

وفى أثناء ذلك تسلم فيدل كاسترو رسالة من العميل الخائن «أولوخيو كانيو» الذى كتب بدهاء ومراوغة كعاداته بوصفه سياسيا قدرا غير شريف وأيضا كرئيس لعمليات العدو إلى قائد الثورة يقول له إن الهجوم سيستمر بأى وسيلة ولكن سيوفرون (الرجل) (أى فيدل) ينتظر النتيجة النهائية وجرى الهجوم مجراه فعلا وبعد استمرار المناوشات والاشتباكات طوال شهرين ونصف الشهر فقد العدو أكثر من ألف رجل بين قتيل وجريح وأسير ومفقود وترك لنا ٦٠٠ قطعة سلاح منها دبابة واحدة و١٢ مدفع هاون و١٢ رشاشا من ذوى القواعد فضلا عن عشرين بندقية رشاشة وكمية كبيرة من الأسلحة الأوتوماتيكية دون أن نشير إلى الكمية التى لا

تصدق من التجهيزات والذخائر من كل نوع أضف إلى ذلك ٤٥٠ أسيرا قمنا بتسليمهم إلى الصليب الأحمر في نهاية الحملة.

هذا الهجوم الشهير الأخير على السيرا مايسترا) قد كان ضربة قاصمة لجيش باتيستا وإن كان هذا الجيش لم يكن قد قال كلمته بعد، . . . وعاودنا الصراع مرة أخرى وبدورنا أكملنا خططنا الإستراتيجية النهائية وتقرر أن نشن هجوما في ثلاث نقاط في سانتياجو كوبا الخاضعة لحصار مطاط وفي لاس فيلاس حيث يجب أن أتوجه، وفي «ينار دل ريو» في الطرف الآخر للجزيرة حيث ينبغي أن يتوجه «كاميلو سيفويجوس على رأس طابوره الثانى المسمى (طابور انطونيو ماسيو) ولم يتمكن (كاميلو) من تنفيذ القسم الثانى من برنامجه إذ أن ضرورات الحرب ألزمته بالبقاء والاستمرار فى (لاس فيلاس) وحينما قمنا بالإجهاز على الفصائل التى شنت هجومها الأخير فى السيرا مايسترا) وأقمنا الجبهة على خطوطها الطبيعية وعززنا قواتنا بالرجال والمعنويات تقرر البدء فى الانقضاض على لاس فيلاس بالمقاطعة الوسطى «ومن الناحية الإستراتيجية كانت مهمتى الرئيسية أن أقطع بانتظام جميع طرق المواصلات بين الجزيرة.

وتسلمت أمراً يقضى بتدشين شبكة اتصالات مع جميع الفئات والاتجاهات السياسية التى يمكن أن توجد فى مرتفعات المنطقة الجبلية وكانت لى فى النهاية صلاحيات كبيرة وواسعة لحكم القطاع الذى كنت مسئولاً عنه كحاكم عسكري وعلى ضوء ذلك وتقديرا منى بأننا سوف نقطع المسافة فى أربعة أيام. . . كنا على وشك الانطلاق فى الشاحنة يوم ٣٠ أغسطس ١٩٥٨ حينما وقع حادث لم يكن متوقعا فعرقل خططنا فى تلك الليلة جاءنا رسول يحمل ثيابا عسكرية وكمية من البترين التى سوف تحتاج إليها الشاحنات التى كانت تتأهب للسير.

ولكن فى الوقت ذاته حطت طائرة تنقل شحنة أسلحة فى مطار قريب للغاية من الطريق، وقد اكتشفنا الطائرة عند هبوطها رغم ظلام الليل البهيم فأمطر المطار بوابل

عنيف من طلقات المدفعية استمر من الساعة العاشرة مساء حتى الخامسة صباحا . .
 وفي تلك الاثناء أضرمنا النار فى الطائرة كى لا تسقط فى أيدى العدو أو يستمر
 القصف المدفعى طوال ساعات النهار مع نتائجه السيئة بالنسبة لنا . . . وهجمت
 قوات العدو على المطار واعترضت الموفد الذى يحمل الكثير من كميات البترين
 حتى وجدنا أنفسنا على الأقدام . وعلى ضوء ذلك بدأنا فى السير فى ٣١ أغسطس
 دون شاحنات أو حتى خيل وكنا نرجو مع ذلك أن نلتقى بالشاحنات بعد أن نعبّر
 الطريق من «مانزانو» إلى (بايامو) ولقد وجدناها بالفعل . . ولكن فى أول سبتمبر
 داهم المنطقة إعصار قوى أدى إلى قطع خطوط وشبكات الاتصالات باستثناء الطريق
 الرئيسى وهو الطريق الوحيد الممهد فى تلك المنطقة الكويتية .

إذن لنستمر فى المضى قدما حيث ينبغى التخلّى عن الانتقال فى الشاحنات ومنذ
 تلك اللحظة عاودنا مرة أخرى السير على الأقدام أو على ظهور الخيل ومشينا
 مثقلين بالذخائر وبيازوكا مع ٤٠ بندقية وكل ما يستدعى السير مسافات طويلة
 وتدشين مخيم عاجل .

وجاءت أيام شاقة على أرض «أورنيتى» التى هى مع ذلك أرض صديقة . لقد
 كان ينبغى عبور أنهار ثائرة وقنوات وجداول تحولت إلى أنهار كما كان يجب
 مواصلة الكفاح دون توقف لمنع ابتلال الذخائر والأسلحة والقنابل بالماء وضرورة
 الحصول على خيل جديدة وترك الخيل المتعبة والابتعاد عن المناطق المزدحمة كلما
 ابتعدنا عن منطقة «أورنيتى» ومشينا نجر أذيال الإرهاق والعناء فى أراضى غمرتها
 المياه تدهمنا جحافل الحشرات والبعوض التى أرعجتنا طوال ساعات الراحة وكنا
 نتناول القليل من الطعام الذى كان ردينا ونشرب مياه الجداول المناسبة فى المستنقعات
 أو مياه المستنقعات نفسها . . وكنا نسحب أقدامنا بشكل يدعو للشفقة والعطف خلال
 تلك الأيام الفظيعة وبعد انطلاقنا بأسبوع عند عبورنا جدول (خوبابو) على الحد

الفاصل بين مقاطعتي «كاماجوى» وأورنيتى وكان الإجهاد قد استولى علينا . أضف إلى ذلك أن جيشنا كان يعاني نقصا فى الأحذية حتى كان كثير من الجنود لدينا يترجلون حفاة القدمين فى الحفر الموحلة جنوبى «كاماجوى» وفى ليل ٩ سبتمبر كانت مقدمتنا تتسلل إلى مكان يسمى «لافدرالى» حتى وقعت المقدمة فى كمين العدو وسقط رفيقان شجاعان قتلى فى هذا الكمين ولكن الأسوأ من ذلك أن قوات العدو اكتشفت أمرنا فأرهقتنا حتى طار النوم من أعيننا . . وبعد معركة قصيرة أبيدت الحامية الصغيرة التى كانت هناك مقابل أربعة أسرى من رجالنا . . وكان ينبغي مضاعفة الحذر فضلا عن أن الطيران أصبح الآن يعرف خطوط سيرنا بشكل عام .

وبعد يومين وصلنا إلى مكان يدعى «لاجراندى لاجونى» (المستنقع الكبير) فى الوقت نفسه الذى وصل فيه كاميلو وطابوره فى مستوى صحى أحسن من مستوانا . . وهذا المكان جدير بأن يبقى فى ذاكرتنا حيث جيوش الناموس لا قبل لنا بها وهى التى لدغتنا دون توقف حتى كانت ساعات الراحة تعنى لنا ساعات العذاب والشقاء والمعاناة .

بعد ذلك ترجلنا على الأقدام أياما عسيرة على النفس خلال مساحات منعزلة لا يوجد فيها غير الماء والطين الموحل يفترسنا الجوع ويدهمنا العطش . . لا نكاد نستطيع التقدم بعد أن تصلبت سيقاننا وناءت أجسادنا بفعل الأسلحة الثقيلة وعادونا السير على ظهور الخيل الرائعة التى تركها لنا (كاميلو) ليستقل هو شاحنات ولكننا مضطرون لتركها إلى جانب مصنع السكر المركزى «ماكارنيو» ولم يصل الأدلاء الذين كان يجب أن يصلوا إلينا فاندفعنا فى المغامرة لا أكثر ولا أقل ، ووقت طليعتنا على إحدى نقاط العدو فى مكان يدعى «الرفقاء الأربعة» وكان ذلك بداية وقوع معركة رهيبة وانبجحت خيوط الفجر فاستطعنا بعد مشقة وعناء أن نحشد معظم قواتنا فى الغابة الصغيرة كان العدو يتقدم نحونا وكان لابد من القتال طويلا حتى نسمح

الذين تخلفوا منا فرصة المرور بخط حديدى باتجاه أرض المقاومة فى البرية.. وعندئذ كشفنا طيران العدو.. وراحت طائراته من طراز (ب ٢٦) و(س ٤٧) (وس ٣) الكبيرة للاستطلاع ومعها طائراته الصغيرة تمطرنا بوابل من النيران على محيط لا يكاد قطره يبلغ ٢٠٠ متر وبعد هذا الطوفان انسحبنا.. وفقدنا رجلا من رجالنا بفعل القنابل التى انهمرت علينا كالطر وحملنا عددا من الجرحى منهم القومندان «سيلفا» الذى أبلى بلاء حسنا حتى نجح الثورة بكتف مكسورة، وفى اليوم التالى تحسنت الأمور بعض الشيء حيث أخذ بعض المتخلفين منا يظهرين واستطعنا أن نجتمع مرة أخرى كل قواتنا باستثناء عشرة رجال دخلوا فى طابور (كاميلو) ووصلوا معه حتى الجبهة الشمالية من مقاطعة (لاس فيلاس) إلى ياجوفاي.

وفى خلال المصاعب والمتاعب التى تعرضنا لها لم يحجب عنا الفلاحون أبدا مساندتهم ودعمهم وتأيدهم.. فقد كان هناك دائما فلاح واحد يقودنا كمرشد أو دليل يساعدنا على تدبير الأطعمة حتى لا نغوت صرعى للجوع، طبعاً لم يكن هذا التأيد الإجماعى من جانب أهالى «أورنيتى»، ولكن كان هناك دائما أناس لا يملون من مساعدتنا، وحدث أن بعضهم قد خانتنا حين كنا نعبر أرض إحدى المزارع ولكن هذا لم يكن على أية حال عملاً مركزاً ضدنا من جانب الفلاحين ولكن لابد من أن نفهم أن ظروف حياة هؤلاء قد تحولوا بسببها إلى عبء، وقد أربع الذين خانونا إمكانية ضياع قوتهم اليومى فأطلعوا سيدهم على الأمر أثناء مرورنا فى أرضه ولم يكن أمام هذا السيد سوى القيام بإبلاغ السلطات العسكرية عن طيب خاطر.

وبعد ظهر يوم من الأيام سمعنا من خلال الراديو الصغير الذى ننقله معنا (تقريراً قدمه الجنرال «فرنسيسكو تابرينا دولس») حيثئذ بكل صلف وغرور الذى يتباهى بشجاعته.. وقد أعلن فيه تدمير المجموعات الصغيرة التى يترأسها «تشى

جيفارا» وقائمة طويلة بالقتلى والجرحى والمقاتلين الذين لم يتعرضوا لأذى... وكل هذه الأخبار مصدرها الأوراق التى عثروا عليها من حقائبنا التى وقعت فى يد العدو بعد اشتباكنا الرهيب معه قبل بضعة أيام... وقد خلط معها معلومات مغلوطة جمعتها أركان حرب الجيش الحكومى... ولقد أشاع نبأ موتنا مناخا يثير الضحك والسخرية فى صفوف قواتنا الصغيرة.

ورغم ذلك فقد كان التشاؤم يداهم رجالنا بالتدريج حيث إن الجوع والعطش والتعب والإحساس بالعجز أمام قوات العدو الذى يزيد حصاره لنا أكثر فأكثر... ومرض الأقدام المريع بوجه خاص، وهو يخطوها المرء إلى الأمام كل هذا حول مجموعتنا إلى مجموعة من الأشباح... وكانت حالة رجالنا الصحية تزداد سوءا يوما بعد يوم... والطعام الذى كنا نتناوله يوما ولا نتناوله يوما آخر وربما لا نتناوله يوما ثالثا لم يكن من شأنه أن يحسن وضعنا... وقد قضينا أقسى أيامنا محاصرين بالقرب من مصنع السكر المركزى (باراجو) فى المستنقعات الموبوءة يرهقنا الطيران دون أن تكون بحوزتنا نقطة ماء تصلح للشرب ودون أن يكون لدينا حصان واحد يساعد الضعفاء على عبور هذه الأرض الموحلة وقد تشققت أحذيتنا بهذه المياه المالحة وجرحت النباتات أقدامنا الحافية، وعندما كسرنا حصار «باراجو» لنبغ طريق خوكارو - مورون الشهير - وهو المكان التاريخى الذى كان ميدانا وساحة لصدامات دامية بين الوطنيين والأسبان أثناء حرب الاستقلال... كنا بالفعل فى وضع مفرج وشنيع... ولم يكن لدينا الوقت الذى يكفى لكى نسترد عافيتنا حيث إن قسوة المناخ فضلا عن هجمات العدو قد أجبرتنا على استئناف السير... وكان التعب وتراجع الحماس يستحوذان أكثر فأكثر على كافة رجالنا... ورغم ذلك ففى أحوال الأوقات عندما لم نكن نستطيع أن نحمل الرجال المرهقين على التقدم إلا بعد الإهانة أو التوسل... كانت تكفيننا مشاهدة أى شئ فى الأفق البعيدة كى تجعلهم يستردون

شجاعتهم وتنفخ روحاً جديدة فيهم.. وكان هذا الشيء بقعة زرقاء إلى الغرب بقعة مرتفع «لاس فيجاس» الجبلية الزرقاء التي شاهدها رجالنا للمرة الأولى.

ومنذ هذه اللحظة بدأت ألوان الضيق والحرمان تبدو للرجال أخف وقعا حتى أن كل شيء أخذ يبدو سهلاً يسيراً وقد نجونا من الحصار الأخير بعبورنا جدول «خوكارو» سباحة وهو الذى يفصل بين مقاطعتي (كاماجورى) (ولاس فيلاس) وشعرنا بأننا قد انتهينا من الظلمات.

وبعد مرور يومين كنا فى قلب سلسلة الجبال الممتدة من (ترينيداد) إلى سانتكى (سييرنيوس) فى مأمن من الأخطار واسترحنا يومين بعد ذلك.. حيث كان علينا أن نواصل سيرنا فوراً ونقوم بما ينبغى القيام به للحيلولة دون الانتخابات التى كان يجب أن تجرى فى ٣ نوفمبر. وقد بلغنا منطقة لاس فيلاس» الجبلية يوم ١٦ نوفمبر.. فلم يكن لدينا إلا قدر بسيط من الوقت من أجل القيام بالمهمة الجبلية.

ومنذ أن وصلنا إلى جبل «الأسكمبراى» كان علينا أن نرهب جهاز الديكتاتورية العسكرية وبالذات شبكة مواصلاتها وكان هدفنا المباشر منع حدوث الانتخابات وهو عمل شاق بالنظر إلى قصر الوقت الذى لدينا وبالنظر أيضاً إلى الاختلافات فى داخل الحركة الثورية والمنازعات العنيفة التى كلفت الثورة فى النهاية ثمناً باهظاً بما فى ذلك عدد من الأرواح البشرية وكان علينا أن نشن هجوماً على القرى الصغيرة المجاورة لمنع عقد الاجتماعات ووضعنا خطة لكى نهاجم فى وقت واحد كلا من «كابايجوان» و(فومتو) و(سانكتى سييرتيوس) الواقعة فى السهول الغنية فى قلب الجزيرة بينما تكون حامية «جنيادى ميراند» قد توجهت إلى الجبال. ثم نهاجم حامية «باناو».. وفى الأيام التى سبقت ٣ نوفمبر أظهرنا نشاطاً فائقاً فهاجمت طوايرنا فى جميع الاتجاهات جاعلة إقبال «كاميلو سينفويجوس» فى شمالى المقاطعة الحركة الانتخابية فقد توقف كل شيء.. من نقل جنود باتيستا إلى حركة النقل التجارى

وفى (أورنيتى) لم يجر اقتراع تقريبا . . أما فى «كاما جواى» فكانت نسبة أعلى بقليل . . وفى المنطقة الغربية لوحظ برغم كل شىء عدد كبير من الممتنعين . . وجرى الإقناع غريزيا فى (لاس فيلاس) إذ لم يكن بعد قد أتيح لنا الوقت الكافى لتنظيم مقاومة الجماهير السلبية ونشاط حرب العصابات فى وقت معا .

وقد جعلت كثرة الهجمات على خطوط المواصلات الموقف فى (لاس فيلاس) بالغ الدقة والخطورة . . ولدى وصولنا غيرنا بالكلية أسلوبنا فى الكفاح فى المدن حيث كنا فى كل مرحلة من مراحل السير نقوم بنقل أفضل أفراد ميلشيا المدن إلى معسكر تدريب لكى يتعلموا فيه تكتيكات فى التخريب أتى ثماره فى ضواحي المدن .

وخلال شهرى نوفمبر وديسمبر ١٩٥٨ أقفلنا الطرقات شيئا قشيثا . . وأغلق الكابتن «سيلفا» أغلاقا تاما الطريق الممتد من «ترينيداد» إلى سانكتى سيريتوس» وتضررت الطرق الرئيسية بصورة خطيرة حينما قطع الجسر القائم على «توينيكو» دون التمكن مع ذلك من تخريبه . . وقطع الخط الحديدى الرئيسى فى عدة نقاط : فشبكة الخطوط الجنوبية قطعتها الجبهة الثانية، والشبكة الشمالية أغلقتها قوات «كاميلو سيفويجوس» وهكذا أضحت الجزيرة مقسومة إلى قسمين . . وكانت منطقة «أورنيتى» أكثر المناطق توترا وهى وحدها كانت تتلقى بواسطة الجو والبحر مساعدة حكومية تتضاعف اضطرابا . . وتكاثرت لدى العدو أعراض التفكك والانهييار والتحلل .

ومنذ ١٦ يناير جعل قطع الجسور وطرق المواصلات الأخرى، الحكم الاستبدادى فى وضع سيئ . . فكيف يدافع فى مثل هذه الظروف عن المراكز الأمامية وحتى عن مراكز الطريق الرئيسى؟ وفى فجر ١٦ يناير نصف الجسر القائم على الطريق الرئيسى فوق نهر فالكون وقطعت عمليا المواصلات بين (لاهافانا) والمدن الواقعة إلى الشرق من (سانتا كلارا) كما أن عددا من القرى الصغيرة ومنها

(فومتو) وهى أقصى هذه القرى إلى الجنوب حاصرتها قواتنا وهاجمتها.. وقد قاوم قائد المنطقة مقاومة حسنة نوعا ما خلال بضعة أيام.. ولكن على الرغم من تخليق الطيران فوق جيشنا الثائر لم تتمكن قوات الديكتاتورية من الصمود وقد أنهارت معنوياتها من التقدم لإنقاذ رفقاءها المحاصرين وحين رأى هؤلاء عدم جدوى أية مقاومة استسلموا وانتقلت أكثر من ١٠٠ بندقية إلى جانب الحرية.

وحتى لا ندع للعدو فرصة للتنفس قررنا أن نشل الطريق الرئيسى فى الحال، وفى ٢١ يناير قمنا بالهجوم فى (وقت واحد) على «كاباييجوان وجوايوس» وبعد عدة ساعات استسلمت «جوايوس» وتبعها بعد يومين «كاباييجوان» وجنودها التسعون، وفى كاباييجوان رأينا عجز الديكتاتورية التى لم ترسل إلى المحاصرين أى مدد من المشاة فى أى وقت من الأوقات.

وهاجم «كاميلو سيفويجوس» عددا من القرى الصغيرة فى شمالى «لاس فيلاس» بينما كان يضرب الحصار حول «ياجواخاى» آخر حصن لقوات الطغيان بإمرة كابتن من أصل صينى قاوم أحد عشر يوما مجمدا قوات القطاع الثورية بينما كانت قواتنا قد مضت ناحية الطريق الرئيسى باتجاه «سانتاكلارا» عاصمة المقاطعة.

وبعد سقوط «كاباييجوان» هاجمنا «يلاسيثاس» التى استسلمت بعد يوم واحد.. وقدمت لنا هيئة الإدارة الثورية مساعدة كبيرة.. وبعد الاستيلاء على «يلاسيثاس» حررنا بسرعة «رميديوس» وكابياربين وهى (مرفأ هام) على الساحل الشمالى. وأظلم الموقف بالنسبة للديكتاتورية.. وكنا متصرين دون انقطاع فى (أورنيتى) وقد هزمت جبهة «الأسكامبرى» عددا من الحاميات الصغيرة وغدا «كاميلو سيفويجوس» سيطر على الشمال..

وعندما تراجع العدو منسحبا من (كاما خوانى) دون أن يظهر أى مقاومة كنا على استعداد لشن الهجوم النهائى على عاصمة (لاس فيلاس) أى (سانتاكلارا)

وهى مركز للسكك الحديدية وعقدة مواصلات شديدة الأهمية تحيط بها رواب صغيرة جرداء احتلتها قوات المستبد الغاشم مسبقا).

وكنا قد حصلنا على عدد كبير وضخم من البنادق عندما بدأنا بل كنا قد استرجعنا أسلحة ثقيلة ولكن بغير ذخائر وكان لدينا بازوكا دون قنابل ولا خيار لدينا أمام قتال عشر دبابات، ولكننا كنا نعلم أن أفضل طريق للتصدى لها هو دخول الأحياء المكتظة بالسكان.. حيث تتضاءل فعالية هذا العتاد إلى حد كبير.

وبينما أخذت قوات هيئة الإدارة على كاهلها مهمة الاستيلاء على الثكنة رقم ٢١ التى تتبع الحرس الريفى قصدنا نحن إلى فرض حصار على جميع النقاط المحصنة تقريبا فى «سانتا» ورغم ذلك فقد وجهنا أكبر جهودنا ضد المدافعين عن القطار المصفح الذى يقع على مدخل طريق «كاماخوانى» وهو موقع يدافع عنه الجيش بقوة.

وفى ٢٩ يناير بدأت المعركة وفى اللحظات الأولى تم استخدام الجامعة كقاعدة للعمليات وأقمنا بعد ذلك مقر قيادتنا العامة أقرب إلى قلب المدينة..

وكان رجالنا يقاتلون ضد قوات تدعمها وحدات مصفحة ويحملونها على الفرار.. ولكن عددا كبيرا دفع أرواحه ثمنا لأعمال بطولية حيث امتلأت المقابر بجثث القتلى والجرحى يملئون المستشفيات المرتجلة، وإنى أذكر حادثة هامة تمثل نموذجا لحالة قواتنا المعنوية أثناء هذا الهجوم الأخير. فلقد وجهت اللوم إلى جندى كان ينام فى أثناء اندلاع المعركة فأجابنى إنهم قد نزعوا منه سلاحه لأنه ترك عيارا ناريا ينطلق منه وقلت له بأسلوبى المعتاد «اذهب إلى الخط الأول صفر اليدين وابحث لنفسك عن بندقية أخرى إذا استطعت أن تفعل ذلك.

وفى (سانتا كلارا) بينما جثت أواسى الجرحى فى المستشفى العسكرى أمسك
بيدى جريح على فراش الموت وقال لى «هل تذكر يا قومندان؟ لقد أرسلتنى إلى
«رميديوس» لآتى بسلاح لى... وقد نجحت فى الحصول عليه».

وكان هذا الجريح هو المحارب الذى أطلق العيار النارى فى الهواء.. وقد مات
بعد دقائق وبدا لى أنه سعيد لأنه أكد شجاعته.. أنهى جيشنا الثأر وبقيت روابى
«كايرو» تقاوم واستمرت المعركة طوال يوم ٣٠ يناير وفى الوقت نفسه سيطرنا على
نقطة بل نقاط متعددة من المدينة وكانت المواصلات قد انقطعت بين قلب «سانتا
كلارا» والقطار المصفح، وعندما وجد محتلو قلب المدينة أنهم محاصرون على
روابى كايرو حاولوا الفرار بواسطة السكة الحديد واختاروا الخط الذى كنا قد احتطنا
بنسفه من قبل وهكذا خرجت القاطرة ومركبات عديدة عن الخط واندلعت معركة
هامة للغاية.. وأرغم جنود القطار المصفح على تركه بقذائف «كوكتيل مولوتوف»
وعلى الرغم من تحصينهم الرائع فلم يكونوا رغم ذلك قادرين على القتال إلا عن
بعد انطلاقا من مواقع مناسبة وضد عدد غير مسلح عمليا، على الطريقة التى كان
يتجهجها المستعمرون مع هنود غربى أميركا، أما وقد تم الهجوم على القطار من
جانب رجال يحتلون أماكن مجاورة ويقذفون من مركبات قريبة جدا أوعية البنزين
الملتهب.. فقد تحول بنقل ألواح الصفيح إلى فرن حقيقى للجنود.

وبعد عدة ساعات استسلم جميع ركاب القطار من مركبات الاثنتين والعشرين
ومدافعه ورشاشاته المضادة للطائرات وما فيه من كميات خيالية من الذخائر
واستطعنا أن نستولى على محطة الكهرباء المركزية وعلى كل القسم الشمالى الغربى
من المدينة.. وأذعنا على موجات الأثير أن «سانتا كلارا» أصبحت تقريبا فى أيدي
الثورة، وخلال هذه الإذاعة التى أعطيتها أهمية بوصفى قائدا عاما لقوات لاس
فيلاس المسلحة آلمنى وأحزننى أن أبلغ الشعب الكوبى مقتل الكابتن «روبرتو

رودريجس» (راعى البقر الصغير) الصغير سنا وقامة (رئيس فرقة الانتحاريين) الذى دفع حياته ثمنا من أجل الحرية وجاهد فى سبيلها كثيرا ولقد كانت فرقة الانتحاريين مكونة من المتطوعين الأكفاء ومن الذين تنبض الثورة فى قلوبهم وتجرى فى عروقهم كالدماء ومع ذلك فحين كان يتعرض رجل منهم للقتل كما كان يحدث فى كل معركة - يعين مرشح جديد مكانه فى الفرقة وقد يقضى عنها بعض المرشحين فلا يستطيع هؤلاء أن يخفوا ما بهم من ألم وحزن ولا أن يملكوا أنفسهم من البكاء . . . وكم كان رائعا مشهد أولئك المحاريين النبلاء بلامحهم السمراء يدعون شبابهم وقد أذرفوا دموع اليأس لأنهم لم ينالوا شرف اختيارهم لمكان المعركة والموت الأول .

وبعد ذلك سقط مركز الشرطة وسُلمنا الدبابات التى كانت تدافع عنه ثم جاء الاستسلام السريع من ناحية الثكنة رقم ٣١ للقومندان كوبيلا فيما كان السجن وقصر العدل وقصر حكومة المقاطعة تستسلم لنا وكذلك الفندق الكبير حيث استمر المحاصرون يطلقون أعيرة النار من الطابق الثانى حتى انتهى القتال وفى هذا الوقت لم يتبق فى أيدي الديكتاتورية إلا ثكنة «ليونسيو فيدال» أكبر قلعة فى وسط الجزيرة . ولكن فى أول يناير ١٩٥٩ كانت علامات الاختناق قد أخذت تبدو على المدافعين .

وفى صباح أول يناير أرسلنا الكابتن «نوتيس خمينيس» (ورودريجس دى لافيجا) يفوضان لاستسلام الثكنة وكانت الأنباء غريبة ومتناقضة: لقد هرب باتيستا مسيبا انهيار إدارة القوات المسلحة .

واتصل مندوبانا بواسطة الراديو مع كاتيو وأبلغاه عرض الاستسلام . . ولكنه من جانبه رأى أن مجرد قبول هذا العرض غير ممكن إذ هو يشكل إنذارا .

وإنه هو تولى إدارة الجيش وقد اتبع تعليمات فيدل كاسترو بدقة متناهية واتصلنا فورا بفيدل وأطلعناه على الأمر وأعطيناه رأينا بموقف «كاتيو» المريب .

وكانت القناعة قد تمت عند فيدل فهو أيضا على يقين من أن (كانتيو) خائن (في تلك اللحظات الحرجة سمح (كانتيو) لجميع كبار المسؤولين في حكومة باتيستا بالفرار ويبدو موقفه يدعو للثناء والعطف إذا اعتبرنا أنه ضابط أجرى اتصالا بنا ووثقنا به ظنا منا بكل سذاجة أن الرجل العسكري إنما يقول كلمة واحدة ولا يعود عنها.

أما بقية القصة فالجميع على علم بها: لقد رفض فيدل كاسترو أن يأخذ قول «كانتيو» بجدية واهتمام وراح يصدر أمره بالزحف والتوغل نحو هافانا ثم استيلاء الجنرال «باركين» على إدارة الجيش حالما خرج من سجن «جزيرة الصنوبر» واستيلاء «كاميلو سينفويجوس» على مدينة كولومبيا العسكرية وسيطرة طابورنا الثامن على قلعة «كابانيا» وأخيرا بعد مرور عدة أيام تم تنصيب (فيدل كاسترو) رئيسا للوزارة في الحكومة المؤقتة وكل هذا يشكل جزءاً من تاريخ البلاد السياسي الحالي».

* * * *

الفصل الثالث عشر

ذكریات جیفارا فی بولیفیا

جيفارا وحرب بوليفيا

هذه خلاصة الشهور التي قضاها أرستو تشي جيفارا مناضلا مكافحا مقاتلا مستبسلًا في بوليفيا من أجل تحرير الشعب البوليفي من قبضة الظلم والاستعباد. وهذه الشهور التي صاغ يومياتها جيفارا بدأت منذ أن وصل إلى بوليفيا يوم ٧ نوفمبر ١٩٦٦ بادئا مرحلة جديدة من مراحل النضال الذي ساهم فيه بكل ما يملك.

لقد كان وسيظل جيفارا رمزا حيا للبطولة والفداء وهذه حلقة من حلقات مشواره الطويل والشاق الذي قطعه ضد شتى أنواع الظلم والاستبداد على أمل أن يحرر شعوب الدنيا ويطلق سراحها من المعازل التي سجنها بداخلها الطواغيت ورموز القهر والقمع والفساد.

لقد كانت بوليفيا هي المحطة الأخيرة التي وصل إليها قطار جيفارا ليلقى بها مصرعه بعد أن ظل بها يعمل ويكافح ويناضل منذ ٧ نوفمبر ١٩٦٦ وحتى أسلم روحه لبارئها في ٧ أكتوبر ١٩٦٧ ليوارى جثمانه الثرى بعد حياة حافلة بالتحديات والصعوبات..

* * * *

خلاصة (نوفمبر ١٩٦٦)

مضى كل شيء بشكل رائع حيث وصلت دون مشقة أو عناء وكذلك كان الأمر مع حوالى نصف الآخرين رغم أنهم قد تأخروا فى الوصول إلى حد ما.

إن مساعدى ريكاردو الذين نعتد عليهم اعتمادا كليا سوف يناضلون ويقاثلون ضد كل التحديات والصعوبات، المشهد يبدو لى رائعا وجميلا ومثيرا فى هذه المنطقة البعيدة حيث إن كل الدلائل والإشارات تبرهن على أنه سوف يكون بإمكاننا أن نبقى هنا على المدى الذى نراه ضروريا.

أما خططنا فهى تتلخص فيما يلى وفى مقدمتها:

انتظار بقية العناصر المقاتلة من الرجال الشجعان وأن تتضاعف أعداد البوليفيين إلى حوالى عشرين مقاتلا على أقل تقدير.

بعد ذلك نبدأ فى العمليات المسلحة.

لا يزال أمامنا أن ندرس ونبحث ونعرف ما سوف يكون عليه رد الفعل عند مونجى مع طرح السؤال الهام الذى يفرض نفسه.

كيف ستفرض الجماعة نفسها على بوليفيا؟

* * * *

خلاصة شهر ديسمبر ١٩٦٦

لقد تجمع واكتمل فريقه العناصر الكويتية بشكل يبعث على الأمل وشعور بالزهو والنجاح وهو ما أدى إلى رفع معنوياتنا إلى عنان السماء.

صحيح أنه توجد لدينا بعض المشكلات والعقبات الصغيرة التي من الممكن أن نقفز عليها أو نتجاوزها حتى نستطيع الوصول إلى مراميها وأهدافنا.

إن أهل بوليفيا يتصفون بالروعة والبسالة والشجاعة والإقدام رغم قلة عددهم النسبية.

إن موقف مونجي من شأنه إعاقة المضي قدما للأمام وإن كان في تقديرى سوف يعمل على نحو أو آخر على التقدم بخطى سريعة وواسعة لكي أتحرر أنا ومن معى من العقبات والورطات السياسية التي من الممكن أن تعرقل مسيرة نضالنا.

أما فيما يتصل بشأن الخطوات التالية فضلا عن انتظار عدد لا بأس به من البوليفيين فهو يتعلق بإجراء حديث مطول مع جوفار فضلا عن الأرجنتينى موريسيو وجوزامى «ماسيتى والحزب المنشق».

* * * *

خلاصة يناير ١٩٦٧

كما هو متوقع فقد كان موقف مونغى فى بادئ الأمر يتصف بالمراوغة والدماء والمكر ومن ثم لم يكن مستغربا أن يتحول فيما بعد إلى إنسان خائن.

إن الحزب قد أشهر سلاحه ضدنا الآن ولم أعد أعرف إلى أى مدى ستقودنا الأيام القادمة أمام هذا التطور الخطير والتصعيد الذى ينبئ بأن الأحداث التى سوف تندلع فى المستقبل سوف يكون لها أبلغ الأثر فى مجريات الأمور بيننا لكن على أية حال لن يكون ذلك اختبارا لقدراتنا وكفاءة سلاحنا وإرادة وصلابة رجالنا بل أظن أن على العكس قد يكون ذلك مفيدا لنا فى المستقبل البعيد «أنا على يقين من ذلك» إن أشجع الرجال وأكثرهم بسالة وصمودا هم الذين يناضلون معا رغم صراعاتهم مع ضمايرهم.

إن جوفافارا قد تجاوب حتى الآن تجاوبا كريما.. وسوف ترى كيف يشق طريقه هو ورجاله فى مستقبل الأيام القادمة.

لقد سافرت مرة أخرى ولكن لا توجد أية علامات منها أو من الأرجنتين هذا هو وقت بداية مرحلة قتال العصابات الحقيقى وسوف نجرى اختبارات قياسية على المقاتلين والزمن هو الذى سيمنح النتائج ويتزع النقاب عن المدى البعيد للثورة البوليفية.

على أية حال إن ذلك كله كنت أتوقعه حيث إن انضمام البوليفيين هو الذى استغرق وقتا طويلا ومدى واسعا لإتمامه.

خلاصة شهر فبراير ١٩٦٧

رغم عدم وفرة أية معلومات لدى حول ما حدث من وقائع داخل المعسكر فإن كل شيء كان يسير سيرا رائعا وجيدا باستثناء بعض الأشياء الصغيرة.

أما فيما يتصل بالشأن الخارجى فلم تكن لدينا أية أخبار بخصوص الرجلين اللذين يجب أن يرسلوا من أجل استكمال حلقات المجموعة المقاتلة.

ليس لدى أى أخبار واردة حتى تلك اللحظة من الأرجنتين ولا حتى من تشينو وقد بلغت الخطابات التى وردت إلينا فى أى وقت لكلتا الجبهتين.

سوف يكون الرجل الفرنسى المسئول عن تدريب واستكمال المجموعة قد وصل لاباز وأظن أن هذا الرجل سوف يكون فى المعسكر فى أى وقت من الأوقات منذ تلك اللحظة إن موقف الحزب مازال حتى الآن يبدو متردداً أو ذا وجهين وهذا أقل ما يمكن أن يقال عنه فى وجهة نظرى على الأقل على الرغم من أن هناك شرحا وتفسيرا وتوضيحا آخر سوف يكون نهائيا وذلك عندما أتحدث مع الوفد الجديد.

لقد نفذت المسيرة بصورة أكثر من رائعة وإن كانت قد تلطخت بالحادثة التى أدت إلى مقتل بنجامين الذى دفع حياته ثمنا لها.

إن المجموعة لا تزال حتى الآن تتصف بالوهن والضعف وقلة الحيلة والخوف ولن يكون بوسع أهل بوليفيا جميعا أن يتحملوا ويصبروا ويترثوا على أيام الجوع التى مضت وولت وهو ما أدى إلى وضوح تراجع فى الشعور بالحماسة والاندفاع نحو تحرير الوطن وفك قيوده وكسر أغلاله.

وما من شك أن هذه الصورة تتجلى حين يصبح أهل بوليفيا منقسمين على أنفسهم متفرقين تتنازعهم الخلافات وتعرقلهم العقبات وقلوبهم قد باتت لمن يراها وجلة خائفة.

أما بخصوص أهل كوبا فهناك إثنان من بينهم يتمتع كلاهما بخبرات دون المستوى أظنها قليلة للغاية، وباتشو وويو لم يحدث أن تجاوبا معا تجاوبا إيجابيا وإن كان أليجاندرود قد تجاوب بكل تأكيد.

أما فيما يتصل بشأن القدامى فإن ماركوس يسبب صداعا لى باستمرار فيما أن ريكاردو لا يتحمل أعباءه على أن الباقيين يعملون بصورة جيدة وحسنة للغاية.

* * * *

خلاصة مارس ١٩٦٧

كان هذا الشهر عامراً بالأحداث وقد كانت صورته العامة تحتوى على الآتى:

فترة تدعيم وتطهير لحركة العصابات وقد أنجزت إنجازاً تاماً وكاملاً . . لقد كانت فترة تقدم بطيء فيما يتصل بشأن انضمام هؤلاء الذين وفدوا من كوبا . . وقد بدا على وجوههم أنهم يتصفون بالقوة والبسالة والشجاعة والإقدام وكذلك الأمر أيضاً بشأن جماعة جوفافارا . . إنهم يتصفون بالضعف بشكل عام (هرب من بين صفوفهم اثنان وقد وقع أحدهم أسيراً) «هو الذى أقر واعترف» ثم هناك ثلاثة استسلموا واثنان بدوا لنا ضعيفين للغاية).

وإنها مرحلة بدأ فيها القتال وقد اتسمت بهجوم منظم ومشهود ورائع ولكنها تشوهت من خلال تردد بدا واضحاً ومفضوحاً وذلك قبل ابتداء المعركة بل وبعدها أيضاً (انسحاب ماركوس من عملية براوليويس) وإنها مرحلة ابتداء الهجوم المضاد من خلال قوات العدو.

وقد انصف حتى الآن بما يلي:

- ١ - الميل لوضع أماكن مراقبة بهدف إقصائنا وعزلنا.
- ٢ - الضجة والجلبة والإثارة على كافة الأصعدة خاصة الوطنية والدولية والعالمية.
- ٣ - غياب الفعالية وحسم الأمور حتى الآن.
- ٤ - حشد وتجميع وتعبئة الفلاحين.

ومن الواضح أننا ينبغي أن نبدأ فى مسيرتنا قبل المدة المحددة التى كنت قد قدرتها وفقاً لحساباتى . . وقد تركنا خلفنا مجموعة من الرجال الاحتياط فضلاً عن عرقلة ضخمة تكونت من عدة عقبات.

إن الأمر لا يتسم بالروعة حيث تواجه حركة العصابات مرحلة جديدة من التجارب سوف تعود بالفائدة على المقاتلين حين يتم اجتيازها.

* * * *

التشكيلات

الطليعة: القائد ميجيل، أفرادها: بينجنو وباتشو ولورو واينسينو، وكامبا، ودوكو وداريو وجوليو وبابلو وراوول.

المؤخرة: القائد جوكوين، أفرادها: سيجونديو وبراوليو ورويسو وماركوس وييدرو وميديكو وبولو وولتر وفكتور (بيبي وباكو وإبوزير وتشينجالو).

القلب: أنا ومعى كل من أليجاندر ورولانديو إنتى وناتو وتيوما وايربانو ومورو وينجرو وريكاردو وابوستاكيو وجوفارا وويلتى ولويسى وأنطونيو وليون (تانيا وبيلاو ودانتون وتشينر، وهؤلاء جميعا زائرون).

أما سيرايو فقد كان لاجئاً.

* * * *

خلاصة أبريل ١٩٦٧

مضت الأمور فى إطار مقبول على أية حال رغم أن هناك خسارتين فادحتين قد تعرضنا لهما وهما مقتل روبيو ورولاندر.

ومقتل هذا الأخير على وجه الخصوص يمثل ضربة قاصمة لنا حيث دُنت أعتزم بتسليمه إلى الجبهة الثانية عندما يأتى موعد فتحها.

قمنا بأربع عمليات كانت كلها إيجابية وناجحة بوجه عام وكانت إحداها جيدة جدا وهى الكمين الذى قتل فيه روبيو.

أما من جانب آخر فإن عزلتنا لا تزال حتى الآن مفروضة علينا فرضا كاملا . . المرض يفتك بصحة بعض من الرفاق وهو ما يدفعنا إلى توزيع قوانا الأمر الذى يعمل على تخفيض مستوى فاعليتنا.

لم تتمكن حتى تلك اللحظة من إقامة اتصال بجوكوين ولم نتمكن حتى الآن من بناء وتشيد قاعدة من الفلاحين تعمل تحت إمرتنا ورهن إشارتنا.

ويبدو أنه بوسعنا أن نلجأ إلى الإرهاب المنتظم لإرغام معظمهم على التحلى بسياسة الحياد أما كسب تأييدهم لنا فسوف يأتى لاحقا . . لم ينضم إلينا أحد . . إلى جانب الذين سقطوا قتلى وشفوفنا . . لقد فقدنا لورو الذى اختفى تماما بعد معركة «تايريلاس» وعلى ضوء الملاحظات التى تم تدوينها حول الإستراتيجية العسكرية يمكننا الآن استخلاص الدروس الآتى ذكرها:

١ - لم يكن الحصار المضروب علينا فعالا حتى الآن وذلك مرجعه ضعف الجيش وجمود حركته . . أنهم يريدون إزعاجنا لكنهم لا يستطيعون عرقلة تحركاتنا ويمكن أن نفترض بأنهم سوف يتعلمون ويستوعبون ويدركون رغما

عنهم ما جرى من خلال المشاغبة مع الكلاب ومديرها الأمر الذى يضاعف من حذرهم فيما يخص مسألة التوغل فى الغابات.

٢ - الجلبة لاتزال قائمة حتى الآن.. وقد قمت بنشر مقالاتى فى هافانا، ما من شك فى أن كلا الطرفين على يقين بوجودى هنا يبدو مؤكداً أن الأمريكين الشماليين سوف يتدخلون بقوات عسكرية فى بوليفيا.

لقد شرعوا الآن فى إرسال طائرات عسكرية عامودية وأظن أنهم قد أرسلوا بالإضافة إلى ذلك بعض رجال (الفرق الخاصة)^(١) رغم أن أعيننا لم تقع على أى منهم حتى تلك اللحظة.

٣ - شهد الجيش طفرة تقنية (أعتقد أن ذلك قد حدث على مستوى سرية أو أكثر) ولقد كانت مفاجأة لنا مستوى الأداء الذى ظهر لنا بوضوح فى معركة «تايريلاس» وقد حرص أفراد الجيش أثناء تلك المعركة على شجاعتهم وكفاءتهم ورباطة جأشهم فى معركة «إل ميزون».

٤ - التعبئة المتعلقة بمجتمع الفلاحين معدومة للغاية باستثناء بعض أعمال التجسس التى تثير إزعاجنا بعض الشيء لكن الذين يتحملون مسؤوليتها يتصفون بالبطء الشديد وغير فعالين ومن الممكن وضع حد فاصل لأنشطتهم.

لقد تغيرت صورة إل شينو وسوف يصعد إلى رتبة مقاتل حينما نفتح الجبهة الثانية أو الثالثة.

دفع دانتون وكارلوس ثمنا باهظا لتعجلهما فى الرحيل وذهبا ضحية لعدم بذل جهد كافٍ للحيلولة دونه. هكذا انقطع اتصال بكوبا (بسبب دانتون) وقد فقدت خطة العمل فيما يتعلق بالأرجنتين (بسبب كارلوس).

(١) هى فرق متدربة تدريباً رفيعاً على حرب العصابات.

الخلاصة لما سبق ذكره أنه:

يمكن الزعم بأن شهر أبريل وقعت فيه الأمور بشكل طبيعي إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الطوارئ التي ينبغي لحرب العصابات خوضها ومواجهتها. إن المعنويات بلغت عنان السماء عند جميع الرفاق الذين اجتازوا أول امتحان لهم كرجال عصابات.

* * * *

خلاصة مايو ١٩٦٧

إن النقطة السوداء في هذا الأمر هي صعوبة الاتصال مع جوكين بغض النظر عن رحلتنا فوق مرتفعات قمم الجبال. البراهين تدلل على أننا انحرفنا ناحية الشمال.

نجاح رائع على الجبهة العسكرية حيث إننا قد قمنا بالاشتباك في ثلاث معارك جديدة أوقعنا للعدو خلالها خسائر عديدة وقد خرجنا منها سالمين واسطعنا أن نتوغل في «بيريرندا في كاراجا أرندا» تين أنه لا جدوى على وجه الإطلاق من استخدام الكلاب ومن ثم سحبت من التداول!

أهم مزايا شهر مايو:

١ - قطع الاتصالات بمانيرا ولا باز وجوكين وهو الأمر الذي يؤدي إلى تقليل عدد أفراد فرقنا إلى ٣٥ رجلا.

٢ - فشل تام في اجتذاب عناصر الفلاحين رغم أنهم قد تخلصوا من مخاوفهم المسكونة بداخلهم وبدأنا نلفت أنظارهم ونثير إعجابهم إنها مهمة تتصف بالبطء الشديد لكنها تتطلب أن نتذرع بالصبر.

٣ - أعلن الحزب بواسطة كوللى عن استعدادده وحرصه على التعاون ويبدو أنه لا يشير أية تحفظات.

٤ - الضجة المثارة حول قضية ديريه هي فى الأساس تعد دعاية لحركتنا وهي أفضل على أية حال من عشره معارك ظافرة.

٥ - تستمر حرب العصابات باكتساب تأييد كاسح وإذا استطعنا توظيف هذا التأييد بذكاء حتى نضمن النصر.

٦ - لا يزال الجيش فى حالة تفكك وانهيار ولم يرتفع مستوى التقنية فيه على نحو واضح.

إن تخوف لورو وفراره يعد فى تقديرى من أبرز وألمع أنباء هذا الشهر وحن الوقت لكى يعود إلينا أو يتوجه إلى لا باز من أجل إقامة الاتصالات الضرورية والهامة.

لقد أدلى الجيش ببيان كشف فيه قيام السلطات الحكومية باعتقال جميع الفلاحين الذين ساعدونا وساندونا فى منطقة (ماسيكورى). . حان الوقت الذى يمارس فيه كل من الطرفين ضغطه على الفلاحين ولكن من خلال اتجاهين مختلفين إن انتصارنا فى هذه المعركة هو التغيير التكتيكي الذى سوف يؤدي إلى قفزة فى تطور حركتنا.

* * * *

خلاصة شهر يونيو ١٩٦٧

النقاط السلبية هي التالية: صعوبة الاتصال بجوكين وخسارتنا الواضحة لمقاتلينا الذين يمثل فقدان كل واحد منهم هزيمة نكراء بحد ذاتها رغم أن الجيش لا علم له بذلك خضنا معركتين صغيرتين خلال هذا الشهر.

كبدنا فيها العدو أربعة قتلى وثلاثة جرحى وفق ادعاءات مصادر قوات جيش العدو نفسه.

أهم مكاسب الشهر:

١ - انعدام الاتصالات بشكل عام الأمر الذى أدى إلى تراجع عدد رجالنا إلى حوالى ٢٤ رجلا مع بومبو الجريح وسرعة تحرك منخفضة.

٢ - لا نزال نشكو ونثن من فشلنا فى اجتذاب الفلاحين، إنها حلقة مفرغة حقا ولكى نستطيع اجتذاب الفلاحين ينبغى القيام بعمليات مستمرة فى المناطق المزدحمة لكن القيام بذلك يستدعى المزيد من الرجال.

٣ - أسطورة حرب العصابات تنمو وتكبر... نحن الآن رجال أكفاء نابغون لا يستطيع أحد قهرهم إطلاقا.

٤ - انقطاع الاتصالات يشمل الحزب أيضا رغم أننا قمنا بمحاولة اتصال به بواسطة باولينو لعلها بذلك تحقق بعض النجاح.

٥ - لازال ديرييه يتصدر الأنباء إلا أنه مرتبط الآن بقضيتى حيث أوضح كقائد لهذه الحركة أننا فى انتظار نتائج الخطوة التى أقدمت عليها الحكومة حتى نكتشف هل كانت إيجابية أم سلبية؟

٦ - معنويات الرفاق في أعالي السماء والتصميم على النضال يتزايد . . جميع الكوبيين قدوة في هذه المعركة، يوجد بين البوليفيين بعض الرفاق الضعفاء، لكنهم لا يتجاوزون الثلاثة.

٧ - لا يزال الجيش صفرا على الشمال خصوصا بالنسبة للعمليات العسكرية لكنهم ينشطون في أوساط الفلاحين بأسلوب لا يمكن بحال الاستخفاف به حيث يتحول جميع أبناء القرية إلى مخبرين وعملاء . . هل كان ذلك عن طريق الإرهاب أو بواسطة تضليلهم بشأن أهدافنا.

٨ - المذبحة التي ارتكبها الجيش في المناجم تكشف الصورة بالنسبة إلينا، وإذا استطعنا تعميم بلاغتنا العسكرية فذلك من شأنه إضفاء المزيد من الوضوح على الوضع الراهن.

إن أهم مهمة حاليا هي تعزيز الاتصالات مع لا باز من أجل الحصول على العتاد العسكري والأدوية لكي تجتذب أكثر من خمسين رجلا مقاتلا في المدينة رغم أن ذلك قد يخفض عدد المقاتلين الفعليين إلى ما بين ١٠ و ٢٥ مقاتلا.

* * * *

خلاصة شهر يوليو ١٩٦٧

ما زالت النقاط السلبية مثلما كانت عليه في الأشهر السالفة أى استحالة الاتصال بجوكين أو الخارج وخسارة المزيد من الرفاق، لم يبق منا الآن إلا اثنان وعشرون رفيقا بينهم ثلاثة مشلولين بمن فيهم أنا شخصا - الأمر الذى يؤدى إلى بقاء حركتنا. اشتبكنا مع الجيش فى ثلاث مناسبات بما فى ذلك معركة سوماياتا فقتلنا سبعة من جنوده وجرحنا نحو عشرة..

إن هذه الأرقام تقريبية بسبب تناقض البلاغات الرسمية نفسها.

فقدنا رفيقين وجرح واحد منا.

أهم مميزات الشهر:

- ١ - انعدام الاتصالات كليا مازال مستمرا.
- ٢ - لانزال نشعر بالفشل فى اجتذاب الفلاحين رغم أن الإشارات المشجعة التى برزت فى الاستقبال الحافل الذى أقامه لنا أصدقاؤنا من الفلاحين القدامى.
- ٣ - أسطورة حرب العصابات تنهض وتنمو وتكبر.. قررت أونغانيا إقفال حدودها مع بوليفيا فيما بادرت البيرو باتخاذ تدابير وإجراءات وقائية.
- ٤ - أخفقنا فى محاولة إقامة اتصال بواسطة باولينو.
- ٥ - لا يزال الجيش فى تلك الجلبة يبدو مثل الأصم الذى يمشى وسط رفة عروسين.. رغم أن القدرة القتالية لبعض الوحدات قد ارتفعت.
- ٦ - إن معنويات الفرقة المقاتلة وتجربتها القتالية تزداد مع كل معركة.. مازال كامبا وتشاباكو ضعيفين.

٧ - الأزمة السياسية تتفاقم على مستوى الحكومة بيد أن الولايات المتحدة تقدم بعض القروض كعون ودعم كبير لنظام الحكم القائم إذا أخذنا حجم بوليفيا بعين الاعتبار . .

وما من شك في أنها تساعد على التخلص من السخط والتذمر والاحتجاج .
إن المهمات التي تتصف بالإلحاح هي : إعادة الاتصال وضم المقاتلين الجدد فضلا عن أهمية استجلاب الأدوية والحصول على العتاد .

* * * *

خلاصة شهر أغسطس ١٩٦٧

منا من شك فى أن هذا هو أصعب وأسوأ شهر قضيناه منذ بداية الحرب. إن خسارة كل الكهوف بما فيها من وثائق وأدوية شكل ضربة قاصمة لنا وبشكل خاص على الجانب المعنوى.

كذلك فإن مقتل رفيقين فى نهاية هذا الشهر، ومتابعة السير وما من زاد لدينا قد حط من معنويات الرفاق مسببا أول حادثة تساقط.

كامبا الذى يمكن اعتباره إعلانا عن التخلي عن المعركة حدثا مفيدا لنا لو أن الأمور كانت غير ما هى الآن.

انعدام الاتصال بالخارج وجوكين خاصة وكون الأسرى من مجموعته قد أقروا باعترافات ضارة قد أدى أيضا إلى الحط من معنويات فرقنا بعض الشيء.. يولد مرض بعض التخاذل عند العديد من الرفاق.

وقد اتضح ذلك فى الاشتباك الوحيد الذى أجريناه خلال هذا الشهر حيث كان بوسعنا أن نقتل عدة جنود فلم نفلح إلا بإصابة واحد منهم بجروح.. وإلى جانب ذلك كله فإن المسيرة الصعبة عبر الجبال مع الظمأ تركت آثارا سلبية على الرفاق.

أهم مميزات الشهر:

١ - مارلنا حتى الآن بغير اتصالات من أى نوع ولا أمل بإجراء أي منها فى المستقبل القريب.

٢ - كالعادة لم تتمكن من ضم عناصر ريفية إلى صفوفنا وهذا أمر لا يتعذر فهمه نظرا لقلّة الاتصالات التى كانت لنا بهم خلال الآونة الأخيرة.

٣ - انخفضت قدرة الرفاق القتالية بيد أنى أتوقع أن يكون ذلك حدثا عرضيا.

٤ - الجيش لا ترتفع فعاليته أو قدرته القتالية . معنوياتنا قد انخفضت بغير شك ،
وتقلصت الأسطورة الثورية المنسوجة حولنا .

إن المهام الملحة هي ذاتها مهام الشهر المنصرم أى محاولة إعادة الاتصالات وضم
المقاتلين والحصول على الدواء والعتاد .

جدير بالذكر أن أنتى وكوكو يظهران أكثر من أى وقت مضى بوصفهما مقاتلين
وقياديين على الصعيد الثورى والعسكرى .

* * * *

خلاصة شهر سبتمبر ١٩٦٧

كان من المتوقع أن يكون هذا الشهر شهر استراحه محارب وفرصة حسنة لالتقاط الأنفاس وكاد أن يكون كذلك حينما سقط كل من ميجويل الذى أفسد علينا كل شئ. فضلا عن خسارة ليون.

أما بخصوص اعتقال كامبا فأنا أراه مكسبا رائعا وأكيدا لحركتنا.

وقعت اشتباكات خفيفة مع العدو أسقطنا فى غمارها حصانا وجنديا وجرحنا آخر وتبادل أوريانو طلقات النار مع إحدى الدوريات بغض النظر عن الكمين المشؤوم فى لاهيفيرا. لم يبق لنا سوى البغال وأظن أننا نستخدم الدواب لعدة طويلة إلا إذا تراجعت صحتى مرة أخرى وداهمنى داء الربو.

ومن جانب آخر أتصور أن المعلومات التى أذيعت عن المجموعة الثانية صحيحة ويجب أن نتعامل معها على اعتبار أنها قد انتهت، هذا إلا إذا ظل بعض منها على قيد الحياة فراحوا يتجولون فى المنطقة فى تفادٍ واضح للاشتباك بالجيش والذى قد يعزز هذا الاعتقاد أن الأنباء عن مقتل سبعة ثوار فى معركة واحدة قد تكون مغلوطة أو مجسمة على أقل تقدير.

مزايا شهر سبتمبر ١٩٦٧ :

هى مزايا لا أظنها تختلف بشئ عن مزايا الشهور الأخرى باستثناء المزيد من الفعالية فى القتال عند الجيش ورفض الغالبية العظمى من أبناء الريف البوليفى من مد يد الدعم والمؤازرة^١ مع تحويلهم إلى مخبرين عند الجيش

إن المهام الملحة هى التسلل من بين الحصار المضروب والبحث عن مناطق ملائمة وإعادة الاتصال على الرغم من أن الجهاز قد انهيار وتحلل وتفكك فى لا باز حيث قدمت^٢ قوى القمع ضربة قاصمة.

إن معنويات جميع الرفاق جيدة إلى حد ما.

إن ما يساورني من قلق يتعلق فقط (بويلي) الذي قد يغتنم فرصة وقوع اشتباك مع الجيش لمحاولة الفرار هذا إذا لم أجر معه حواراً صريحاً.

* * * *

يوم وفاة أرنستو تشي جيفارا

لقد مضى أحد عشر شهرا منذ أن أعلننا حرب العصابات.. مر النهار بغير أية تعقيدات.. أكاد أقول كان رومانسيا حالما حتى الثانية عشرة والنصف عندما مرت بالوهد امرأة عجوز لاهم لها سوى رعى الماعز والاعتناء بها..

وبما أننا كنا نتردد على هذا المكان فقد اضطررنا إلى احتجاز هذه العجوز.. لم تقدم لنا أية معلومات موثوقة عن الجنود متذرة بجهلها لكل ما يجرى لأنها لم تذهب إلى هناك منذ وقت طويل.

زودتنا ببيانات عن الطرقات: نحن الآن.. وفق روايتها - على بعد أمتار من هيفيراس وآخر من جاجاي، وعلى بعد أمتار من بوكارا.

في السابعة عشرة والنصف ذهب كل من دانتى وانيسكو وبابلتو إلى منزل العجوز حيث توجد ابنتها إحداها قعيدة والأخرى قصيرة القامة صغيرة الحجم أعطيناها خمسين «بيزوس» طالين منها عدم الإفشاء بكلمة واحدة عنا.. بيد أن الأمل ضعيف بأنها ستفى بما وعدت به.

كنا سبعة عشر رجلاً نمشي الهوينا تحت ضوء القمر الخافت الشاحب.

المسيرة كانت شاقة ومرهقة وقد خلفنا العديد من آثار وجودنا في الوهد.

لا توجد منازل قريبة، لكن هناك حقول مزروعة بالبطاطا ترويهما الساقية في تمام الساعة الثانية.

توقفنا عن السير لكي ننال قسطاً من الراحة مادام التقدم بدون أية فائدة..

إن تشينو يتحول إلى عبء ثقيل علينا عندما نضطر إلى السير في جنح الظلام

الدامس.

لقد أدلى الجيش بمعلومات وبيانات مشيرة للغرابة تشير إلى وجود نحو ٢٥٠ جندياً في سيرانو من أجل الحيلولة دون هروب الذين فرض عليهم الحصار الشديد إنه يقدر عددنا بنحو سبعة وثلاثين مقاتلاً، ويعتبر أننا في مكان ما بين نهر «أثيرو» ونهر «أورو» إننى أتصور أن الهدف من وراء هذه البيانات هو التضليل ليس إلا.

* * * *

جيفارا قد كتب هذه اليوميات ليرحل عن عالمنا بعدها ومن ثم كان هذا اليوم الذى كتب فيه يومياته الأخيرة هو السابع من أكتوبر ١٩٦٧ بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة بفعل رصاصات استقرت فى جسده من قوات العدو.

* * * *

كيف قتلوا جيفارا؟ بقلم فيدل كاسترو^(١)

فى اليوم الثامن من شهر أكتوبر ١٩٦٧ وفى تمام الساعة الواحدة من بعد ظهر هذا اليوم كان الثائر الوطنى ومحرم شعوب أمريكا اللاتينية أرستو تشى جيفارا فى شعاب تتصف بضيق المساحة ينتظر أن يسدل الليل أستاره لعله يتمكن من فك الحصار المضروب بيد أن إحدى الفرق الكبرى المنسوبة لقوات العدو قد انقضت عليهم وكانت الأعداد القليلة من الرجال يشكلون البطولات فى أروع صورها فى ذلك اليوم. كانت مجموعة هؤلاء الرجال تناضل وتقاتل ببطولة حتى خيوط الفجر من خلال مراكز فردية قائمة فى بطن الشعاب وعلى رؤوس التواءات ضد فرقة الجنود الذين حاصروها وهاجموها.

لم يبق أحد بجوار جيفارا حيا حتى الطيب الذى كان يعمل بالقرب منه فى وضع سيئ جدا.. وكان بجواره أيضا مقاتل بيروانى يشكو بدوره سوء حالته وهذا يدل على أن جيفارا حتى اللحظة التى سقط فيها جريحا قد بذل غاية جهده لتغطية انسحاب هذين الرفيقين إلى مكان لا يبعد فى الغالب عن كويرادا دل يورو.

إن شدة انحدار الأرض الصخرية المتعرجة جعل الاتصال البصرى بين مقاتلى العصابات صعبا جدا وفى بعض الحالات محالاً.

أما هؤلاء المدافعون عن الموقع القائم فى المدخل الآخر للشعب على بعد عدة مئات من الأمتار من جيفارا كان من بينهم إتنى بيريدو، فقد توقفوا عن القتال عند الفجر لما تمكنوا من الإفلات من العدو، فتوجهوا إلى مكان الالتقاء المتفق عليه فى السابق.

لقد تأكدنا أن جيفارا مضى في قتاله رغم ما به من جراح حتى دمرت فوهة
بندقية ال «م - ٢» بطلق نارى وأصبحت متعطلة تماما.

وأما المسدس الذى كان يحمله فلم يكن معه له مخزن ذخيرة.

إن هذه الظروف التي لا تصدق هي التي تفسركيف تم اعتقاله حيا؟ وإذا كانت الجراح ألتى أصيبت فيها ساقاه قد عرقلته عن السير بغير دعم بيد أنها لم تكن مميتة. نقل إلى بلدة هيجوراس وعاش حوالى ٢٤ ساعة أخرى وقد رفض أن يتحدث مع الذين أسروه وإذا حاول ضابط مخمور أن يستفزه فقد أجابه بصفعة على وجهه. واجتمع فى لابس كل من باريتوس وأوفاندو وقادة عسكريين آخرين فقرروا اغتياله بكل برود أعصاب، أما تفاصيل الطريقة التي اتبعوها فى تنفيذ اتفاقية الخيانة فى المدرسة فى بلد هيجوراس فهى معروفة جداً.

لقد أصدر كل من الميجور ميجويل أيورو والكولونيل أندريس سيلنخ وهما جنديان مدربان من خلال اليانكي أوامرهما إلى الضابط ماريوتيران لتنفيذ القتل.

وعندما ذهب هذا الأخير إلى المكان وكان سكرانا.. كان تشي جيفارا قد سمع الطلقات التي قتلت في تلك اللحظة مغاورين أحدهما بوليفي والآخر بيرواني..
و حين رأى الذي جاء لاغتياله مترددا قال له في ثقة وثبات «أطلق النار لا تخف» فما كان من الأخير إلا أن تراجع مما أرغم رئيسه إيورو وسيلنخ أن يكرر الأمر. فعاد لكي ينجزه مطلقا النار من مدفعه الرشاش من الوسط إلى أسفل.

وكانت الرواية قد ذاعت وشاعت بأن جيفارا قد مات بعد عدة ساعات من انتهاء القتال . . لذلك صدرت الأوامر لقاتليه ألا يطلقوا النار على الصدر أو الرأس حتى لا يحدثوا جراحا مميتة.

فأدت هذه القسوة إلى إطالة أمد عذاب تشى جيفارا حتى جاء رقيب مخمور أيضا فأطلق عليه طلقة ناريا من مسدسه استقر في جانبه الأيسر.

إن هذا العمل إجراء إجرامى إذا ما قورن بالاحترام الذى كان يعامل به تشى جيفارا بغير استثناء ضباط وجنود الجيش البوليفى الذين وقعوا أسرى بين يديه. لابد وأن تكون الساعات الأخيرة التى عاشها فى قبضة أعدائه المكروهين ساعات مريرة بالنسبة له. .

ولكن لا يوجد هنالك إنسان مهياً أكثر من تشى جيفارا لمواجهة مثل هذا الامتحان.

فيدل كاسترو

الزعيم الكوبى

فهرس

الصفحات

الموضوعات

٣ مقدمة
٥ مدخل ذكريات للتاريخ
٩ الفصل الأول: مع كاسترو في المكسيك.
١٧ التعميد بالنار.
٢٣ الفصل الثاني: الجريمة التي لا تغتفر.
٣٥ الفصل الثالث: الطريق إلى النصر الأول.
٤٥ معركة نهر الجحيم: ٢٢ يناير ١٩٥٧.
٤٩ الفصل الرابع: غارة جوية والرفيق الخائن
٥٧ مفاجأة جبال السينوزا ٩ فبراير ١٩٥٧.
٦٧ الفصل الخامس: لكل خائن نهاية مؤسفة.
٧٤ الأيام الصعبة.
٨١ الفصل السادس: وصول الإمدادات
٨٩ إعداد الرجال.
٩٥ الفصل السابع: لقاء صحفى شهير ومثير
١٠٤ ١٥ يوما سيرا على الأقدام.
١٠٩ الفصل الثامن: ووصلت شحنة الأسلحة
١١٩ الفصل التاسع: معركة الأوفيرو عصابتنا نضجت واستوت
١٣١ جيش الجرحى الصغير.
١٣٧ الفصل العاشر: ليديا

١٤٣ العودة
١٥٣ الفصل الحادي عشر: خيانة
١٦١ معركة الأمبريتو
١٦٩ الفصل الثاني عشر: معركة بينودل أجوا.
١٨٣ كاسترو رئيسا للوزراء
١٩٧ الفصل الثالث عشر: ذكريات جيفارا في بوليفيا.
٢٠٠ خلاصة (نوفمبر ١٩٦٦).
٢٠١ خلاصة شهر ديسمبر ١٩٦٦.
٢٠٢ خلاصة يناير ١٩٦٧.
٢٠٣ خلاصة شهر فبراير ١٩٦٧.
٢٠٥ خلاصة مارس ١٩٦٧.
٢٠٦ التشكيلات.
٢٠٧ خلاصة أبريل ١٩٦٧.
٢٠٩ خلاصة مايو ١٩٦٧.
٢١١ خلاصة شهر يونيو ١٩٦٧.
٢١٣ خلاصة شهر يوليو ١٩٦٧.
٢١٥ خلاصة شهر أغسطس ١٩٦٧.
٢١٧ خلاصة شهر سبتمبر ١٩٦٧.
٢١٩ يوم وفاة أرنستو تشي جيفارا.
٢٢١ كيف قتلوا جيفارا؟ بقلم فيدل كاسترو.
٢٢٥ الفهرس.